بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رجب ١٤٤٠ هـ

السنة : ٢٦ ـ العدد : ٥١

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

Issn : 2538 - 1733

ملاحظات :

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

١. أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيل.

٢. أن لاتتجاوز المقالة ٤٠ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.

٣. أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسسٍ فنيّة وليس لأسباب أخرى.

٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر وآراء كتّابها.

٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.

٩.ترحّب إدارة التحرير في مجلة «**ميقات الحج**» بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

الفهرس :

في ظلال دعاء الحجّ	الشيخ علي فاضل الصَّددي	٧
علمُ المناسبة	محسن الأسدي	٢١
﴿حنيفاً﴾ ، ﴿حنفاء﴾ (٢)	حسن الحاج	٧٣
شخصيّات من الحرمين الشريفين (٤٢)		
عمرو بن الحمق ـ الخزاعي الآخر	محمـد سليمان	١٢٧
المعيصم	محمدسعيد النجاتي	٢٠٧
قراءة في كتابه «رحلتي إلى مكة المكرمة»	د. محمد خير البقاعي	٢٥٩

هيْئةُ التَّحْريِـر:

الشيخ محمد جواد الفاضل اللنكراني

الشيخ محمد القايني

الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي

الشيخ رضا المختاري

المُـدِيــرُ المسؤُول:

السيد علي قاضي عسكر

مُـدِيــرُ التحْــرِير:

محمدعلي المقدادي

في ظلال (دعاء الحجّ)

الشيخ علي فاضل الصدديّ

مقدّمة:

لقد حفلت أدعية شهر رمضان على كثرتها وتنوّعها بطلب التوفيق لحجّ البيت، فمنها: الدعاء الّذي يُدعى به في شهر رمضان من أوله إلى آخره بعد كلّ فريضة: «اللّهم ارزقني حجّ بيتك الحرام في عامي هذا وفي كلّ عام، ما أبقيتني في يُسْرٍ وعافية وسعة رزق، ولا تخلني من تلك المواقف الكريمة والمشاهد الشريفة وزيارة قبر نبيّك صلواتك

عليه وآله، وفي جميع حوائج الدنيا والآخرة فكن لي، اللّهم إني أسألك فيما تقضي وتقدّر من الأمر المحتوم في ليلة القدر من القضاء الّذي لا يردّ ولا يبدل أن تكتبني من حجّاج بيتك الحرام، المبرور حجّهم، المشكور سعيهم، المغفور ذنوبهم، المكفّر عنهم سيئاتهم...».[1]

ومنها: الدعاء الّذي يُدعى به في كلّ ليلة منه: «اللّهم برحمتك في الصالحين فأدخلنا،.. وليلةَ القدر وحجَّ بيتك الحرام وقتلاً في سبيلك فوفِّق لنا..».[2] إلى غير ذلك من الأدعية الرمضانيّة.

ومن تلكم الأدعية ما يعرف بـ(دعاء الحجّ)، وهو هذا الدعاء: «اللهم إني بك ومنك أطلب حاجتي، ومن طلب حاجته إلى الناس فاني لا أطلب حاجتي إلاّ منك، وحدك لا شريك لك، وأسألك بفضلك ورضوانك أن تصلّي على محمّد وأهل بيته، وأن تجعل لي في عامي هذا إلى بيتك الحرام سبيلاً، حجة مبرورة متقبلة زاكية خالصة لك، تقر بها عيني، وترفع بها درجتي، وترزقني أن أغض بصري، وأن أحفظ فرجي، وأن أكف عن جميع محارمك حتى لا يكون شيء آثر عندي من طاعتك وخشيتك، والعمل بما أحببت، والترك لما كرهت ونهيت عنه، واجعل ذلك في يسر ويسار وعافية وما أنعمت به علي وأسألك أن تجعل وفاتي قتلاً في سبيلك تحت راية نبيك مع أوليائك، وأسألك أن تقتل بي أعدائك وأعداء رسولك، وأسألك أن تكرمني بهوان من شئت من خلقك، ولا تهني بكرامة أحد من أوليائك، اللهم اجعل لي مع الرسول سبيلاً، حسبي الله،

---

١. الإقبال ١: ٧٩.

٢. الإقبال ١: ١٤٣.

ما شاء الله».

منشأ التسمية وسرّها:

ولعلّ منشأ تسمية هذا الدعاء بـ (دعاء الحج) ما قاله المفيد قدس سره في المقنعة: فإذا صلّيت المغرب من هذه الليلة، وهي أوّل ليلة في الشهر، فادع بهذا الدعاء، وهو دعاء الحجّ.[1]

وما أورده الشيخ المجلسيّ قدس سره في باب أدعية كلّ يوم يوم، وكلّ ليلة ليلة، من شهر رمضان وسائر أعمالها عندما أورد هذه الرواية، قائلاً: ورأيت بخط الشيخ محمّد بن عليّ الجباعيّ قدس سره ما هذا لفظه:

«دعاء الحجّ، يدعى به أوّل ليلة من شهر رمضان، وذكره الشيخ أبو الفتح محمّد بن عليّ الكراجكيّ في كتاب روضة العابدين الّذي صنّفه لولده موسى رحمهما الله»، ثمّ ساق الدعاء.[2]

وما قاله الكفعميّ قدس سره في مصباحه: ويستحبّ أن يدعو في كلّ يوم من شهر رمضان بهذا الدعاء، وفي أوّل ليلة منه، ويسمّى دعاء الحج.[3]

ولا غرو في تسمية هذا الدعاء بـ(دعاء الحجّ) بعد أن كان طلب الحج المخصوص ـ أعني ما كان مبروراً متقبّلاً زاكياً إلى آخر ما ذكر له في الدعاء من

---

١. المقنعة: ١١٦ ، ١١٧ .

٢. بحار الأنوار٩٥ : ١ .

٣. المصباح(جُنَّة الأمان الواقية وجَنَّة الإيمان الباقية) : ٦١٧ .

امتيازات ـ وأن يكون الإتيان به في يسرٍ ويسارٍ وعافية ونعمة هو أُولى الطلبات، والّتي أخذت شطراً وافراً من مساحة الدعاء.

رواية (دعاء الحجّ):

وقد رواه الشيخ الكليني قدس سره في الكافي عن عليّ، عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار، عن يونس، عن إبراهيم، عن محمّد بن مسلم، والحسين بن محمّد، عن أحمد بن إسحاق، عن سعدان، عن أبي بصير قال: كان أبوعبدالله عليه السلام يدعو بهذا الدعاء في شهر رمضان.[١]

ورواه السيّد ابن طاووس قدس سره في الإقبال قائلاً: دعاء آخر في كلّ ليلة من شهر رمضان بعد المغرب: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ادع للحجّ في ليالي شهر رمضان بعد المغرب.[٢]

وقال قدس سره في موضع آخر منه: فصل(١٣) فيما نذكره من ترتيب نافلة شهر رمضان بعد العشاء الآخرة وأدعيتها في كلّ ليلة تكون نافلتها عشرين ركعة أيضا، ثمّ تقول ما ذكره محمّد بن أبي قرّة في كتابه عقيب هاتين الركعتين ـ يعني الركعتين الخامسة والسادسة ـ .[٣]

١. الكافي٤ : ٧٤ باب ما يقال في مستقبل شهر رمضان .

٢. الإقبال١ : ٧٨ .

٣. الإقبال١: ١٠٤ـ ١٢٠ .

ورواه الشيخ المجلسيّ قدس سره كما تقدّم، هذا.

اختلاف ألفاظ الدعاء:

وتختلف ألفاظ الدعاء بين رواية وأخرى، ويصل الاختلاف إلى زيادة الفقرة، فقد زاد الكفعميّ قدس سره في آخره: وصلّى الله على سيّدنا محمّد رسوله خاتم النبيّين وآله الطاهرين.[1]

وسأتناول مهمّ الاختلافات عند التعرّض لشرح فقرات الدعاء ـ إن شاء الله ـ

إطلالة إجماليّة على الدعاء:

ابتدأ الدعاء بالثناء على الله سبحانه، وثنّى بالتوسّل بفضله ورضوانه، وثلّث بالصلاة على النبيّ وآله (عليهم صلواته)، وبعد كلّ تلكم الممهّدات لقبول الدعاء رفع طلب التوفيق والتيسير لحجّ بيت الله بنحوٍ خاصّ، ثم أردف ذلك بمهمّات من المسائل من القتل في سبيل الله، والإكرام وعدم الإهانة، وجعل السبيل مع الرسول.

فقد روى الكليني قدس سره في الصحيح عن الحارث بن المغيرة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إياكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربّه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عزّوجلّ والمدح له والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ يسأل الله حوائجه».[2]

---

١. المصباح : ٦١٧ .

٢. الكافي٢ : ٤٨٤ باب الثناء قبل الدعاء ح١ .

وروى في الصحيح أيضاً عن صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كلّ دعاء يدعى الله عزّوجلّ به محجوب عن السماء حتى يصلّي على محمّد وآل محمّد».[1] هذا.

و(دعاء الحجّ) تثقيف عمليٌّ بموجبات إجابة الدعاء من الثناء على الله والصلاة على النبيّ وآله بين يدَي الدعاء.

شرح الدعاء: ورغم وضوح مضامين هذا الدعاء بصورة عامّة، إلاّ أنه من الأهميّة بمكانٍ التوقّف عند فقرات هذا الدعاء؛ للخروج بجملة من معارفه وهداياته.

«اللهم إنّي بك» فلا حول لي ولا قوة إلاّ بك، فالعبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو موسوم بالفقر، ولا يستغني طرفةَ عينٍ عن عطاء الله ومدده وفضله.

وبعد هذا لاحاجة إلى إضافة كلمة (أتوسّل) كما في بعض طبعات الكافي؛ فإنّ المعنى يستقيم بدونها، على أنّ معنى الفقرة مع إضافتها يختلف جوهريّاً عن معناها بدونها.

«ومنك أطلب حاجتي» لا من سواك، فهو سبحانه حصراً الموئل لطلب الحاجة، كيف لا؟! وهو الربّ، ففي الدعاء الّذي يقرأ في كلّ يوم من شهر رمضان: «اللهمّ أنت ربّي وأنا عبدك، وأحقّ من سأل العبدُ ربُّه، ولم يسأل العباد مثلك كرماً وجوداً»، هذا. ومن الخطأ في قراءة هذا الدعاء جعل متعلَّق (منك) نفس متعلَّق (بك)؛ فإنّ المعنى وإن كان صحيحاً، إلاّ أنه معه لا يبقى معنى محصّلاً لقوله: «أطلب حاجتي».

«ومن طلب حاجةً (حاجته) إلى الناس فإنّي لا أطلب حاجتي إلاّ منك وحدك

---

١. الكافي٢ : ٤٩٣ باب الصلاة على النبيّ محمّد وأهل بيته عليهم السلام ح ١٠ .

لا شريك لك» وهذا نحو التزام وميثاق من العبد مع ربّه بأن لا يمدّ كفّ الضراعة والمسألة إلى غيره سبحانه، وإن اتفق أنّ غير هذا العبد سأل غير ربّه فأعطاه فإنّ هذا العبد رغم ذلك مستغنٍ عمّن سوى الله، وبهذا الميثاق يستنزل لا محالة ما عند الله سبحانه.

وفي الحقيقة يكون العبد بهذا عارفاً بربّه وبغناه وبغيره وفقره، و يا لها من معرفة استتبعت جرياً وسلوكاً عمليّاً، ولم تعد محض معرفةٍ لا محل لها إلاّ النفس دون السلوك.

وقد خطر في ذهني أنّ سؤالي إلى الله سبحانه فيمنعني ـ وهو وليّ الإعطاء والمنع ـ أحبُّ إليّ من سؤال غيره وإن أعطاني، فكيف إذا جبهني بالمنع؟! وأخلق بمنعه وجهي، ورأى بين عيني ذلّة السؤال والمنع.

وفي دعاء عرفة المشهور نسبته إلى الإمام الحسين عليه السلام: «إلهي إلى من تكلني؟ إلى قريب فيقطعني، أم إلى بعيد فيتجهّمني، أم إلى المستضعِفين لي وأنت ربّي ومليك أمري»؟!

«**وأسألك بفضلك ورضوانك**» قَسَمٌ عظيم على الله العظيم، وعزمٌ عليه بفضله ورضوانه؛ لينالهما، وإذا ما نال طلبته فهو مؤشّر على أنها من فضله ورضوانه، لا أن نيله لها من باب الاستدراج والإملاء، وفي دعاءٍ يقرأ في كلّ يوم من أيام شهر رمضان: «اللهمّ إنّي أسألك من فضلك بأفضله، وكلّ فضلك فاضل، اللهم إنّي أسألك بفضلك كلّه».

ثمّ إنّ نفس سؤال الله بفضله هو سؤال ـ بصورةٍ غير مباشرة ـ لله من فضله،

والعبد مدعوٌّ لذلك بقوله سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.[١]

«**أن تصلّي على محمّد وأهل بيته**» فكما يكون العزم على الله بفضله ورحمته ورضوانه موجباً من موجبات استجابة الدعاء كذلك الصلاة على نبيّه وآله عليهم السلام ـ هي الأخرى ـ من موجباتها، كما مرّت استفادته من مثل صحيحة ابن المغيرة، بل الصلاة على النبي وآله ذريعة ووسيلة تُبتغى إلى الله، مثلما أن نفس النبيّ وأهل بيته وسائلُ إلى الله، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾،[٢] ومن الشواهد على كون الصلاة عليهم ذريعةً إلى الله ولنيل ما عنده ـ ما في أحد أدعية الصحيفة السجّاديّة: «وصلِّ على محمّد وآله صلاةً تشفع لنا يوم القيمة ويوم الفاقة إليك».

«**وأن تجعل لي في عامي هذا إلى بيتك الحرام سبيلاً**» فالمسألة ـ التي من أجل إنجاحها سيق ما سيق من موجباته ـ هي التيسير لزيارة البيت الحرام في هذا العام، وأن تكون الزيارة عبارة عن نسك الحجّ، ولكنها ليست حجّةً كيفما اتفقت، بل «**حجّة مبرورةً متقبّلة زاكية تقرّ بها عيني وترفع بها درجتي**» إذن المسألة حجّة مخصوصة، فهي ذات خصائص وامتيازات، وأول امتيازاتها كونها مبرورة، وقد قيل في معنى الحجّ المبرور بأنه مالا يخالطه شيء من المآثم، وقيل: هو المقبول المقابَل بالبرّ، وهو الثواب. وامتيازها الآخر كونها متقبّلة، فبعد كونها مبرورة لا مأثم معها فهي لا محالة متقبّلة، ففي معتبرة أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أميرالمؤمنين (صلوات الله عليه) يقول:

---

١. سورة النساء: ٣٢.

٢. سورة المائدة: ٣٥.

«لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقلّ ما يُتقبّل»؟![1]

ومن امتيازاتها كونها زاكية، والزاكي من العمل هو ما نما ثوابه، وكيف لا تكون تلك الحَجّة نامية الثواب؟! وهي مبرورة متقبّلة.

وبامتيازات هذه الحجّة تقرّ العين، وترتفع الدرجة عند الله.

من عطاءات الحجّ:

«**وترزقني أن أغضّ بصري، وأن أحفظ فرجي، وأن أكفّ بها عن جميع محارمك**» فإلى جانب كون الحجّ عبادة يطلب العبد ثوابها والزلفى من الله بها ـ ثمّة عطاءات روحيّة ومعنويّة، فمن عطاءاته تقوية الوازع الديني، ويعود الحاجّ بحَجته أكثرَ استمساكاً عن أن تستزلّه المعصية، وأشدَّ ثباتاً في طريق الطاعة وفي مواجهة المعصية.

وقد لفت الدعاء نظرنا إلى مقصدٍ أساسٍ للشارع، ويراد بفعل الحجّ تحصيله، وهو حفظ الفرج، ففي صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما عُبد الله بشيء أفضل من عفّةِ بطنٍ وفرج»،[2] إلاّ أنّ لعفّة الفرج مفتاحاً، فما لم يستحصل المؤمن ذلك المفتاح فلا يأمن من أن يتردّى في رذيلة العهر والسفاح، والمفتاح هو غضّ البصر، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اللحظ رائد الفتن».[3] وفي الخبر: كان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه: «... إياكم والنظرة؛ فإنّها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة».[4]

---

١. الكافي٢ : ٧٥ باب الطاعة والتقوى ح٥ .

٢. الكافي ٢ : ٧٩، باب العفّة ح١ .

٣. غرر الحكم : ١٠٤٧ .

٤. أمالي المفيد : ٢٠٨ .

ولذا ابتدأ الدعاء بسؤاله ليتوصّل إلى المقصد الأساس، وهو حفظ الفرج وعفّته، «وترزقني أن أغضّ بصري، وأن أحفظ فرجي».

ولا يقف عطاء الحجّ في حفظ الفرج بل يثمر الكفَّ عن سائر محارم الله، «وأن أكفّ بها عن جميع محارمك».

«حتى لا يكون شيءٌ آثر عندي من طاعتك وخشيتك والعمل بما أحببت والترك لما كرهت ونهيت عنه» ويتعدّى عطاء الحجّ متاركة المحارم كمحض سلوكٍ إلى خلق ملكات إيمانية وخشيةٍ من الله بحيث لا يؤثِر العبد معها شيئاً ـ كائناً ما يكون ـ على طاعة الله فيما أمَر ونهى.

تتميم:

ولا يفوتني أن أعرض بعض ما اتفق من العطاء الإلهي لإبراهيم خليل الله عليه السلام في ذهابه وهجرته إلى الله، وهو ما قد يرشد إلى أن نيل بعض العطاءات الجليلة مرهون بالهجرة إلى الله سبحانه، وأنها تُستحقّ بهذه الهجرة.

قد ذكر الله هجرة الخليل عليه السلام في آيتين، ولفت إلى عطاء هجرته، فالأُولى هي قوله سبحانه: ﴿**وقال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين ۞ ربِّ هبْ لي من الصالحين ۞ فبشّرناه بغلام حليم**﴾.[1] فهبة الغلام الصالح الحليم ـ وهو إسماعيل عليه السلام ـ (نعم هبته) لإبراهيم بالإضافة إلى الهداية الخاصّة (سيهدين) كانت عطاءً من عطاءات ذهابه إلى ربّه.

والآية الثانية: هي قوله سبحانه: ﴿... **وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ۞

---

١. سورة الصافّات : ٩٩ ـ ١٠١ .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا..﴾.[1] فجعل الله النبوة والكتاب في ذرّية إبراهيم عليه السلام، ووهب له إسحاق ويعقوب عليهما السلام ـ على إثر هجرته إلى الله، وهو عطاءٌ من عطاءاتها، هذا. ويستفاد من تنوّع العطاء من هبة إسماعيل مرّةً، وهبة إسحاق ويعقوب وسلالتهما من الأنبياء مرّةً أخرى ـ أنّ ذهاب إبراهيم المشار إليه في الآية الأولى غير هجرته المشار إليها في الآية الثانية.

«**واجعل ذلك في يسرٍ ويسارٍ وعافيةٍ وما أنعمت به عليّ**» فإنّ الإتيان بالحجّ وإن كان لا يخلو من مشقّة، إلاّ أنه قد يترتّب عليه مشقّة مضاعفة وعَنَت بالغ ـ فليرغب العبد إلى الله في جعل حجّه في يسرٍ وبلا مزيد عناء ومعاناة. كما أنّ حجّ البيت مع يسارٍ ماليٍّ أمرٌ رائق جدّاً، لا يبقى معه الذهن مشدوداً لغير نسك الحجّ وأعماله، ولا يجد الحاجّ معه حاجةً إلى من يرفده ويسدّها.

وإذا ما سأل العبد شيئاً وإن كان مثل عبادة الحجّ فليسأل الله أن يكون له ذلك الشيء في عافية؛ فإنّه كما يُفتن العبد عن دينه بشبابه أو غناه أو صحّته فقد يُفتن عنه بعمل صالح أو عبادة، فتستخفّه هذه العبادة، وتسلبه توازنه، وتُفقده صوابه؛ ولذا جاء الخطاب من الله إلى نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله ـ ولئلا يأخذه ما يأخذ غيره من نشوة النصر وخفّته وسُكْره ـ (جاءه الخطاب): ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.[2] فالاستغفار يقود إلى العافية ويوفّرها.

والحجّ مع نعمة اليسار المالي وحسب ليس كالحجّ والعبد يرفل في نعمة اليسار

---

١. سورة العنكبوت : ٢٦ ـ ٢٧ .

٢. سورة النصر : ١ ـ ٣ .

وما سواها من النعم كالأمن والصحّة، فليرغب العبد إلى الله سبحانه في جعل حجّه في نِعَمِه عليه.

«وأسألك أن تجعل وفاتي قتلاً في سبيلك تحت راية نبيّك مع أوليائك» فما أكرم الشهادة وأجلّ خطر القتل في سبيل الله، ويكفي للتدليل على ذلك قول الله سبحانه: ﴿... وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.[1] هذا حال المقتول في سبيل الله بصورة عامّة، فكيف فيما إذا كان القتل في سبيل الله تحت راية رسول الله مع أوليائه؟!

ونعود لنقول بأنّ وزان هذه المسألة مع سؤال الحجّ وزانُ سؤال إبراهيم عليه السلام أن يصلح الله له في ذرّيّته وهو ذاهب ومهاجر إلى ربّه، فالحجّ والهجرة إلى الله مظنّة عطاءات الله الجليلة، فيجمل بالمؤمن أن يرفع إلى الله وهو حاجّ أو راغبٌ إلى الله في فعل الحجّ ـ مثل القتل في سبيل الله، وأن يقتل الله به أعدائه سبحانه، إلى آخر ما تضمّنه دعاء الحجّ من مسائل عظيمة وطلبات عالية.

ثمّ قد يُستفاد من آيتي ذهاب وهجرة إبرهيم عليه السلام إصراره فيهما على طلب صلاح الذرّيّة، وقد سجّل القرآن إجابة دعائه المتكرّر بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وبقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

«وأسألك أن تقتل بي أعدائك وأعداء رسولك» فإنّ القتل في سبيل الله وإن كان مُنى نفوس العارفين، فتراهم في مظانّ الإجابة لا يفتّرون من طلبه من الله، ولو بمثل

---

١. سورة محمّد: ٤ ـ ٦ .

ما ورد فيما يُقرأ من الأدعية في كلّ ليلة من شهر رمضان: «وليلةَ القدرِ وحجَّ بيتِك الحرامِ وقتلاً في سبيلِك فوفِّقْ لنا» ـ (نعم وإن كان القتل في سبيل مُنى نفوس العارفين) إلاّ أنه قد يستفاد من مثل دعاء الحجّ أنّ الشارع لا يجعله غايةً مع بقاء أعداء الله وأعداء رسوله، فليرغب المؤمن إلى الله في أن يرزقه الشهادة ولكن بعد أن يمعن في قتل أعداء الله وأعداء رسوله، ويطهّر الأرض منهم.

«**وأسألك أن تكرمني بهوان مَن شئت من خلقك**» ولعلّه كناية عن سؤال أن يكون العبد مستكمل الكرامة عندالله، وحين يجاب إلى ذلك فلن يكرم الله أحداً على حساب كرامته، كما هو منطوق الفقرة اللاحقة لهذه الفقرة: «ولا تهنّي بكرامة أحدٍ من أوليائك».

«**اللهمّ اجعل لي مع الرسول سبيلاً**» وهذه المسألة في الحقيقة هي مسألة الثبات على ولاية أولياء الله وأن يُختم للعبد بخير، يقول الله سبحانه: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**﴾.[1] ويقول سبحانه: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾.[2] وبضمّ قوله سبحانه: ﴿... **قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**...﴾.[3] ـ نستنتج أنّ السبيل في الآيتين السابقتين هي مودّة قربى رسول الله وأهل بيته، وكما ورد في دعاء الندبة: «**ثمّ جعلت أجر محمّد** (صلواتك عليه واله) **مودّتهم في كتابك**، فقلت: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾، فكانوا هم السبيل إليك،

---

١. سورة الفرقان : ٢٧ .

٢. سورة الفرقان: ٥٧.

٣. سورة الشورى:٢٣.

والمسلك إلى رضوانك».

«حسبي الله» وهو من الانقطاع إلى الله في المسألة، فيكفيني هو عن كلّ ما سواه، وهو حسبي عن المسؤولين والمعطين.

«ما شاء الله» فلا يكون إلاّ ما شاءه: إذ لا قوة للعبد ولا حول له إلاّ بالله، فابتدأ الدعاء بنفي الحول: «اللهمّ إنّي بك»، وختَم به: «ما شاء الله».

وزاد الكفعميّ قدس سره في آخره:

«وصلّى الله على سيّدنا محمّد رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين» وكما يستحبّ الصلاة عليه وآله قبل المسألة ـ تستحبّ الصلاة عليه وآله بعدها، وقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «من كانت له إلى الله عزّوجلّ حاجةٌ فليبدأ بالصلاة على محمّد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمّد وآل محمّد؛ فإنّ الله عزّ وجلّ أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط؛ إذ كانت الصلاة على محمّد وآل محمّد لا تُحجب عنه».[1]

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لاتجعلوني كقدح الراكب؛ فإنّ الراكب يملأ قدحه فيشربه إذا شاء، اجعلوني في أول الدعاء وفي آخره وفي وسطه».[2]

والحمد لله أولاً وآخِراً، وصلّى الله على نبيّه المصطفى وآله النجباء

١. الكافي٢: ٤٩٣ باب الصلاة على النبيّ محمّد وأهل بيته عليهم السلام ح١٦.

٢. الكافي٢: ٤٩٢ باب الصلاة على النبيّ محمّد وأهل بيته عليهم السلام ح٥.

علم المناسبة ، آيات الحج نموذجاً

محسن الأسدي

الملخص:

بعيداً عن الأقوال المختلفة في جمع القرآن المجيد وترتيب سوره وآياته، وانطلاقاً من القول: إنَّ ترتيب سور القرآن الكريم وآياته توقيفيٌّ لا اجتهاديٌّ، جاء (علم المناسبات) الذي وصفه الفخر الرازي بأنه: «علم عظيم، أودعت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه ...» لا فقط ليُثبت هذا القول، بل للدفاع عنه، وأنَّ التنزيل العزيز بنيانٌ مرصوصٌ، راح بعضه يشدُّ بعضاً، تأخذ آياته بأعناق أخرى؛ عبر ارتباط رائع ودقيق بين ألفاظه وكلماته وجمله في الآية الواحدة، وبين آياته في السورة الواحدة وهكذا بين

سوره في بناءٍ محكمٍ متلائمٍ، ونظمٍ فصيحٍ بليغٍ عالٍ وسياقٍ متآزرٍ؛ ليُشكل عقداً فريداً متكاملاً، ولوحةً جميلةً متميزةً متناسقةً في ألوانها وأشكالها...!

مواقع عديدة من التنزيل العزيز، تحدّثت عن البيت الحرام ودوره وما رسمته السماء له، نكتفي بالإشارة إلى بعض الآيات؛ بدءاً من:

المرحلة الأولى: رفع قواعده:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهما يتضرّعان إلى الله تعالى بثلاثة أنواع من الأدعية المباركة:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[1]

مروراً بالمرحلة الثانية: تطهيره:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[2]

فالمرحلة الثالثة: الأذان بالحج إليه؛ وأهداف الحج وشعائره:

---

١. البقرة: ١٢٧- ١٢٩.

٢. البقرة: ١٢٥.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ...﴾.[١]

إلاّ أنَّ مفردة الحجّ فعلاً كانت أو مصدراً لم تأتِ ولم يأتِ الكلام عنها إلاّ في سبع آيات من أربع سور قرآنيّة مدنية فقط؛ لتنبثق عنها فريضة الحجِّ المباركة. نقف عندها هذه المرة في نطاق العلاقة داخل الآية نفسها، أو بين الآية وجاراتها، أي الربط بين الآيات المتقاربة أو المتجاورة؛ بمعنى علاقتها بالآيات التي تحيطها؛ سبقتها، أو لحقتها، وأنَّ في ذلك حكمة أو فائدة؛ تحت عنوان (المناسبة) التي تذكر في علوم القرآن الكريم، وقد كُتب عنها الكثير، وذكروا لها تعاريف عديدة وأنواعاً كثيرة، ولهم فيها أقوال..

وقد عُدَّ النيسابوري (ت ٣٢٤هـ) أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، وكان غزير العلم والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لِمَ جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟! وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟

وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

وقد صار هذا العلم موضع اهتمام عدد من العلماء أمثال فخر الدين الرازي حيث أكثر منه وقال عنه: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».

وقال أيضاً في تفسيره لسورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه، ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه، أرادوا ذلك، إلاّ أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلاّ كما قيل:

---

١. الحج: ٢٧ ـ ٢٩.

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وحتى لا تأخذنا الإطالة في مقالتنا هذه فيما ذكروه، نكتفي بما يعنينا منها: وهو ارتباط الآي بعضها ببعض... وكذا ارتباط أجزاء الآية فيما بينها.[1]

ومثالنا هو تلك الآيات التي وردت فيها مفردة الحجّ، ومدى علاقتها أو ارتباطها بأجزائها وبما حولها من الآيات القريبة؛ السابقة لها واللاحقة بالاستعانة بأخبار أسباب النزول، وبأقوال بعض من تعرّض إلى موضوع (المناسبة) من المفسرين، كلُّ هذا بعيداً عن أحكام فريضة الحجّ ومفاهيمها وآدابها ومنافعها، فقد ذكرت عنها مقالات عديدة في مجلتنا هذه، وإن ذكرنا شيئاً آخر من هنا ومن هناك فللضرورة وباختصار.

ونبدأ بسورة البقرة؛ فهي التي توفرت على أربع آيات ذكرت فيها مفردة (الحجّ) ستَّ مرات، والآيات هي: (١٨٩، ١٩٦ثلاث مرات، ١٩٧) ثمَّ سورة آل عمران؛ الآية ٩٧، وسورة التوبة؛ الآية ٣، وسورة الحجّ؛ الآية ٢٧، فهذه تسع مرات لمفردة (الحجّ) في التنزيل العزيز.

ولنبدأ أولاً: بالآية ١٥٨ من سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

فقد ذكرت أخبار عديدة من الفريقين؛ استفيد منها أنها كانت سبباً لنزول الآية،

١. انظر النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات، أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض، من كتاب: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق: يوسف عبد الرحمن والذهبي والكردي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١ : ١٣٠ ـ ١٤٨؛ نظم الدرر، للبقاعي١ : ٩ وتفسير الرازي .

منها: ... عن الحسن بن علي الصيرفي، عن بعض أصحابنا، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا و المروة، فريضة أم سنة؟ فقال: فريضة.

قلت: أو ليس قال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل و ترك السعي حتى انقضت الأيام، وأعيدت الأصنام، فجاءوا إليه، فقالوا: يا رسول الله، إنَّ فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة، و قد أعيدت الأصنام؟

فأنزل الله عزَّوجلَّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، [أي وعليهما الأصنام].

عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث حجّ النبيّ صلى الله عليه وآله: أنه عليه السلام بعدما طاف بالبيت وصلى ركعتيه، قال صلى الله عليه وآله: إنَّ الصفا و المروة من شعائر الله، فأبدأ بما بدأ الله عزَّوجلَّ به، وإنَّ المسلمين كانوا يظنون أنَّ السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قُديدٍ، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصَّفا والمروة، فلما جاء الإسلام، سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعنها؛ قالت: أنزلت هذه الآية في ناس من الأنصار، كانوا إذا أهلُّوا أهلُّوا لمناة في الجاهلية، ولم يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع النبي صلى الله عليه وآله في الحج ذكروا ذلك له، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعن أنس بن مالك أنه قال: كنا نكره الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية فتركناه في الإسلام، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعنه قال: كانوا يمسكون عن الطواف بين الصفا والمروة، وكانا من شعائر الجاهلية، وكنا نتَّقي الطواف بهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، الآية.

فيما قال السُّدي: كان في الجاهلية تعزف الشياطين بالليل بين الصفا والمروة، وكانت بينهما آلهة، فلما ظهر الإسلام، قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة؛ فإنه شرك كنا نصنعه في الجاهلية؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

عن عروة سألت عائشة، فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. فوالله ما على أحد جناح ألاّ يطوف بالصفا والمروة؟

فقالت: بئس ما قلت يا ابن أختي! إنَّ هذه الآية لو كانت كما أولتها عليه، كانت لا جناح عليه ألاّ يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار؛ كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها بالمشلل، فكان من أهَلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا، سألوا رسول الله ﷺ ذلك، قالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، الآية.

قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما. ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن، فقال: إنَّ هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أنَّ الناس ـ إلاّ من ذكرت عائشة ممن كان يهل بمناة ـ كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة، وإنّ الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، الآية. قال أبو بكر: فأسمع هذه

الآية نزلت في الفريقين كليهما في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت.[١]

المناسبة :

لقد جاءت هذه الآية ردًّا وتصحيحاً لما تقع به النفس البشرية من أخطاء أو تتصوره من معتقدات؛ فهي ردٌّ على ما اعترى طائفة من المسلمين، وهم يؤدّون مع رسول الله ﷺ عمرة القضاء حين توقفوا أو كرهوا أو تحرجوا من السعي بين هذين الجبلين؛ كما ذكرته أسباب النزول.

يقول الشيخ الطوسي: وإنما قال ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وهو طاعة، من حيث أنه جواب لمن توهم أنَّ فيه جناحاً، لصنمين كانا عليه: أحدهما إساف، والآخر نائلة، في قول الشعبي، وكثير من أهل العلم. وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام وكان ذلك في عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد، وكانت الأصنام على حالها حول الكعبة، وقال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية، فأنزل الله تعالى الآية. وقال قوم عكس ذلك: أنّ أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما، فظن قوم أنّ في الإسلام مثل ذلك، فأنزل

---

١. انظر تفسير البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ)؛ وأسباب النزول للواحدي (ت٤٦٨ هـ)، تحقيق كمال بسيوني زغلول؛ والصحيح المسند من أسباب النزول، للوادعي (ت١٤٢٢ هـ): ٢٧ـ ٢٨ .

الله تعالى الآية.

ليخلص الشيخ من ذكر هذا إلى قوله:

وجملته أنَّ في الآية ردّاً على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه. والطواف بينهما فرض عندنا في الحج والعمرة،...

وبالتالي فهي تصحيحٌ للسعي بينهما، وأنَّ ما يعطي قدسية ومنزلة مباركة للأماكن أو للمعالم إنما هو ما تمليه السماء وتُقرره لها من أحكام وآداب، وأن ما يقام في هذه المعالم وما يجري فيها من أنشطة ومناسك هي من الله تعالى وإليه لا لغيره، لا بسبب ما يفعله المشركون وما يحدثونه من أعمال، وقد جاء الإسلام وهدفه إبطال ما يتعبد به الجاهلون، وأنَّ ما يقوم به هؤلاء لا يُفسد مشروع السماء، ولا قدرة له على إبطاله، فمشروع السماء يبقى هو الأقوى، وكيدهم وضلالهم، وتلويثهم لهذه المعالم بما يبتدعون يبقى ضعيفاً، وبالتالي: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

وأما مناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات؛ فلما تحمله من عنصري الردِّ والتصحيح لما تصورته أو ظنّته تلك الطائفة من المسلمين، وبالتالي فهي تدخل ضمن ردود حملتها آيات سبقتها لما يزعمه أهل الكتاب أو يعتقدونه في أنَّ عقيدتهم سبب لدخول الجنة وأنها سبب الهداية، وأنهم على ملّة إبراهيم عليه السلام وأنهم الأحقُّ به دون غيرهم، ومن نسبة الولد إلى الله تعالى... فإذن مناسبتها لما قبلها من آيات تتضح عبر وجود القاسم المشترك بينها وبين تلك الآيات وهو الردُّ للمزاعم الباطلة، والتصحيح لما يُتصور أو يُعتقد من أمور هي بنظر السماء باطلة.. فإذا ما عُدنا قليلاً لما سبقها من آيات قريبة عليها؛ لوجدنا ذلك فيما يزعمه أهل الكتاب وغيرهم من أمور ومواقف، والردود المتوفرة على بيان الصحيح لهم؛ بدءاً بالآية:

الأولى : البقرة : ١١١ ـ ١١٢.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الثانية : البقرة : ١١٦ .

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثالثة :

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الرابعة : البقرة : ١٤٠ .

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

الخامسة : البقرة : ١٤٢ .

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

السادسة : البقرة : ١٤٣ .

﴿.. وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا أولاً، وأما ثانياً: فإنَّ الآية المذكورة : ١٥٨ البقرة ، والآية : ١٤٢ البقرة :

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾...

تتعلقان بوظيفتين مهمتين، عبر معلمين من معالم البيت الحرام:

القبلة؛ التي هي التوجه شطر المسجد الحرام في الصلاة داخله أو خارجه مهما بعد ولأمور أخرى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..﴾.[1]

والسعي؛ منسك من سبعة أشواط بين الصفا والمروة يؤدى على مقربة من الكعبة المباركة.

وبالتالي فكلا الآيتين تتحدثان عن معلمين مباركين: الكعبة وهي تتوسط المسجد الحرام؛ قبلة مباركة، وكذا منسكها سبعة أشواط طوافاً بها انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿.. وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.[2]

والصفا والمروة، وهما جبلان يطّوّف الحاج والمعتمر بهما سبعة أشواط أيضاً.. وفي ذلك أداءٌ للتكليف الشرعي في حجٍّ أو عمرة، ولعلّ في هذا إشارة إلى عدم التحرج والامتناع عن السعي بين الصفا والمروة، بدعوى وجود الصنمين: أساف ونائلة، أو

---

١. البقرة : ١٤٤ .

٢. الحجّ : ٢٩ .

بدعوى أنَّ مشركي الجاهلية قد قرنوا بين السعي بين هذين الجبلين والإهلال لإساف ونائلة، وإلاّ فعليهم أن يتحرجوا أيضاً من الطواف بالكعبة، التي يُحيطها أكثر من ثلاثمئة صنم، أو الامتناع من اتخاذها قبلة حال أدائهم لصلواتهم فرائض كانت أو مستحبات..، فأتت الآية لدفع هذا التوهم وإزالة هذا التصور الخاطئ، بل وجاء الإسلام بتعاليمه وأحكامه وآدابه؛ ليُطيح بالأصنام ويُنهي عبادتها، فلا وثنية هناك، ولا نجد أثراً لها ولا شركاً ولا كفراً؛ ليُعيد للمسجد الحرام طهارته، وللمناسك الإبراهيميّة صفاءها.. ويُنهي أيّ تصور أو فهم خاطئ لما يدور في هذا المكان من مناسك وأحكام ومفاهيم ..

وثالثاً: جاءت الآية مباشرة بعد آيات تحثُّ على الصبر ﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ...﴾.[١]

وكأنها تذكرنا بصبر أمِّ إسماعيل، ذلك الصبر الكبير لإنقاذ ابنها من العطش، حين راحت تبحث هنا وهناك عن قطرات ماء تروي بها ظمأه وهو في وادٍ بين جبال جرداء قاسية، وكأنَّ السماء أرادت له أن ينشأ صبوراً قوياً قوة هذين الجبلين، وهو يؤدي رسالة السماء التي تنتظر أشدَّه و رشده، ولموقف عظيم وخطير ينتظره، ذاك الذي تحدّثت عنه الآية:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.[٢]

فالآية كما يذكر بعض المفسرين، لها تعلق بما قبلها من آيات تتناول لا فقط القبلة؛ وفيها آيات عديدة، بل وتتناول الصبر الجميل، والقتل في سبيل الله وما فيه من

---

١. البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

٢. الصافات : ١٠٢ .

التضحية والابتلاء، وما يلحق الصابرين من البشرى بالصلوات والرحمة .. وذاك وهذا ما نجده في أقوال بعض المفسرين:

فهذا الفخر الرازي؛ حول تعلق هذه الآية بما قبلها يقول في المسألة الأولى: «اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجوه أحدها: أن الله تعالى بين أنه إنما حول القبلة إلى الكعبة؛ ليتم إنعامه على محمدﷺ وأمته بإحياء شرائع إبراهيم ودينه على ما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.[1]

وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة وسعى هاجر بين الجبلين، فلما كان الأمر كذلك، ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية. وثانيها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.[2] قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، وإنما جعلهما كذلك؛ لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى. واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى، لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات. وثالثها: أن أقسام تكليف الله تعالى ثلاثة:

أحدها: ما يحكم العقل بحسنه في أول الأمر، فذكر هذا القسم أولاً وهو قوله: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.[3] فإن كان عاقل يعلم أن ذكر المنعم بالمدح والثناء والمواظبة على شكره أمر مستحسن في العقول.

---

١. البقرة : ١٥٠ .

٢. البقرة : ١٥٥ .

٣. البقرة : ١٥٢ .

وثانيها: ما يحكم العقل بقبحه في أول الأمر إلاّ أنه بسبب ورود الشرع به يسلم حسنه، وذلك مثل إنزال الآلام والفقر والمحن، فإن ذلك كالمستقبح في العقول؛ لأن الله تعالى لا ينتفع به ويتألم العبد منه، فكان ذلك كالمستقبح إلاّ أنّ الشرع لما ورد به وبين الحكمة فيه، وهي الإبتلاء والامتحان على ما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾،[١] فحينئذ يعتقد المسلم حسنه وكونه حكمة وصواباً.

وثالثها: الأمر الذي لا يهتدي لا إلى حسنه ولا إلى قبحه، بل يراه كالعبث الخالي عن المنفعة والمضرة، وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين؛ ليكون قد نبه على جميع أقسام تكاليفه، وذاكراً لكلها على سبيل الاستيفاء والاستقصاء والله أعلم ...[٢]

وتعال معي أيضاً لما يقوله عن ذلك كلٌّ من:

أبو حيان: إنَّ الله تعالى لما أثنى على الصابرين، وكان الحجُّ من الأعمال الشاقة المفنية للمال والبدن، وكان أحد أركان الإسلام، ناسب ذكره بعد ذلك...

ورشيد رضا: علم ممّا تقدّم أن مسألة تحويل القبلة جاءت في معرض الكلام عن معاندة المشركين وأهل الكتاب للنبيِّ ﷺ فكان التحويل شبهة من شبهاتهم، وتقدّم أنّ من لوازم حكم تحويل القبلة إلى البيت الحرام، توجيه قلوب المؤمنين إلى الاستيلاء عليه ـ كما يوجّهون إليه وجوههم ـ لأجل تطهيره من الشرك والآثام، كما عهد الله إلى أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وإلاّ كانوا راضين باستقبال الأصنام، وإنّ في

---

١. البقرة : ١٥٥ .

٢. انظر هذا كلّه في التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) .

طي ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بشارة بهذا الاستيلاء، مفيدة للأمل والرجا. وقد علّم الله المؤمنين بعد هذه البشارة ما يستعينون به على الوصول إليها هي وسائر مقاصد الدين من الصبر والصلاة، وأشعرهم بما يلاقون في سبيل الحقّ من المصائب والشدائد، فكان من المناسب بعد هذا أن يذكر شيئاً يؤكّد تلك البشارة ويقوّي ذلك الأمل، فذكر شعيرة من شعائر الحجّ هي السعي بين الصفا والمروة، فكان ذكرها تصريحاً ضمنيّاً بأن سيأخذوا مكّة ويقيموا مناسك إبراهيم فيها، وتتمّ بذلك لهم النعمة والهداية، وهو قوله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فهذه الآية ليست منقطعة عن السياق السابق لإفادة حكم جديد لا علاقة له بما قبله كما توهّم، بل هي من تتمّة الموضوع ومرتبطة به أشدّ الارتباط، من حيث هي تأكيد للبشارة، ومن حيث أنّ الحكم الذي فيها من مناسك الحجّ التي كان عليها إبراهيم، الذي أحيا النبيُّ صلى الله عليه وآله ملّته وجعلت الصلاة إلى قبلته. كأنّه قال: لا تلويّنكم قوّة المشركين في مكّة، وكثرة الأصنام على الكعبة، والصفا والمروة، عن القصد إلى تطهير البيت الحرام، وإحياء تلك الشعائر العظام، كما لا يلويّنكم عن استقبال البيت تقوّل أهل الكتاب والمشركين، ولا زلزال مرضى القلوب من المنافقين، بل ثقوا بوعد الله واستعينوا بالصبر والصلاة...

وابن عاشور: هذا كلام وقع معترضاً بين محاجة أهل الكتاب والمشركين في أمر القبلة، نزل هذا بسبب تردد واضطراب بين المسلمين في أمر السعي بين الصفا والمروة، وذلك عام حجة الوداع، .. فهذه الآية نزلت بعد الآيات التي قبلها وبعد الآيات التي نقرؤها بعدَها، لأن الحج لم يكن قد فُرض، وهي من الآيات التي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بإلحاقها ببعض السُّوَر التي نزلت قبل نزولها بمدة، والمناسبةُ بينها وبين ما قبلها هو أن العدول عن السعي بين الصفا والمروة يشبه فعل من عبر عنهم بالسفهاء من القبلة،

وإنكار العدول عن استقبال بيت المقدس، فموقع هذه الآية بعد إلحاقها بهذا المكان موقعُ الاعتراض في أثناء الاعتراض، فقد كان السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج من زمن إبراهيم عليه السلام تذكيراً بنعمة الله على هاجر وابنها إسماعيل إذ أنقذه الله من العطش...

ويواصل ذلك قائلاً: وبذلك كلّه يظهر أنّ هذه الآية نزلت بعد نزول آية تحويل القبلة بسنين فوضعها في هذا الموضع لمراعاة المناسبة مع الآيات الواردة في اضطراب الفرق في أمر القبلة والمناسك...

وللعلامة الطباطبائي رأي مختلف عن ذلك؛ حيث يقول بعد ذكره لبعض روايات أسباب نزول الآية:

... ومقتضى جميع هذه الروايات أنَّ الآية نزلت في تشريع السعي في سنة حجَّ فيها المسلمون، وسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، ومن هنا يستنتج أنَّ الآية غير متحدة السياق مع ما قبلها من آيات القبلة، فإنها نزلت في السنة الثانية من الهجرة..، ومع الآيات التي في مفتتح السورة، فإنها نزلت في السنة الأولى من الهجرة، فللآيات سياقات متعددة كثيرة، لا سياق واحد.

وأمّا الآلوسي، فلم يدخل بعيداً في الآيات، مكتفياً بذكر علاقة الآية، كما يبدو بالمقطع القريب منها، المتكون من: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۞

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا

﴿جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

مكتفياً به قائلاً:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، لما أشار سبحانه فيما تقدم إلى الجهاد، عقب ذلك ببيان معالم الحج، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شقّ الأنفس وتلف الأموال، وقيل: لما ذكر الصبر عقبه ببحث الحجّ؛ لما فيه من الأمور المحتاجة إليه...[1]

ثانياً : في سورة البقرة؛ آيات شكلت مقطعاً قرآنيًّا مباركاً طويلاً؛ يبدأ من الآية ١٨٩ ـ ٢٠٣ ؛ ذكرت فيه مفردة (الحجّ) سبع مرات؛ مرة واحدة في الآية ١٨٩، وثلاث مرات في الآية ١٩٦، وثلاثاً أخرى في الآية ١٩٧؛ وقد تنوعت مواضيعه:

الأهلة ومواقيت الحجّ، ويعالج أموراً تخصُّ ما كان من تصور واعتقاد...

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وأخرى تتحدث عن القتال وأحكامه..؛ وعند المسجد الحرام، وفي الأشهر الحرم؛ فالحرمة زماناً ومكاناً اجتمعت هنا..

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝

---

١. انظر في هذا كله تفسير الآية في التبيان الجامع لعلوم القرآن، للشيخ الطوسي (ت٤٦٠ هـ)؛ وتفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت٦٠٦ هـ)؛ وتفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت٧٥٤ هـ)؛ وتفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)؛ وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (ت١٣٩٣ هـ)؛ وتفسير الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي (ت١٤٠١ هـ)؛ وتفسير روح المعاني، الآلوسي (ت١٢٧٠ هـ).

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ ۞ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۞

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞

ثمَّ الأمر بالإنفاق ..؛

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞

لينتقل السياق بعد ذلك إلى ما يتعلق بالحجّ والعمرة وأحكامهما، والإفاضة، وذكر الله تعالى في الآيات من ١٩٦ ـ ٢٠٣ :

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞

ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۞

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞

وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وهما أي ﴿ٱلْحَجِّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ ركنا عبادة مباركة؛ شاء الله تعالى أن يُعبد من خلالهما، وأن تؤدّيا في الزمان والمكان اللذين يتصفان بالحرمة، فحصانتهما بالحرمة وبالحرمة يُحفظان، وبها تتعاظم فضائلهما وأجورهما..؛ ولهذا يشدّد التنزيل العزيز على قدسية هذه الأشهر والمسجد الحرام، وعلوّ مكانتهما، وحرمة انتهاك كلٍّ منهما، ...

وهنا لا نتحدث إلاّ عن المناسبة أو العلاقة أو الارتباط بين الآيات التي وردت فيها مفردة الحج والآيات التي تحيطها لا غير، وإن تطرقنا لغير ذلك فلعلّه لضرورة البحث:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[1]

في الآية جزءان:

---

١. البقرة : ١٨٩ .

الأول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

الثاني: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

نقف أولاً عند الجزء الأول من الآية، والذي يبدأ بكلمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾!

فهناك آيات قرآنية تحكي أسئلة من قبل بعضهم لرسول الله ﷺ وتحمل أجوبة عنها تتكفل بها السماء تتضمن أحكاماً وتبيّن أموراً وترفع شبهات، وقد توزعت أسئلتهم هذه وأجوبتها على سور قرآنية عديدة، كانت حصة سورة البقرة هي الأكثر، بدءاً بالآية المباركة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ..﴾.

وهكذا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.[1]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ...﴾.[2]

أما الآية ٢١٩ البقرة؛ فتتضمن سؤالين عن الخمر والميسر ثمَّ عن الإنفاق:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾.

---

١. البقرة: ٢١٥.

٢. البقرة: ٢١٧.

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ...﴾.[١]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ...﴾.[٢]

فهذه سبع أسئلة في ست آيات من سورة البقرة، وهناك سبع أسئلة أخرى وأجوبتها في سبع آيات، ذكرها التنزيلُ العزيزُ في سور أخرى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ...﴾.[٣]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ... يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ...﴾.[٤]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ...﴾.[٥]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...﴾.[٦]

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾.[٧]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾.[٨]

---

١. البقرة : ٢٢٠ .

٢. البقرة : ٢٢٢ .

٣. المائدة : ٤ .

٤. الأعراف : ١٨٧ .

٥. الأنفال : ١ .

٦. الإسراء : ٨٥ .

٧. الكهف : ٨٣ .

٨. طه : ١٠٥ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.[١]

فهي وإن كانت معدودة أحصاها التنزيل العزيز، إلاّ أنها ولأهميتها خلدت بأجوبتها حين صارت قرآناً يُتلى، وحين عُدّت من أسباب النزول، فهي أربعة عشر سؤالاً في ثلاث عشرة آية، وليتها كانت أكثر من ذلك زيادةً في الفائدة!..

إلاّ أنَّ بعضهم ذكر عند تفسيره للآية المذكورة عن ابن عباس أنه قال: ما كان قوم (أو ما كان أمّة) أقل سؤالاً من أمّة محمد صلى الله عليه وآله؛ سألوا عن أربعة عشر حرفاً، فأجيبوا، منها في سورة البقرة: أولها: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وثانيها: هذه الآية ثمَّ الستة الباقية بعد في سورة البقرة ، فالمجموع ثمانية في هذه السورة، والتاسع قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ المائدة : ٤ ؛ والعاشر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الأنفال : ١ ؛ والحادي عشر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الإسراء : ٨٥ ؛ والثاني عشر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الكهف : ٨٣ ؛ والثالث عشر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ طه: ١٠٥ ؛ والرابع عشر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ النازعات : ٤٢ ...[٢]

وهنا لابدَّ من تسجيل ملاحظتين حول خبر ابن عباس:

الأولى: أنهم عدَّوا الآية: (البقرة : ١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

---

١. النازعات : ٤٢ .

٢. انظر بعض كتب التفاسير؛ منها تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، دارإحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هجرية؛ تفسير البحر المحيط، أبوحيان الأندلسي (ت ٧٥٤ هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: الآية ١٨٩ البقرة.. بتصرف وتلخيص .

﴿ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾. وجعلوها هي الأولى، فيكون مجموع أسئلتهم ثماني أسئلة في ثماني آيات من سورة البقرة، ولكنهم كما يبدو لي لم يلتفتوا إلى أنَّ الآية ٢١٩ البقرة تتضمن سؤالين: الأول عن الخمر والميسر، فيما الثاني عما يُنفقون: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ...﴾. مما يجعل أسئلتهم في سورة البقرة تسعاً في ثماني آيات، لا ثماني أسئلة كما يذهبون.

وبالتالي فهذه أربع عشرة آية وردت فيها ﴿سَئَلَكَ﴾ مرة واحدة، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ تسع مرات، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ بالواو ستَّ مرات، فالمجموع ست عشرة مرة وليس أربع عشرة مرة كما في الخبر..! وهذا معناه أنهم سألوا لا عن (أربعة عشر حرفاً) بل عن ستة عشر حرفاً، اللهم إلاّ إذا أراد بالحرف أربع عشرة آية وباستثناء الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾!

الثانية: رواية ابن عباس إن صحَّت فهي تصف أمّةَ رسول الله ﷺ يومذاك بأنها «أقلّ سؤالاً» فهل يُعدُّ هذا مدحاً أو ذمًّا لها؟! وإن كان ذلك أقرب للذم منه للمدح إن أُخذت على إطلاقها؛ لأن السؤال حالة في الأمّة تدلّ على نموٍّ فكري ومعرفي وثقافي.. وهو باب مهم من أبواب التعلّم ومفتاح للمعرفة، و «الحكمة ضالة المؤمن ..»، يبحث عنها، يسأل عنها حتى يقف عليها، والمسلمون أولى بذلك، خاصة أولئك الذين عاشروا رسول الله ﷺ يستثمرون وجوده المبارك فيهم، يستفيدون منه، كيف لا، وهم للتوّ قد نبذوا الجاهلية وراءهم بجهلها ومظاهرها وشركها وكفرها، وولجوا الإسلام ديناً جديداً يفتح أبواب العلم والمعرفة، ويدعو لها، ويحثُّ عليها، وقد سمعوا الآيات القرآنية المباركة من الفم الطاهر لرسول الله ﷺ، تدعوهم للتدبر والتعقّل والتعلّم، وتأمرهم بالسؤال

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[١]

وراحوا يحفظونها ويتدبرونها، وينبغي بل ويجب عليهم إن أشكل عليهم مراد آية، أو وقع لهم أمر كوني أو شرعي أو اجتماعي، وما أكثرها، خاصة وأنهم في بداية عصر تشريعي جديد عليهم، وليس بينهم إلاّ رسول الله ﷺ فهو مبلغ عقائد هذا الدين وتشريعاته، وهو الأعلم به والأفقه. فعليهم أن يبادروه ويسألوه عما ينفعهم في معرفة دينهم وصلاح دنياهم وأخراهم!

إلاّ أنَّ رواية ابن عباس قد استوقفتني كثيراً، وهي تصفهم بأنهم «أقلّ سؤالاً»! وتحصر أسئلتهم بعدد معين، وهو عدد قليل جدًّا إذا ما قيس بثلاث وعشرين سنة، حياته ﷺ التبليغية والقيادية المباركة فيهم، ومن الطبيعي أنهم في حياتهم الجديدة ودينهم الجديد، قد واجهوا أموراً شتى، وأُشكلت عليهم شؤون عديدة صادفتهم في مفاصل حياتهم، وبالتالي لا بدَّ لهم أن يسألوا عنها رسول الله ﷺ، وهذا طبيعي وجيد أن يسأل الإنسان عن شيء يجهله، أو عما لم يحط به علماً، يسأل من يعلم، ويستفيد منه، وهي صفة حسنة، يتحلّى بها كلُّ عاقل باحث عن الحقيقة والحقيقة بنت البحث كما يُقال، فليس من المعقول أنّهم لم يسألوا إلاّ هذه الأسئلة المعدودة، اللهم إلاّ أن تكون الرواية، إن صحت سنداً ومتناً، قد انطلقت مما ذكره التنزيل العزيز وتولّى الإجابة عنه من أسئلتهم، لا مطلقاً. وإلاّ فهي تحكي إما عدم احتياجهم للسؤال لمعرفتهم بما وقع، وإما تحكي عزوفهم عن السؤال، وعدم إكتراثهم به، بل جهلهم بأهميته في تحصيل المعرفة، أو لحيائهم من الرسول ﷺ و اكتفاءً بما يُبينه ﷺ!! علماً بأنَّ قراءة تراجم حياة

---

١. النحل : ٤٣ .

العديد من الصحابة تحكي لنا العديد من أسئلتهم، بل هناك بعضهم سألوه «حتى أحفوه بالمسألة...» الخبر.

وقد جاء في رواية عن الإمام عليٍّ عليه السلام أنّه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، قالوا: يا رسول الله في كل عام؟ فسكت، ثم قالوا: أفي كل عام؟ ثم قال في الرابعة: لا، ولو قلتُ؛ لوجبت، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.[1]

فعدَّ هذا الخبر واحداً من أسباب نزول الآية المذكورة.

ولعلَّ النهي هنا؛ لأنهم راحوا يكثرون من أسئلة للنبيِّ صلى الله عليه وآله إما استهزاءً، وإما عن أمور الجاهلية، وقد عفا الله عنها، ولا وجه للسؤال عما عفا الله عنه، أو من قبيل ما يسبب لهم تكليفاً لا يخلو من حرج، و إذا أُبديت وأُظهرت ساءت وحزنت.[2]

وبالتالي عما لا فائدة لهم فيه في دينهم ولا في دنياهم .. وإلاّ فالأسئلة النافعة لا أظنُّ هناك حظراً عليها ..

سبب النزول :

ذكرنا أنَّ في الآية جزأين: فعن الجزء الأول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ

---

١. المائدة : ١٠١ .

٢. انظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي، تحقيق: داوودي، دار القلم، بيروت؛ وأسباب النزول، للواحدي، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت : ٢١٤ رقم ٢٠١ الآية: ١٠١ المائدة؛ ومصادر التفسير .

﴿لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، ذكروا أخباراً في سبب نزولها:

معاذ بن جبل أنه قال: يا رسول الله إنّ اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلَّة، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة: ذكر لنا أنهم سألوا نبي الله ﷺ لم خلقت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

وقال الكلبي: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة وهما رجلان من الأنصار قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يكون كما كان، لا يكون على حال واحدة؟! فنزلت هذه الآية. وأما عن الجزء الثاني: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فلهم فيه أقوال وأيضاً أخبار عُدَّت من أسباب نزولها، فأما الأقوال فهي ستة:

أحدها: يستند إلى سبب نزولها، وهو ما روى داود عن قيس بن جبير: أن الناس كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه، فدخل رسول الله ﷺ داراً، وكان رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن أيوب، فجاء فتسور الحائط على رسول الله، فلما خرج من باب الدار خرج رفاعة، فقال رسول الله ﷺ:

«ما حملك على ذلك؟ فقال: يا رسول الله، رأيتك خرجت منه فخرجت منه،

فقال رسول الله ﷺ: إنّي رجل أحمس. فقال: إن تكن أحمس فديننا واحد».

ويبدو أنّهم إذا أحرموا لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها بل من ظهورها، هو القول الأشهر والأكثر أخباراً. ومع هذا نذكر بقية الأقوال.

الثاني: عنى بالبيوت النساء، سُمِّيَتْ بيوتاً للإيواء إليهن، كالإيواء إلى البيوت، ومعناه: لا تأتوا النساء من حيث لا يحل من ظهورهن، وأتوهن من حيث يحل من

قُبُلهن، قاله ابن زيد.

والثالث: أنه في النسيء وتأخير الحج به، حين كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج، والشهر الحرام حلالاً بتأخير الحج عنه، ويكون ذكر البيوت وإتيانها من ظهورها مثلاً لمخالفة الواجب في الحج وشهوره، والمخالفة إتيان الأمر من خلفه، والخلف والظهر في كلام العرب واحد، حكاه ابن بحر.

والرابع: أن الرجل كان إذا خرج لحاجته، فعاد ولم ينجح لم يدخل من بابه، ودخل من ورائه، تطيراً من الخيبة، فأمرهم الله أن يأتوا بيوتهم من أبوابها.

والخامس: معناه ليس البر أن تطلبوا الخير من غير أهله، وتأتوه من غير بابه، وهذا قول أبي عبيدة.

والسادس: أنه مثلٌ ضَربه الله عزَّوجلَّ لهم، بأن يأتوا البرَّ من وجهه، ولا يأتوه من غير وجهه.[١]

وابن عاشور يقول: وهذه الآية يتعين أن تكون نزلت في سنة خمس حين أزمع النبيُّ ﷺ الخروج إلى العمرة في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، والظاهر أن رسول الله نوى أن يحجَّ بالمسلمين إن لم يصدّه المشركون، فيحتمل أنها نزلت في ذي القعدة أو قبله بقليل...[٢]

وأنه مثل ضربه الله لهم، أي أتوا البر من وجهه الذي أمر الله به، ورغب فيه، أو أنها نهي لمن كان في الجاهلية إذا همَّ بشيء فتعسر عليه مطلوبه لم يدخل بيته من بابه،

١. انظر التفاسير، ومنها تفسير النكت والعيون، الماوردي (ت ٤٥٠ هـ): الآية .

٢. التحرير والتنوير لابن عاشور : الآية .

بل يأتيه من خلفه تطيراً، ويبقى على هذه الحالة حولاً كاملاً .. ولكن كثرت الأخبار، ولعلها اتفقت أنها نزلت في أولئك الذين يأتون البيوت من ظهورها وقت إحرامهم، وهم أقوام، كانوا إذا أحرموا لا يدخلون بيوتهم من قبل أبوابها، بل من ظهورها، من أبواب في جنوبها، أو نقب كوّات في جدرانها، أو يتسوّرون بيوتهم وحِيطانهم تسوُّراً، أو يتخذون سلماً للصعود فوقها، فلا يريدون أن يحول شيءٌ بينهم وبين السماء حال كونهم محرمين، ينشدون من ذلك برًّا؛ خيراً أو إيماناً؛ وإلاّ لا فقط، إن فعل ودخل البيوت من أبوابها؛ يُلام ويُعاب عليه ويُعيّر ويستنكر فعله من قومه بل يوصف بالفجور..

لكن الأخبار الآتية اختلفت في هؤلاء الذين يفعلون ذلك، ويمتنعون من دخول بيوتهم إلاّ من ظهورها: أهم الحُمس، أو الأنصار وآخرون؟

واختلفت أيضاً في سبب ووقت إتيان البيوت من دون أبوابها، أفي عودتهم من السفر.. أو إذا خاف أحدهم من عدوّه شيئاً أحرم فأمن، أو بسبب كونهم محرمين لحجٍّ أو عمرة، وهو ما ذهب إليه الأكثر، فلا يريدون أن يحول شيءٌ بينهم وبين السماء .. وقد عُدَّ هذا الإتيان عادةً جاهلية ليست لها علاقة بمناسك إبراهيم عليه السلام، بل كانت ابتداعاً أو زيادةً عليها، حتى صارت هذه الأخبار أو بعضها سبباً لنزول هذا الجزء من الآية؛ ليُبطل عملهم ذاك، وينفي كونه برًّا، فالبرُّ صفة عظيمة، لطالما يسعى إليها الصالحون عبر وسائل ليست بعيدة عن إرادة السماء وما شرعته، فالله تعالى يحب أن يُتقرب إليه ويُعبد بما يُحب وبما يرتضيه، لا عبر ما تهواه النفوس، وتبتدعه الأهواء والرغبات، وتزعم أنها مناسك وشعائر، وليس هذا فقط، بل ليبين لهم أنَّ البرَّ يتحقق عند ﴿مَنِ اتَّقَىٰ﴾ وأنَّ عليهم إتيانَ البيوت من أبوابها حين أمرهم: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ بدل عملهم المبتدع ﴿بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ ولأن فلاحهم بالتقوى أمروا بها ﴿وَاتَّقُوا

﴿اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

يقول الطبري: .. فتأويل الآية إذاً وليس البرّ أيها الناس بأن تأتوا البيوت في حال إحرامكم من ظهورها، ولكن البرّ من اتقى الله فخافه، وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها، فأما إتيان البيوت من ظهورها فلا برّ لله فيه، فأتوها من حيث شئتم من أبوابها وغير أبوابها، ما لم تعتقدوا تحريم إتيانها من أبوابها في حال من الأحوال، فإنّ ذلك غير جائز لكم اعتقاده، لأنه مما لم أحرّمه عليكم.. واتقوا الله أيها الناس فاحذروه وارهبوه بطاعته فيما أمركم من فرائضه واجتناب ما نهاكم عنه؛ لتفلحوا فتنجحوا في طلباتكم لديه، وتدركوا به البقاء في جناته والخلود في نعيمه.

وأما عن نفي البرِّ، فيقول ابن عاشور: .. ومعنى نفي البر عن هذا، نفي أن يكون مشروعاً أو من الحنيفية، وإنما لم يكن مشروعاً؛ لأنه غلوّ في أفعال الحج، فإنّ الحج وإن اشتمل على أفعال راجعة إلى ترك الترفه عن البدن كترك المخيط وترك تغطية الرأس، إلاّ أنه لم يكن المقصد من تشريعه إعنات الناس، بل إظهار التجرد وترك الترفه، ولهذا لم يكن الحمس يفعلون، ذلك لأنهم أقرب إلى دين إبراهيم .. ويقول أيضاً: فإنّ البرّ في اتّباع الشرع فلا تفعلوا شيئاً إلاّ إذا كان فيه مرضاة الله ولا تتبعوا خطوات المبتدعين الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم...

ولكثرة الأخبار واختلافها، والتي عُدَّت مصدراً لأقوال مفسري هذا الجزء من الآية المذكورة، وسبباً لنزوله، نوجزها بالتالي:

طائفة منها تتعلق بالأنصار، أو أهل المدينة:

.. البراء بن عازب يقول: كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل باب، فكأنه عُيِّر بذلك، وعنه كانت الأنصار إذا حجوا ورجعوا لم يدخلوا البيوت إلاّ من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له في ذلك،..

وعنه: كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، ولم يأتوا من أبوابها،

.. عن جابر قال: كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت. فقال: إني أحمسي.

قال: فإن ديني ديني، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

.. عن قيس بن حبير أنَّ ناساً كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه داراً. وكان رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن تابوت، فجاء فتسوّر الحائط، ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلما خرج من باب الدار أو قال من باب البيت خرج معه رفاعة، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ذلك»؟ قال: يا رسول الله، رأيتك خرجت منه، فخرجت منه. فقال رسول الله ﷺ: «إنّي رجلٌ أحْمَسُ». فقال: إن تكن رجلاً أحمس، فإنَّ ديننا واحد»، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

.. عن الزهري، قال: كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء يتحرّجون من ذلك، وكان الرجل يخرج مُهلاً بالعمرة، فتبدو له الحاجة بعد ما يخرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته، فيأمر بحاجته فتُخرج إليه من بيته. حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله أهلّ زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرة، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إني أحمس.

وعنه: وكان الحمس لا يبالون ذلك. فقال الأنصاري: وأنا أحمس، يقول وأنا على دينك.. عن قتادة: .. كان هذا الحيّ من الأنصار في الجاهلية إذا أهلّ أحدهم بحجّ أو عمرة، لا يدخل داراً من بابها إلاّ أن يتسوّر حائطاً تسوُّراً، وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك ما تسمعون، ونهاهم عن صنيعهم ذلك، وأخبرهم أنه ليس من البرّ صنيعهم ذلك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها.

.. عن ابن عباس .. وإنّ رجالاً من أهل المدينة، كانوا إذا خاف أحدهم من عدوّه شيئاً أحرم فأمن، فإذا أحرم لم يلج من باب بيته واتخذ نقباً من ظهر بيته. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة كان بها رجل محرم كذلك، وإن أهل المدينة كانوا يسمون البستان الحُشّ. وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل بستاناً، فدخله من بابه، ودخل معه ذلك المحرم، فناداه رجل من ورائه: يا فلان إنك محرم وقد دخلت، فقال «أنا أحْمَسُ»، فقال: يا رسول الله إن كنتَ محرماً فأنا محرم، وإن كنتَ أحمس فأنا أحمس. فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأنْ تَأتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها﴾، إلى آخر الآية. فأحلّ الله للمؤمنين أن يدخلوا من أبوابها.

.. عن الربيّع .. كان أهل المدينة وغيرهم إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت

إلاّ من ظهورها، وذلك أن يتسوروها، فكان إذا أحرم أحدهم لا يدخل البيت إلاّ أن يتسوّره من قبل ظهره. وإنّ النبيّ ﷺ دخل ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل على أثره ممن قد أحرم، فأنكروا ذلك عليه، وقالوا: هذا رجل فاجر، فقال له النبيّ ﷺ: «لِمَ دَخَلْتَ مِنَ البابِ وَقَدْ أحْرَمْتَ؟ فقال: رأيتك يا رسول الله دخلت فدخلت على أثرك. فقال النبيّ ﷺ إنّي أحْمَسُ».

وقريش يومئذ تدعى الحمس، فلما أن قال ذلك النبيّ ﷺ، قال الأنصاريّ: إنّ ديني دينك. فأنزل الله تعالى ذكره ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها...﴾، الآية.

قال ابن جريج: وأخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً يقول كانت هذه الآية في الأنصار يأتون البيوت من ظهورها يتبررون بذلك.

وطائفة أنهم: أهل الجاهلية .. المشركون .. أهل الحجاز .. ناس من العرب.

ثمَّ إنّ هذا الفعل لم يكن تختصّ به الأنصار وهم يومذاك قبيلتا الأوس والخزرج في يثرب، فهناك غيرهم من المبتدعين الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام، فقد ابتدعه أناس آخرون، كما يتضح من روايةٍ عن ابن عباس: كان الناس في الجاهلية وفي أوّل الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحجّ، فإن كان من أهل المَدَر ـ يعني من أهل البيوت ـ نقب في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سُلَّماً فيصعد منه وينحدر عليه. وإن كان من أهل الوَبَر ـ يعني أهل الخيام ـ يدخل من خلف الخيام الخيمةَ، إلاّ من كان من الحُمْس.

فيما جاء عن مجاهد أنهم أهل الجاهلية، دون أن يشير إلى الأنصار أو غيرهم، ودون أن يذكر الإحرام أو غيره، فيقول: ... ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من كوّات في ظهور البيوت، وأبواب في جنوبها تجعلها أهل الجاهلية، فنهوا أن يدخلوا

منها، وأمروا أن يدخلوا من أبوابها..

وفي رواية: كان الرَّجل في الجاهليَّة إذا أحرم نقب من بيته نقباً من مؤخره يدخل فيه ويخرج، فأمرهم الله بترك سنَّة الجاهليَّة، وأعلمهم أنَّ ذلك ليس ببرٍّ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ برُّ ﴿مَنِ اتَّقَى﴾، مخالفةَ الله ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾، الآية.

وعن ابن جريج، قلت لعطاء قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، قال: كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه برّا، فقال «البرّ»، ثم نعت البرّ، وأمر بأن يأتوا البيوت من أبوابها.

وجاء عن مجاهد: «كان المشركون» وهي عامة لا تختصُّ بجهة دون أخرى؛ كان المشركون إذا أحرم الرجل منهم نقب كوّة في ظهر بيته، فجعل سلماً فجعل يدخل منها. قال: فجاء رسول الله ﷺ ذات يوم ومعه رجل من المشركين، قال: فأتى الباب ليدخل، فدخل منه. قال: فانطلق الرجل ليدخل من الكوّة. قال: فقال رسول الله ﷺ: ما شأنكَ؟ فقال: إني أحمس، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أحْمَس.

وأما عن إبراهيم، فهم من الحجاز حيث يقول: كان ناس من أهل الحجاز، إذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوا من ظهورها، ..

وعن السدي: .. وهو أنّ النبيَّ ﷺ دخل باباً وهو محرم وكان معه رجل من أهل الحجاز فوقف الرجل وقال: إني أحمس، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: وأنا أحمس ..

وعنه أيضاً: ناس من العرب، وهم الذين يسمون الحمس، قال: فدخل النبيُّ ﷺ باباً ومعه رجل منهم، فوقف ذلك الرجل، وقال: إني أحمس، فقال له النبي ﷺ: وأنا أحمس، .. وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يسمون الحُمْس ..

وعنه: ... فإنَّ ناساً من العرب كانوا إذا حجوا لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها كانوا ينقبون في أدبارها، فلما حجّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، أقبل يمشي ومعه رجلٌ من أولئك وهو مسلم، فلما بلغ رسول الله ﷺ باب البيت، احتبس الرجل خلفه وأبى أن يدخل، قال: يا رسول الله، إني أحمس، يقول إني محرم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يسمون الحُمْس. قال رسول الله ﷺ: «وأنا أيضاً أحْمَسُ، فادْخُلْ».

فدخل الرجل، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

ابن عاشور يقول عما رواه الواحدي في «أسباب النزول» من أنَّ النبيَّ ﷺ أهلَّ عام الحديبية من المدينة وأنه دخل بيتاً وأن أحداً من الأنصار، قيل: اسمه قطبة بن عامر وقيل رفاعة بن تابوت. كان دخل ذلك البيت من بابه اقتداءً برسول الله، فقال له النبي ﷺ دخلت وأنْتَ قد أحرمت؟ فقال له الأنصاري: دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك، فقال له النبي ﷺ: إني أحمس، فقال له الأنصاري: وأنا ديني دينك رضيتُ بهديك!

يقول: فظاهر هذه الروايات أنّ الرسول نهى غير الحُمس عن ترك ما كانوا يفعلونه حتى نزلت الآية في إبطاله.

وأما عن رواية السدي أعلاه، فبعد أن يذكرها: وفي «تفسير ابن جرير وابن عطية» عن السدي ما يخالف ذلك، وهو أن النبيَّ ﷺ دخل باباً وهو محرم وكان معه رجل من أهل الحجاز فوقف الرجل وقال: إني أحمس، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام وأنا أحمس، فنزلت الآية.

يقول عنها: فهذه الرواية تقتضي أنَّ النبيَّ ﷺ أعلن إبطال دخول البيوت من ظهورها، وأنّ الحمس هم الذين كانوا يدخلون البيوت من ظهورها، وأقول: الصحيح من ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار إذا حجوا

فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من بابه فكأنَّه عيّر بذلك فنزلت هذه الآية، ورواية السدي وهَمٌ، وليس في الصحيح ما يقتضي أنّ رسول الله أمر بذلك ولا يظن أن يكون ذلك منه، وسياق الآية ينافيه.[1]

من هذه الأخبار عدا ما ذكره السدي، يتضح أنَّ الفعل المذكور ليس مخصوصاً بالأنصار، وإنما يشمل الأنصار وغيرهم من عرب الجاهلية وأهل الحجاز والمشركين، إلاّ الحُمس، فهم لا يفعلون فعلهم. وهذا ما نجده عن الواحدي حين ذكر في أسبابه: وقال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً فيصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط، ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك ديناً، إلاّ أن يكُون من الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر ابن صعصعة وبنو النضر بن معاوية سُمُّوا حمساً لشدتهم في دينهم، قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على أثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: لم دخلت من الباب وأنت محرم؟ فقال: رأيتك دخلت من الباب، فدخلت على أثرك. فقال رسول الله ﷺ إني أحمسيٌّ. قال الرجل: إن كنت أحمسياً فإني أحمسيٌّ، ديننا واحد رضيت بهديك وسمتك ودينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وإن قيل: إنَّ الحُمس هم الذين كانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم

---

١. تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: الآية .

محرمون ، كما هي رواية السدي أعلاه،.. وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يسمون الحُمْس.

وهذا الشيخ الطبرسي بعد أن ذكر أنه .. كان المحرمون لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، ولكنهم كانوا ينقبون في ظهر بيوتهم أي في مؤخرها نقباً يدخلون ويخرجون منه، فنهوا عن التدين بذلك عن ابن عباس وقتادة وعطاء ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر.

وقيل: إلاَّ أن الحمس وهو قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبنو عامر بن صعصعة كانوا لا يفعلون ذلك،.. قال: وقيل: بل كانت الحمس تفعل ذلك، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يحول بينهم وبين السماء شيء...

أما الطريحي، فلم يذكر إلاّ قولاً واحداً بعد أن ذكر تعريف الحمس..، وأنهم قريش ومن ولدته وكنانة وجديلة قيس؛ لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا، وكانوا يقفون بمزدلفة لا بعرفة ويقولون: نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم. قال: وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون.

بل وجدت الرازي بعد أن يذكر الحُمس، يقول: وهؤلاء متى أحرموا لم يدخلوا بيوتهم ألبتة.. بمعنى أنهم أكثر تشدداً من أولئك الذين يدخلونها عبر تسور جدرانها أو ثقبها..، جاء هذا منه في الوجه الثالث بعد أن ذكر أن أهل الجاهلية إذا أحرم أحدهم نقب خلف بيته أو خيمته نقباً منه يدخل ويخرج إلاّ الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية، وهؤلاء سموا حمساً لتشددهم في دينهم، الحماسة = الشدة، قال: وهؤلاء... لا يستظلون الوبر ولا يأكلون السمن والأقط، ثم أن رسول الله ﷺ كان محرماً ورجل آخر كان محرماً، فدخل رسول الله ﷺ حال كونه محرماً من باب بستان قد خرب، فأبصره ذلك الرجل الذي كان محرماً فاتبعه، فقال عليه السلام: تنح عني، قال: ولم يا رسول الله؟ قال: دخلت

الباب وأنت محرم، فوقف ذلك الرجل فقال: إني رضيت بسنتك وهديك وقد رأيتك دخلت فدخلت، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأعلمهم أن تشديدهم في أمر الإحرام ليس ببر ولكن البر من اتقى مخالفة الله وأمرهم بترك سنة الجاهلية...

ومع هذا يبقى القول الأول أي الاستثناء (إلاّ الْحُمْسُ!) هو المشهور كما يبدو من الأخبار والأقوال.

فمن هم؟

فقد احتلوا مكانة في معاجم اللغة والتاريخ والتفاسير، وكتب عنهم، نذكر شيئاً منه:

حَمِسَ: يَحمَسُ حَمَساً: صَلُب واشتدَّ، يُقال: حَمِسَتِ الأرضُ: صلبَت، وحَمِسَ الشرُّ والوغَى: اشتدَّ، وحمِس الرجلُ في الدِّين: تشدّد، فالأحمس: المتشدد على نفسه بالدين، والشحيح عليه، وحَمِسَ بالشيء: أُولعَ به، فهو أحمَسُ وهي حمسَاءُ والجمع: حُمْسٌ... ومنه الحَمَاسُ والحماسةُ: الشدَّةُ والشجاعةُ، ومنه قيل للشجاع أحمس.. ونجدةٌ حمساءُ: شديدة، فالحماسة: الشدّة. والتحمس: التشدد...

بنجدةٍ حمساء تُعْدى الذَّمرا

والحماسة: الشدَّة في كلِّ شيءٍ حتى قالوا: أماكن حُمس، قال العجاج رجزاً في ديوانه:

وكم قَطَعنا من قِفافٍ حُمْسِ

وهناك قول: إنَّ الحمساء هي الكعبة، جاء فيما ذكره الزبيدي في تاجه: وإنما سُموا لتحمسهم في دينهم، أي تشددهم فيه، وكذا في الشجاعة فلا يُطاقون، أو لالتجائهم بالحَمْساء، وهي الكعبة؛ لأنّ حجرها أبيض إلى السواد وكان الزبير بن عبد المطلب شاعراً، فقال: **ولولا الحمس لم تلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا ...**

إذن فهناك قبائل عربية سُمُّوا حُمْساً؛ نظراً لتشديدهم في دينهم، أو لأنهم كانوا يتحمسون لا في دينهم ويتشددون به، بل وفي شجاعتهم وشدّتهم أيضاً فلا يُطاقون،... وهم:

قريش وكنانة ومن دان بدينها من العرب.

قريش وكنانة وخزاعة.

قريش ومن ولدته قريش وكنانة وجديلة وقيس.

قريش، وكنانة، وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة.

قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبنو عامر بن صعصعة.

قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة وبنو النضر بن معاوية.

قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجُشم وبنو نصر بن معاوية ومدلج وعَدوان وعَضْل وبنو الحارث بن عبد مناة، وبنو عامر بن صعصعة، وكلهم من سكان مكة وحرمها..

ويقال: إنّ الإسم مختصٌّ بقريش وكنانة فقط..

وأيضاً كان هناك أحماس العرب وهم الذين كانت أمهاتهم من قريش كبني عامر بن صعصعة، فإنهم تحمسوا؛ لأن أمَّهم قرشية.

قال ابن إسحاق: وقد كانت قريش ـ لا أدري أقبل عام الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقّنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحلّ كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك، استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحلّ مثل ما عظموا من الحرم.

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحجّ ودين إبراهيم عليه السلام ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها، إلاّ أنهم قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها، كما نعظمها نحن الحمس، والحمس أهل الحرم، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحلّ والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحلّ لهم ما يحلّ لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم. وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك...[١]

ظاهرتان :

إذن فهناك ظاهرتان تخالفان مناسك الحجِّ الإبراهيمي:

الظاهرة الأولى: إتيان البيوت من ظهورها، تلك التي التزم بها عرب الجاهلية غير الحمس، وقيل: الحمس، وبدت قضية معروفة بينهم، حتى غدت مخالفتها من قبل من يدين بها، لا فقط يُنكر عليه من في قومه، بل تثير انتباه وتساؤل الآخر الذي لا يؤمن بها، ففي أكثر من خبر كما ذكرنا، نُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه إذا ما رأى رجلاً من الأنصار يدخل .. من الباب وهو محرم .. يقول صلى الله عليه وآله له: «لم دخلت من الباب وأنت محرم»؟ أو «لم دخلت من الباب وقد أحرمت»؟ أو «ما حملك على ما صنعت»؟ أو

١. انظر المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين معه، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة ١ : ١٩٧ حمس؛ والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ٣ : ٢١٤ أحمس؛ تاج العروس، للزبيدي ١٥ : ٥٥٥؛ السيرة النبوية، لابن هشام (ت١٨٣هـ) تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا ١: ٢٥٥ حديث الحمس .

«ما حملك على ذلك.

حتى أنَّ هذا التساؤل دفع السيد الطباطبائي؛ ليستفيد من ظاهر الرواية شيئاً! ويستدرك عليه، حيث يقول: ... وظاهر الرواية أنَّ رسول الله ﷺ كان قد أمضى قبل الواقعة الدخول من ظهور البيوت لغير قريش، ولذا عاتبه بقوله: «ما حملك على ما صنعت» الخ. وعلى هذا فتكون الآية من الآيات الناسخة، وهي تنسخ حكماً مشرعاً من غير آية هذا، ولكنك قد عرفت أن الآية تنافيه حيث تقول: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا﴾، وحاشا الله سبحانه أن يشرع هو أو رسوله بأمره حكماً من الأحكام ثم يذمه أو يقبحه وينسخه بعد ذلك وهو ظاهر...

وما يهمنا من الحمس، بعيداً عن التفصيل فيما سنّوه لأنفسهم دون الآخرين، هو ما يخصُّ هذه الآية المباركة: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وأنهم أي الحمس مستثنون من أولئك الذين يدخلون البيوت من ظهورها، وهم الأنصار، وأهل المَدَر يعني من أهل البيوت. وأهل الوَبَر ـ يعني أهل الخيام. هؤلاء، حينما يحرمون بالحج، لا يدخلون بيوتهم من أبوابها.. ولم تنتهِ هذه الظاهرة المبتدعة، سواء فعلها غير الحمس من الأنصار وآخرين وهو الأشهر، أو فعلها الحمس على ما قيل، لم تنته إلاّ بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الظاهرة الثانية : ولئن كان في تلك الظاهرة قولان فيمن يفعلها: غير الحمس، أو الحمس على ما قيل، فإنَّ هذه الظاهرة الثانية، لم يُختلف في نسبتها إلى الحمس، فهم وحدهم دون غيرهم من القبائل قد اختصّت بهم، وكان على رأسهم قريش؛ فقد جعلوا لأنفسهم حقوقاً؛ حتى يتفضلوا بها على سائر العرب، وتمسكوا بأعمال؛ ليتميزوا بها عن

غيرهم، ومن ذلك أنهم في حجّهم دفعهم التعالي، حتى خالفوا مناسك إبراهيم عليه السلام، أو سول لهم شيطانهم كما في الخبر: كانت قريش تسمى الحمس، فجاءهم الشيطان فاستهواهم، فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم، استخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يخرجون من الحرم ويقفون بالمزدلفة،...

ومما ذكره ابن عاشور: روى الطبري عن ابن أبي نجيح: كانت قريش لا أدري قبل الفيل أم بعده، ابتدعت أمر الحمس رأياً، قالوا: نحن ولاة البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا، فلا تعظموا شيئاً من الحلِّ، كما تعظمون الحرم ـ يعني لأن عرفة من الحلّ ـ فإنكم إن فعلتم ذلك، استخفت العرب بحرمكم وقالوا : قد عظموا من الحلّ مثل ما عظموا من الحرم، فلذلك تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، يعني فكانوا لا يفيضون إلاّ إفاضة واحدة، بأن ينتظروا الحجيج حتى يردوا من عرفة إلى مزدلفة، فيجتمع الناس كلهم في مزدلفة، ولعل هذا وجه تسمية مزدلفة بجمع؛ لأنها يجمع بها الحمس وغيرهم في الإفاضة، ...

وفي المراد من الإفاضة قولان، نكتفي بما ذكره الشيخ الطبرسي حيث يقول: .. أحدهما: أنّ المراد به الإفاضة من عرفات، وأنه أمر لقريش وحلفائها وهم الحُمْس؛ لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ولا يفيضون منها، ويقولون: نحن أهل حرم الله نخرج منه، وكانوا يقفون بالمزدلفة ويفيضون منها، فأمرهم الله بالوقوف بعرفة والإفاضة منها، كما يفيض الناس، والمراد بالناس سائر العرب عن ابن عباس وعائشة وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة، وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام وقال الضحاك: إنه أمر لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم. وقال: ولمّا كان إبراهيم إماماً كان بمنزلة الأمة فسماه وحده ناساً.

والثاني: أن المراد به الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي والنحر عن الجبائي قال: والآية تدل عليه لأنه قال: فإذا أفضتم من عرفات، ثم قال: ثم أفيضوا فوجب أن يكون إفاضة ثانية، فدلَّ ذلك على أن الإفاضتين واجبتان والناس المراد به إبراهيم ...[١]

وبالتالي؛ فهم لا يقفون مع الناس حيث يقفون، ولا يفيضون من حيث يفيضون، حتى صارت ظاهرة مبتدعة معروفة، تثير التساؤل والاستغراب إذا ما وجدوا مخالفاً لها، فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: أضللتُ بعيراً لي يوم عرفة، فخرجتُ أطلبه بعرفة، فرأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة، فقلتُ: هذا من الحمس، ماله هاهنا؟! وقد ظلت هذه الظاهرة سنّةً بينهم حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لتردَّ عليهم مزاعمهم، ولتُطيح بما جعلوا لأنفسهم من امتيازات وتعال على غيرهم، ولتؤسس لمبدإ المساواة والتعارفبين الناس؛ أفراداً كانوا أم شعوباً وقبائل.. وسواء أكانوا أهل الحرم، أم أهل الحلِّ، فقد أمروا جميعاً

---

١. انظر تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي؛ وتفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١ هـ)، بتصرف. مجمع البحرين، للعلامة الطريحي، (ت١٠٨٧هـ) الطبعة الثانية سنة: ١٣٦٥ش، مكتبة المرتضوي، طهران، إيران ٤ : ٦٣ـ ٦٤ كتاب السين، باب ما أوله الحاء؛ وتفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت٦٠٦هـ)، الآية : ١٨٩،البقرة؛ أسباب النزول، للواحدي (ت٤٦٨ هـ) تحقيق كمال بسيوني زغلول: ٥٥ـ ٥٧ رقم ٥٠ و٥١؛ الدرّ المنثور، للسيوطي (ت٩١٣ هـ) دارالفكر، بيروت؛ الصحيح المسند من أسباب النزول، للوادعي (ت١٤٢٢هـ):٣٠ـ٣١؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠هـ)؛ تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ)؛ تفسير مجمع البيان : الآية : ١٩٩ البقرة؛ وانظر المقالة : إفاضة بل إفاضتان، العدد ١٩ من هذه المجلة.

بالإفاضة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾. سواء أكان المراد بها الإفاضة من عرفات، أم المراد بها الإفاضة من المزدلفة إلى منى..

المناسبة :

أما عن المناسبة في هذه الآية ١٨٩ البقرة، فهناك كما يذكرون مناسبة بين الجزأين، وهناك مناسبة بين الآية بجزأيها وما سبقتها من آيات، وهناك ثالثة وهي مناسبة ما بعدها بها، فعن: الأولى؛ يمكن تلمس ذلك، أي أنَّ هناك مناسبة أو علاقة أو ارتباطاً بين جزئي هذه الآية الكريمة، أي بين الجواب من كون الأهلة مواقيت للناس والحج، وبين تلك الظاهرة التي اعتادوا الالتزام بها خاصةً وقت أدائهم للحج والعمرة كما ذكرته أغلب الأخبار. أي يمكن تلمس هذه المناسبة من وقوع موضوعي الآية في وقت السؤال عن الأهلّة وعن دخول البيوت من ظهورها، ولعلَّ هذا هو ما دفع الشيخ الزمخشري ليضع في أثناء تفسيره للآية، وبالذات للجزء الثاني سؤالاً ليجيب عنه: فإن قلت ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها ـ وتمامها معلوم ـ أنّ كل ما يفعله الله عزّوجلّ لا يكون إلاّ حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البرّ في شيء، وأنتم تحسبونها برًّا، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج؛ لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى ليس البرّ وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله.

ثم قال: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، أي وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا. والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.[١]

الشيخ الطبرسي في النظم، يقول: ووجه اتصال قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾، أنه لما بيّن أنّ الأهلّة مواقيت للناس والحج وكانوا إذا أحرموا يدخلون البيوت من ورائها عطف عليها قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، وقيل إنه لما بيَّن أنّ أمورنا مقدرة بأوقات قرن به قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، أي فكما أنّ أموركم مقدرة بأوقات فلتكن أفعالكم جارية على الاستقامة باتباع ما أمر الله به والانتهاء عمَّا نهى عنه لأنّ اتباع ما أمر به خير من اتباع ما لم يأمر به.

وهو ما نجده فيما قاله القرطبي في قوله تعالى: الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، اتصل هذا بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقوع القضيتين في وقت السؤال عن الأهلّة وعن دخول البيوت من ظهورها؛ فنزلت الآية فيهما جميعاً. وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم،...

ويقول أبو حيان: .. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أنّ الأهلة مواقيت

---

١. الأنبياء : ٢٣ .

للحج، استطرد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج زاعمين أنه من البر، فبين لهم أنّ ذلك ليس من البر، وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج، ولما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب النقصان والزيادة، وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم، فأفعاله جارية على الحكمة، ردّ عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها، إذا أحرموا، ليس من الحكمة في شيء، ولا من البر، ولما وقعت القصتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً، ووصل إحداهما بالأخرى.

ويقول الرازي: .. فإنّ القوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الحكمة في تغيير نور القمر، فذكر الله تعالى الحكمة في ذلك، وهي قوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر، وبين هذه القصة، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه:

أحدها: أنّ الله تعالى لما ذكر أنّ الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه.

وثانيها: أنه تعالى إنما وصل قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾، لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد ، فنزلت الآية فيهما معاً في وقت واحد و وصل أحد الأمرين بالآخر.

وثالثها: كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة، فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم، وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم، فإنكم تظنون أنّ إتيان البيوت من ظهورها برٌّ، وليس الأمر كذلك.

القول الثاني: في تفسير الآية أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾،

مثل ضربه الله تعالى لهم، وليس المراد ظاهره، وتفسيره أن الطريق المستقيم المعلوم هو أن يستدل بالمعلوم على المظنون، فأما أن يستدل بالمظنون على المعلوم، فذاك عكس الواجب وضد الحق وإذا عرفت هذا فنقول: إنه قد ثبت بالدلائل أن للعالم صانعاً مختاراً حكيماً، وثبت أنّ الحكيم لا يفعل إلاّ الصواب البريء عن العبث والسفه، ومتى عرفنا ذلك، وعرفنا أنّ اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أنّ فيه حكمة ومصلحة، وذلك لأنّ علمنا بهذا الحكيم الذي لا يفعل إلا الحكمة يفيدنا القطع بأن فيه حكمة، لأنه استدلال بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أنّ فاعله ليس بالحكيم، فهذا الاستدلال باطل، لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم.

إذا عرفت هذا فالمراد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، يعني أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر، صرتم شاكين في حكمة الخالق، فقد أتيتم الشيء لا من البرّ ولا من كمال العقل، إنما البرُّ بأن تأتوا البيوت من أبوابها، فتستدلوا بالمعلوم المتيقن وهو حكمة خالقها على هذا المجهول، فتقطعوا بأنّ فيه حكمة بالغة، وإن كنتم لا تعلمونها، فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية، فإنّ من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه...

أما الزركشي صاحب البرهان، فيذكر وجوهاً عن الرابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت:

أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها معلوم أنّ كلّ ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في

واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برًّا.

الثاني: أنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج، ففي الحديث أنّ ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ليس البر بتحرجكم من دخول الباب، لكن البرَّ برُّ من اتقى ما حرم الله، وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم السؤال عن الأهلة...

الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأنّ مثلهم كمثل من يترك باباً ويدخل من ظهر البيت، فقيل لهم: ليس البرّ ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة، ولكن البرّ من اتقى ذلك، ثم قال الله سبحانه: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾، أي باشروا الأمور من وجوهها، التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا. والمراد أن يصمم القلب على أنّ جميع أفعال الله حكمة منه وأنه ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾، فإنّ في السؤال اتهاماً.

وكذا يقول سيد قطب: والارتباط بين شطري الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أنّ الأهلة هي مواقيت للناس والحج، وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني.. ثمَّ راح يذكر بعض الأخبار، منها ما عن البراء: كان الأنصار إذا حجوا، فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت... كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه... وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق، فقد كانوا يعتقدون أنّ هذا هو البر ـ أي: الخير أو الإيمان ـ فجاء القرآن ليبطل هذا التصور، وهذا العمل المتكلف الذي لا يستند

إلى أصل، ولا يؤدي إلى شيء. وجاء يصحح التصور الإيماني للبر.. فالبرّ هو التقوى، هو الشعور بالله ورقابته في السر والعلن، وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان، ولا تعني أكثر من عادة جاهلية. كذلك أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها. وكرر الإشارة إلى التقوى، بوصفها سبيل الفلاح .. وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة ـ هي التقوى ـ وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيماني، ووجه المؤمنين إلى إدراك نعمة الله عليهم في الأهلة التي جعلها الله مواقيت للناس والحج.. كلّ ذلك في آية واحدة قصيرة!

ابن عاشور: ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها؛ أنَّ سبب نزولها كان موالياً أو مقارناً لسبب نزول الآية التي قبلها، وأنَّ مضمون كلتا الجملتين كان مثار تردد وإشكال عليهم من شأنه أن يسأل عنه، فكانوا إذا أحرموا بالحج أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل المحرم بيته من بابه، أو لا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء، وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنَّموا على ظهور البيوت، أو اتخذوا نقباً في ظهور البيوت إن كانوا من أهل المدر، وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا من خلف الخيمة، وكان الأنصار يدينون بذلك، وأما الحُمس فلم يكونوا يفعلون هذا،...

علاقة الآية بما قبلها: تلك هي علاقة جزئي الآية ببعضهما، فيما هناك علاقة أخرى بين الآية المذكورة وبآيات سبقتها قريبة منها، فعن هذه العلاقة يقول أبو حيان: ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وهو أن ما قبلها من الآيات نزلت في الصيام، وأنّ صيام رمضان مقرون برؤية الهلال، وكذلك الإفطار في شهر شوال، ولذلك قال ﷺ: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ثمَّ واصل كلامه قائلاً: وكان أيضاً قد تقدّم كلام في شيء من أعمال الحج، وهو: الطواف، والحج أحد الأركان التي بني الإسلام عليها. وكان قد مضى الكلام في توحيد الله تعالى، وفي الصلاة، والزكاة، والصيام، فأتى بالكلام على

الركن الخامس وهو: الحج، ليكون قد كملت الأركان التي بني الإسلام عليها.

محمد رشيد رضا:.. ذكر الله تعالى حكم الأموال عقب ذكر أحكام الصيام لما تقدّم من المناسبة، والصيام عبادة موقوتة لا يتعدّى فرضها شهر رمضان، والأموال وسيلة لعبادة الحجّ وهو يكون في الأشهر الحرم، ولعبادة القتال مدافعة عن الملّة والأمّة وهي قد كانت ممنوعة في هذه الأشهر، فناسب أن يعقّب بعد أحكام الصيام والأموال، بذكر ما يشرّع في الأشهر الحرم من الحجّ ومن القتال عند الإعتداء على المسلمين، ويبدأ ذلك بذكر حكمة اختلاف الأهلّة...

علاقة ما بعدها بها: هذا وأنَّ للآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] ارتباطاً بالآية المذكورة ١٨٩ البقرة، وهو ما يظهر مما نصَّ عليه أبوحيان من وجود هذه المناسبة بين الآيتين، جاء ذلك منه بعد أن ذكر سبب نزول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو ما جاء عن ابن عباس قوله: أنزلت لما صدّ المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل، فيُخلوا له مكة ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء، وخاف المسلمون أن لا تفي لهم قريش، ويصدوهم، ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت. وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم وفي الشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك.

ثمَّ يُعقّب قائلاً: وبذكر هذا السبب، ظهرت مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ لأنّ ما قبلها متضمن شيئاً من متعلقات الحج، ويظهر أيضاً أنّ المناسب هو: أنه لما أمر تعالى

---

١. البقرة : ١٩٠ .

بالتقوى، وكان أشدّ أقسام التقوى وأشقها على النفس قتال أعداء الله، فأمر به فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والظاهر أنّ المقاتلة في سبيل الله هي الجهاد في الكفار؛ لإظهار دين الله وإعلاء كلمته، وأكثر علماء التفسير على أنها أول آية نزلت في الأمر بالقتال، أمر فيها بقتال من قاتل، والكف عن من كف، فهي ناسخة لآيات الموادعة،...

وكذا محمد رشيد رضا فيقول أيضاً: وردت هذه الآيات في الإذن بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم، إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً، فهي متّصلة بما قبلها أتمّ الاتّصال؛ لأنّ الآية السابقة بيّنت أنّ الأهلّة مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم عامّة وفي الحجّ خاصّة. وهو في أشهر هلالية مخصوصة كان القتال فيها محرّماً في الجاهلية... عن ابن عبّاس: أنّ هذه الآية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أنّ رسول الله ﷺ صُدّ عن البيت، ثمّ صالحه المشركون فرضي على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكّة ثلاثة أيّام يطوف ويفعل ما يشاء، فلمّا كان العام القابل، تجهّز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي لهم قريش، وأنّ يصدّوهم عن المسجد الحرام بالقوّة ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. يقول أيّها المؤمنون الذين تخافون أن يمنعكم مشركو مكّة عن زيارة بيت الله والإعتمار فيه نكثاً منهم للعهد وفتنة لكم في الدين، وتكرهون أن تدافعوا عن أنفسكم بقتالهم في الإحرام والشهر الحرام، إنّني أذنت لكم في القتال على أنه دفاع في سبيل الله للتمكّن من عبادته في بيته، وتربية لمن يفتنكم عن دينكم وينكث عهدكم، لا لحظوظ النفس وأهوائها، والضراوة بحبّ التسافك، فقاتلوا في هذه السبيل الشريفة من يقاتلكم ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ بالقتال فتبدأوهم، ولا في القتل فتقتلوا من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى، أو من ألقى إليكم السلم وكفّ عن حربكم، ولا

بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار، وقد قالوا: إنّ الفعل المنفي يفيد العموم. علّل الإذن بأنه مدافعة في سبيل الله،... وعلّل النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، أي إنّ الإعتداء من السيّئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها، فكيف إذا كان في حال الإحرام، وفي أرض الحرم والشهر الحرام؟...

ثمَّ واصل كلامه حول علل الإذن بالقتال مستفيداً من المقطع المتكون من الآية (١٩٠-١٩٤)... ولما وصل إلى الآية ١٩٦البقرة: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ بيّن مناسبتها بما قبلها قائلاً: اتّصال هذه الآيات بما قبلها جليّ جداً، لا سيّما لمن قرأ ما تقدّم من التفسير، فإنّ آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام والمسجد الحرام، فكان الغرض الأوّل من السياق بيان أحكام الحجّ بعد بيان أحكام الصيام؛ لأنّ شهوره بعد شهره الذي هو رمضان. ولمّا أراد النبي صلى الله عليه وسلم العمرة وصدّه المشركون أوّل مرّة بالحديبية، وأراد القضاء في العام القابل، وخاف أصحابه غدر المشركين بهم وإضطرارهم إلى قتالهم إذا هم نقضوا العهد وبدأوا بالقتال، أنزل الله تعالى أحكام القتال بعد ذكر الحج في الجواب عن حكمة اختلاف الأهلّة، ثمّ عاد إلى إتمام أحكام الحج فقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فالعطف والتعبير بالإتمام ظاهران في أنّ السياق في الكلام عن الحج، ولذلك لم يقل هنا كتب عليكم الحجّ كما قال في الصيام. وقد كان الحجّ معروفاً في الجاهلية لأنّ فرض على عهد إبراهيم وإسماعيل فأقرّه الإسلام في الجملة، ولكنّه أزال ما أحدثوا فيه من الشرك والمنكرات، وزاد ما زاد فيه من المناسك والعبادات، فالآية ليست في فرضيته وفرضية العمرة، بل هي في واقعة تتعلّق بهما وبقاصديهما، وقد كانوا توجّهوا إلى ذلك قبل نزولها بعام كما تقدّم، فدلّ ذلك على أنّ المشروعية سابقة لنزول هذه الآيات...

وأيضاً حول هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾، يقول ابن عاشور: هذا عود إلى الكلام على العمرة فهو عطف على قوله: ﴿لَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وما بينهما استطراد أو اعتراض، ثمَّ يذكر التالي: على أنّ عطف الأحكام بعضها على بعض للمناسبة طريقة قرآنية، فلك أن تجعل هذه الجملة عطفاً على التي قبلها عطف قصة على قصة. ولا خلاف في أنّ هذه الآية نزلت في الحديبية سنة ست حين صدّ المشركون المسلمين عن البيت...، وقد كانوا ناوين العمرة وذلك قبل أن يفرض الحج، فالمقصود من الكلام هو العمرة، وإنما ذكر الحج على وجه الإدماج تبشيراً بأنهم سيتمكنون من الحجّ فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن...

أما سيد قطب؛ فمما ذكره بعد حديثه عن آيات القتال في الآيات السابقة لهذه الآية: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾، ويخلص في بيانه إلى حكم القتال في المسجد الحرام، حيث يقول:.. ولا قتال عند المسجد الحرام، الذي كتب الله له الأمن، وجعل جواره آمناً استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وجعله مثابة يثوب إليها الناس، فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام.. لا قتال عند المسجد الحرام إلاّ للكافرين الذين لا يرعون حرمته، فيبدؤون بقتال المسلمين عنده. وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم.. فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين، الذين يفتنون الناس عن دينهم، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام، الذي عاشوا في جواره آمنين...

وإلى حكمه في الأشهر الحرم:.. فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام. وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان. تصان فيها الدماء، والحرمات والأموال، ولا يمس فيها حي بسوء. فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد

أن يحرم المسلمين منها، فجزاؤه أن يحرم هو منها. والذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته، فالحرمات قصاص. ومع هذا فإنّ إباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع في حدود لا يعتدونها. فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها، بلا تجاوز ولا مغالاة.. والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم. وقد كانوا يعلمون أنهم إنما ينصرون بعون الله. فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين. بعد أمرهم بالتقوى.. وفي هذا الضمان كل الضمان.

يقول عن سياق هذه الآيات: ثمَّ بعد ذلك يجيء الحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما. والتسلسل في السياق واضح بين الحديث عن الأهلة وأنها مواقيت للناس والحج؛ والحديث عن القتال في الأشهر الحرم وعن المسجد الحرام، والحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما...

وأما الشعراوي فيقول:.. والنسق القرآني نسق عجيب، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام، ورمضان يأتي قبل أشهر الحج، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان وعن الأهلة وعن جعل الأهلة مواقيت للناس والحج.

كما أنّ هناك شيئاً آخر يستدعي أن يتكلم في الحج وهو الكلام عن القتال في الأشهر الحرم، وعن البيت الحرام فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، إذن فالكلام عن الحج يأتي في سياقه الطبيعي. وحين يقول الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...﴾.[1]

١. تفسير الكشاف، الزمخشري (ت٥٣٨ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت٦٠٦ هـ)؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ جامع الأحكام، للقرطبي: الآية؛ البحر المحيط، لأبي حيان: الآية

❊ ❊ ❊

١٨٩ـ١٩٠؛ البرهان في علوم القرآن، للزركشي (ت٧٩٤هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان١: ٤٠ـ٤١؛ أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض تفسير تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ تفسير خواطر، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٩هـ)؛ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق؛ الآيات .

﴿ .. حَنِيفاً ..﴾

﴿ .. حُنَفَـاءَ .. ﴾.(٢)

حسن الحاج

الملخّص:

في عالم بعيد عن توحيد الله تعالى، مشتت بين عقائـد وثنيـة ومظـاهر طبيعيـة، راحوا يتدينون بها اعتقاداً وولاءً وعبادةً، فشكل ذلك مخاضاً عسيراً للبشرية في فكرهـا الديني ومواقفها نحو السماء، التي اضطربت، ولم تجد لها قراراً تركن إليه، في هكذا عـالم مصاب بداء الشرك، متديِّن بغير الله تعالى، انبثقت الحنيفيّة الإبراهيميّة؛ لتأخذ بـه نحـو الحقّ والطمأنينة، والهداية والنور، وأنَّ الإنسان مهما غـادر يمينـاً أو شمـالاً، لا يسـتقيم

أمره، ولا يهدأ قلبه، إلاّ بإتباع الوحي الإلهي، والانقياد لشرع الله وكتبه ورسله، وقد ظلّت الحنيفية ملّة السماء ومشروعها الخالد منذ رائدها نبيّ الله إبراهيم عليه السلام؛ لتكتمل برسول الله محمد ﷺ ولتبقى حقيقة الحنيفية والحنفاء وسيرتهم دليلاً على تطلّع البشرية في تاريخها الطويل إلى بارئها، تنشد الرشد وترفض الغي.

وقد توفرت هذه المقالة بحلقتيها الأولى وهذه الثانية على (الحنيفيّة) لغةً واصطلاحاً وعلى نشأتها ومراحلها التاريخية وبعض أتباعها من زمن نبيِّ الله إبراهيم وحتى الخاتم محمد صلوات الله عليهما حين توّجت برسالته الخاتمة ...

۞ ۞ ۞

إنَّ من تأمل جميعَ تلك الآيات التي ذكرت فيها مفردتا ﴿..**حَنِيفاً**..﴾ ، ﴿..**حُنَفَآءَ**..﴾ فإنه يدرك أنَّ الحنيفية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام هي دين التوحيد الخالص والاستسلام المنقطع لله عزَّوجلَّ، ومع هكذا توحيد وهكذا استسلام لله تعالى، فلا مكان للشرك والكفر وما يُعبد من دون الله تعالى، وهذا هو دين الأنبياء جميعهم، واعتقاد الرسل كلّهم، حتى خُتمت تلك الأنبياء والرسل ورسالاتهم بالخاتم محمد بن عبد الله ﷺ لم يختلفوا فيما بينهم إلاّ في الشرائع والأحكام، أما الاعتقاد والإيمان بالله، فهم جميعاً على التوحيد..

وبالتالي:

﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**...﴾، إنَّ من يُعرض عن ملّة إبراهيم عليه السلام ويرغب في غيرها، فقد أوقع نفسه في حماقة لا تستطيع معها تمييز ما ينفعها مما يضرّها، وهو ممن جهل قدرها، وأذلها وأهانها بترك سبيل عزّها وكمالها وإسعادها في الدنيا والآخرة، وبالتالي يكون بإعراضه ظالماً لنفسه مسيئاً لها مستحقاً للعذاب في الآخرة...

وأما الآيتان ألأُخريان من سورتي الحجّ والبيّنة، فقد تضمنت كلٌّ منهما ﴿حُنَفَآءَ﴾:

الأولى:

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.[1]

جاءت ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ وقد نصبت على الحال؛ فهي حال مؤسسة من ضمير اجتنبوا في الآية السابقة: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ...﴾. ابن عاشور: ﴿حُنَفَآءَ﴾ حال من ضمير ﴿ٱجْتَنِبُوا۟﴾ أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله، جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة، أي تكونوا على ملّة إبراهيم حقاً، ولذلك زاد معنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ بياناً بقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

وهذا كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[2]

والباء في قوله: ﴿مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ للمصاحبة والمعية، أي غير مشركين معه غيره. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ...﴾.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ حال مؤكدة منه أيضاً...[3]

---

١. الحج : ٣١ .

٢. النحل : ١٢٠ .

٣. انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه؛ آلدرويش، وانظر في فوائده الحال المؤسسة والحال المؤكدة ٦ : ٤٢٨ ـ ٤٣٠، التحرير والتنوير: الآية.

﴿حنيفاً﴾ ، ﴿حنفاء﴾

جاءت هذه الآية ضمن سياق آيات عديدة سبقتها ولحقتها (٢٥ ـ ٣٧) أغلبها يتحدث عن البيت الحرام ونشأته وتطهيره ودوره ومنزلته، وأذان إبراهيم في الناس بالحجّ، وآداب الحجّ وأحكامه ومناسكه وأهدافه ومنافعه؛ لتصف حجّاج بيت الله الحرام بأنّهم ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ مائلون عن الشرك كله، مستقيمون على التوحيد، مخلصون صادقون في عقيدتهم، وإنها لمنزلة ما أعظمها! لا أدري؛ قد لا ينالها إلاّ ذو حظٍّ عظيم، وذو منزلة عالية رفيعة في إيمانه، نسأله تعالى التوفيق لذلك!

ثمَّ راحت الآية تصور حال من يشرك والمشهد العنيف الذي يؤول إليه أمره...

الشيخ الطبرسي: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي مستقيمي الطريقة على أمر الله، مائلين عن سائر الأديان وهي نصب على الحال ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي حجاجاً مخلصين، وهم مسلمون موحدون، لا يشركون في تلبية الحجّ به أحداً.

ثم ضرب سبحانه مثلاً لمن أشرك فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط من السماء ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي تأخذه بسرعة؛ قال ابن عباس: يريد تخطف لحمه ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تسقطه ﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ أي بعيد مفرط في البعد. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن بعد من أشرك به من الحق كبعد من خرّ من السماء، فذهب به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد. وقال غيره: شبّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة فهو هالك لا محالة.[1]

الثانية :

---

١. مجمع البيان : الآية .

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.[1]

﴿حُنَفَآءَ﴾ حال ثانية من ضمير ﴿لِيَعۡبُدُواْ﴾ وقد خصَّ هذا الخطاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. الشيخ الطبرسي: ثم ذكر سبحانه ما أمروا به في كتبهم فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لم يأمرهم الله تعالى إلاّ لأن يعبدوا الله وحده لا يشركون بعبادته، فهذا ما لا تختلف فيه ملّة ولا يقع فيه تبدل ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يخلطون بعبادته عبادة ما سواه ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام؛ مسلمين مؤمنين بالرسل كلهم.. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي ويداوموا على إقامة الصلاة ويخرجوا ما فرض عليهم في أموالهم من الزكاة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ يعني الدين الذي قدَّم ذكره ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي دين الكتب القيمة.. وقيل: دين الملّة القيمة والشريعة القيمة، قال النضر بن شميل: سألت الخليل عن هذا، فقال: القيمة جمع القيم والقيم والقائم واحد، فالمراد وذلك دين القائمين لله بالتوحيد..

الرازي ذكر ثمانية أقوال عن ﴿حُنَفَآءَ﴾ وله تفصيل كثير نافع، نكتفي بخلاصة اثنين منها، الأول: متبعين دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.[2] الثاني: مستقيمين والحنف هو الاستقامة،.. ونظيره قوله

---

١. البينة : ٥ .

٢. النحل : ١٢٣ .

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ﴾.[1] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.[2]

وبما أنَّ الحنيفيّة رافقت المسيرة الإبراهيميّة، فقد أطلقت على نبيِّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام، أول مؤسس للحنيفية و داع لها، وأطلقت على شريعته وعلى الذين اتبعوه؛ ونظراً لأنَّ أكثر الشرائع التي ظهرت بعد إبراهيم تنتمي في جذرها إلى الديانة الإبراهيمية، فقد وصفت بالحنيفية، وانتشرت هذه الصفة بين أتباع هذه الشرائع، فهم: أحناف وحنفاء ومتحنّفون..

ومما يؤسف له أنها لم تنجو مما أصاب الساحة يومذاك من انحراف وعبادة أوثان، ففسدت النفوس، وتلوّثت العقول، وراح كلّ طرف سواء أكان فرداً أو جمعاً يرى أنه يمثّل الحنيفيّة، بل هو هي دون غيره، غير مبالين بما أصابهم من كفر وشرك، وتجاوزات لحدودها وأحكامها؛ حين أدخلوا فيها ما ليس منها، مما جعلها تتنافى مع الحنيفية الحقّة، [حتى أنَّ عبدة الأوثان في الجاهلية قبل البعثة المباركة لرسول الله ﷺ كانوا يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم] وصاروا يتكاثرون ويتفاخرون بها، ويرون عدم الاتصاف بها عيباً كبيراً.. ولكنه مجرد زعم لا حقيقة له؛ لتعارضه مع قيم الحنيفية. فإنَّ إبراهيم ﴿كَانَ حَنِيفاً﴾ وكلّ من يدعي من الناس أنه حنيفٌ، فلا بدَّ أن يترسّم مبادئ إبراهيم، ويخطو خطواته، ويتمسّك بقيمه المبنيّة على توحيد الله تعالى والمنبثقة منه، وإلاّ فهي مجرد دعوة لا حقيقة لها ولا أساس، ومجرد مزاعم لا غير، بمعنى أن ليس لأحد ادعاء الحنيفية وأنه حنيفيٌّ، إلاّ إذا كان على منهج إبراهيم فقط لا على منهج غيره، ولم

---

١. فصلت : ٣٠ .

٢. انظر التحرير والتنوير ؛ ومجمع البيان ؛ وتفسير الرازي ، سورة البينة ؛ الآية : ٥ .

يكن مكتفياً ببعض ما جاء به إبراهيم، يؤمن ببعض ويكفر أو يترك بعضاً..

وبكلمة واحدة أنَّ المتّفق عليه حتى عند هؤلاء؛ هو أنَّ الحنيفية، جذرُها الحقيقي هو ما جاء عن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، اللذين تعود إليهما الحنيفية الحقّة لا لغيرهما أبداً، ويُرجع إليهما الحنفاءُ عقيدتهم بالحنيفية وإن شابتها أشياء.. وإن طرأ عليها نقص هنا وزيادة هناك.. وإن تعبّدوا بشيء منها.. بسبب أهواء تتبع، ومصالح ترتجى،.. وبالتالي تكون الحنيفية التي تُدعى غير واضحة بل مملوءة بالشوائب..

حتى جاءت البعثة النبويّة المباركة؛ لتضع الناس على المنهج الصحيح للحنيفيّة، ولتصحّح ما أصاب علاقتهم بها من بدعٍ وعقائد باطلة بسبب بعدهم التاريخي عن منابعها، وابتلائهم بأمراض ساحاتهم، وآفات القرون المتتالية..، فغدا كلٌّ من يُؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ حنيفاً، بل وراحوا يسمّون كلاً من الرسول ﷺ ومن آمن به بصدق، واتبعه بإخلاص حنيفاً مسلماً؛ ولتمسّكه ﷺ بالديانة الإبراهيمية، ولأنه ﷺ المتّفق سلوكاً وسيرةً مع مبادئها، ولأنه يدعو لها، ويُشيد بها، ويدافع عنها حتى غدت شريعته هي المصداق الأسمى للحنيفيّة، حتى أنها وصفت بأنها الشريعة الحنيفيّة الخاتمة! وهكذا كلٌّ من رفض الشرك بأنواعه، وتمسّك بقيم الحنيفيّة ومبادئها الحقّة، القائمة على التوحيد الخالص، والتي أسسها نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، وراح يدعو الناس إليها، فهو من الحنفاء، وهذا ميزان حقٍّ ينفعنا في معرفة الحنفاء سواء أكانوا قبل البعثة النبوية أم بعدها، فأهل الكتاب وإن زعموا انتماءهم لها، لكنهم لوّثوا الحنيفيّة الحقّة بشركهم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتْ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.[1]

وكذا غيرهم من قبائل قريش من أهل مكة مع كونهم مشركين ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾.[2] كانت تحترم الحنيفية وتتصف بها، وتتشرف بالانتساب إليها، وتكسب بذلك وجاهةً جعلت لها منزلة اجتماعيّة كبيرة، وحقّقت لها مصالح كثيرة، وكانت عمليًّا تدين ببعض ما جاء به إبراهيم من شرائع مخصوصة من حجّ البيت والخِتَان وغيرهما، إلاّ أنها تعمل ما يُنافيها بشركها، فينطبق عليها،﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾.[3]

هذا الداء الذي ابتليت به حتى الساحة المؤمنة بعد البعثة النبويّة، وما زالت... والأخطر أنه راح بعض يدافع عن مصاديق هذا البلاء، بل ويجهد نفسه في ايجاد تبرير أو غطاء شرعي له من هنا وهناك، بدل أن يُحذّر المسلمين من هذا الشرك، ويُجرّئهم إلى نبْذِه، ويدعوهم إلى الإخلاص لله تعالى، فهو روح التوحيد، وأساس الدين، بأن يقصد العبد بعمله وعبادته وجه الله عزَّوجلَّ فقط!!

فمشركو قريش ﴿..ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ...﴾.[4] اتخذوا من الحجارة ومن غيرها أولياء، وهم يعلمون أنّ ما عدا الله تعالى لا يضرُّ ولا ينفع،

---

١. التوبة : ٣٠ ـ ٣١ .
٢. النحل : ٥٧ .
٣. يوسف : ١٠٦ .
٤. الزمر : ٣ .

لكنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون، فهم على مذهبهم سائرون.. فكانوا مخالفين بسيرتهم ومعتقدهم ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ الذي هو أساس الحنيفية الإبراهيميّة، التي يكون أتباعها ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه؛ كما هو حال إبراهيم عليه السلام، المقبل على الله تعالى والمعرض عن غيره؛ فهو قدوتهم!

الدكتور العلي: والذي يفهم من القرآن الكريم، هو أنَّ الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وأنَّ قدوتهم في ذلك إبراهيم. ويلاحظ أنَّ لفظة «مسلم» استعملت في مرادف ومعنى لفظة «الحنيف»، وأنَّ إبراهيم هو أبو وأول المسلمين. وقد وصف الإسلام بأنه دين الله الحنيف، والدين الحنيف، وأنَّ الشريعة الإسلامية،هي الحنيفية السمحة السهلة، وذلك تميزاً لها عن الرهبانية المتعصبة ...[١]

إذن؛ فمفهوم الحنيفيّة، مبادئ توحيديّة خالصة، وقيم عالية، ومنظومة مفاهيم وأحكام وأخلاق صاغتها السماء، وبذل إبراهيم جهوداً عظيمة وتحمل من أجلها الكثير الكثير؛ لتبليغها والدعوة إليها، وقلع ما عداها من النفوس..، وهذا المفهوم كأي مفهوم آخر في التنزيل العزيز، له مصاديق، وأصدقها وأفضلها هم الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام في

١. انظر د. جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الفصل ٧٥ .

مشروعه المبارك هذا، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم بإخلاص من الصالحين، وهم فريق مبارك لا ريب في اتباعهم هذا، وأما غيرهم فإنه لأمرٌ ما أظنُّ أنَّ هناك من يلتزم به قبل البعثة النبويّة، فيعتزل الأصنام ويتعبّد كما تعبّد إبراهيم ومن تبعه، ويسير بسيرته قيماً تتبع وأحكاماً لا يُحاد عنها، فيكون حنيفيًّا بحقٍّ على ملّة إبراهيم عليه السلام، نعم قبل البعثة النبوية الشريفة، فالحنيفية لجمالها وجلالها، ولما فيها من وجاهة كانوا في الجاهلية يتسمّون بها، ويحبون الاتصاف بها، ولكن دون التمسك بجوهرها، إما جهلاً بها، أو أخذوا بشيءٍ منها وبما طرأ عليها من تحريف، فخلطوا بينها وبين ما أضيف إليها أو أُنقص منها بحكم تعاقب الأزمان والأعراف والأهواء، أو للجمع بينها وبين ما يبتغون من عرض الحياة الدنيا.. حتى أنهم استبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات. إذن فهم مع شركهم الواضح كانوا يدعون أنهم حنفيّون، فهذا ابن منظور يذكر: وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء وعلى دين إبراهيم. وهذا ابن عاشور في تفسيره يقول ـ كما ذكرنا ـ في ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ للتّنبيه على أن اتّباع محمّد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضاً بأنَّ الذين زعموا اتباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبلُ قد أخطأوها بشبهة مثل أميّةَ بن أبي الصَلت، وزيد بن عمرو بن نُفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم...

الدكتور العلي: لا تذكر المصادر معلومات وافية دقيقة واضحة عن دين وعادات هؤلاء الحنفاء، وكلُّ ما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة أن عقائدهم هي احتجاج على تعدد الآلهة والشرك وعبادة الأصنام والطقوس الوثنية، وأنها تميل إلى العزلة والتوحيد، وأنَّ معتنقيها كانوا يقدرون الأديان السماوية، ولكنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى، وأن هذه الديانة هي أقرب إلى الإسلام، وهي تؤكد صلتها بدين إبراهيم

أكثر من تأكيدها عبادة الله. وليس هناك إشارة إلى اعتقادهم بالبعث، ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى العزلة والتحنث.. ثمَّ يقول: والحقّ أننا لا نعلم كيف كان العرب في الجاهلية يتصورون دين إبراهيم، اللهم إلاّ ما رواه ابن هشام وابن الكلبي من أنَّ العرب بعد أن دانوا بالشرك، بقي فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه.[١]

لكننا نجدهم وقد ذكروا أنَّ هناك في الجاهليّة من يتصف بكونه حنيفاً، وأنه من الحنفاء، وأنه على الحنيفيّة الإبراهيميّة، وأنه يدين بشريعة نبيِّ الله إبراهيم ونبيِّ الله إسماعيل عليهما السلام في الألوهية والتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وأنَّ فيهم من يُبشّر أنَّ رسولاً سيبعث في آخر الزمان، ويخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور...

يقول د. شوقي ضيف: ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحُنفاء، وكانت تشكُّ في الدين الوثني القائم، وتلتمس ديناً جديداً، يهديها في الحياة...

حتى صاروا طائفة وهم (الحنيفيون) يُعرفون بذلك، وقد ذكرتهم أو ذكرت عدداً منهم المصادر التاريخيّة والأدبيَة، وعلماء التفسير والأخبار، ولأنَّ ما ذكروه عنهم كثير، فقد دوّنوا لهم أشعاراً ووصايا وأقوالاً وحكماً كثيرة، نكتفي منها بالقليل، ولكن بعد أن

---

١. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ٣ : الفصل الخامس والسبعون: الحنفاء؛ لسان العرب لابن منظور؛ حنف؛ التحرير والتنوير؛ تاريخ العرب القديم والبعثة النبويّة للدكتور صالح أحمد العلي: ٣٢٨ ؛ سيرة ابن هشام ١: ٨٢ ؛ ابن الكلبي، الأصنام : ٦ .

تتمَّ الإشارة إلى ما قد يصحُّ تسميته بتجمّعٍ مكّيٍّ ضمَّ كثيراً من وجهاء قريش، وتمخّض عن أربعة شاء حظُّهم أن يُذكروا دون غيرهم، ينتسبون إليها، كانوا نواةً لأعلان موقف إزاء ما يعبدون، فعن ابن إسحاق (ت١٥٢هجرية) وعنه ابن هشام (ت٢١٣ أو ٢١٨ هجرية..) في السيرة النبويّة، ويبدو أنَّ روايته هي الأقدم، والأكثر تفصيلاً لما دار من نقاش وجدل بين المجتمعين؛ أنه قال: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويُديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضُكم على بعض؛ قالوا: أجل! وفي خبرٍ قال بعضهم لبعض: تعلَّموا والله ما قومُكم على شيءٍ، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم؛ ما حجر نُطيف به، لا يسمع ولا يُبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم (ديناً)، فإنكم والله ما أنتم على شيء! فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دينَ إبراهيم![1]

فمن هم هؤلاء؟

الذين خالفوا عرب الجاهلية قبل الإسلام؛ أنكروا الوثنيّة، رفضوا عبادة الأصنام، تفرّقوا في البلاد يلتمسون الحنيفية! إنهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مُرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خُزيمة، وكانت أمّهُ أميمة بنت عبد المطلب عمّة النبيِّ ﷺ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ، وزيد بن

١. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي ١ : ٩٧ ؛ السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ٢٢٢، وغيرهما.

عمرو بن نفيل بن عبد العُزّى بن عبدالله بن قُرط بن رياح بن رزاح بن عديّ بن كعب بن لؤيّ.

ولكن؛ لا أدري، أين يلتمسونها، وهي في دارهم أو قريبة منهم، هي في مكة، مهد الحنيفية ولادةً ونشأةً وامتداداً، ومنها وصلت إلى الطائف ويثرب و..؟

ونظراً لأنَّ بعض هؤلاء الذين تفرّقوا، وغيرهم ممن وصفوا بأنهم حنفاء، وهم قلّة، كانوا ممن يُجيد القراءة والكتابة، مما سهّل عليه البحث عما يُريد، ولما تنصّر، درس كتب أهل الكتاب، ونشط في الاستماع لما يقوله أهل التوراة والإنجيل، فعرفوا أنّ تلك الكتب وهذه الأقوال قد تضمّنت البشارة بنبيٍّ يظهر، وهذا زمانه، فصاروا يترقّبون ظهوره، ويُبشرون به.. وليس هذا ببعيد، فواحدة من الأدلة على صحّة بعثة رسول الله محمد ﷺ ما تحدّث به القرآن الكريم من أنَّ هناك في التوراة والإنجيل ما يحمل اسمه أو صفاته ﷺ كتابةً أو بشارةً، فولّدت عندهم معرفةً تفصيليةً كمعرفتهم لأبنائهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.[1] وكان ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[2]

حتى أنَّ رحمته تعالى وسعت ﴿... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

---

١. الصف : ٦ .

٢. البقرة : ١٤٦ .

﴿الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1]

فأتباع الديانتين اليهوديّة والنصرانيّة وبالذات أحبارهم ورهبانهم يعلمون ذلك ويعرفونه، حتى أنهم كانوا يرتقبون أن ينتصروا به على من سواهم؛ والتنزيلُ العزيزُ ذكر هذا عنهم والأخبارُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.[2]

فقبل بعثته المباركة كان أهل الكتاب ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدعونه تعالى أن يرسل إليهم الرسول المنتظر، فينتصروا به على مشركي العرب. فلما جاء رسول الله ﷺ كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن.

فعن ابن عباس أنه قال: كانت اليهود يستفتحون أي يستنصرون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، ولم يكن من بني إسرائيل كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك، وتصفونه وتذكرون أنه مبعوث، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعنه أيضاً: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء

---

١. الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧ .

٢. البقرة : ٨٩ .

وقالت: اللّهم إنا نسألك بحق النبيِّ الأُمِّيِّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلمَّا بُعث النبيُّ ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بك يا محمد، إلى قوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال السدي: كانت العرب تمر بيهود فيلقون منهم أذى، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلمَّا جاءهم محمد ﷺ كفروا به حسدًا، وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل.[1]

ورقة بن نوفل بن أسد

ابن عبد العُزّى بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، فهو ابن عمّ السيدة أمِّ المؤمنين خديجة الكبرى رضوان الله تعالى عليها ؛ بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزى بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشية الأسدية. ذُكر في ترجمته أنه كره عبادة الأوثان، وما كانت عليه قريش من الضلال، وكان واحداً من أربعة، خرجوا بحثاً عن دين غير دين مشركي قريش وعبدة أصنامها، وتوجه إلى الشام، لا أدري لِمَ اختار الشام؟ فلعلّه سمع برهبانٍ مازالوا على دين نبيِّ الله عيسى عليه السلام، أو لأنه ذو معرفة بدين النصرانيّة، ولهذا الدين هوًى في نفسه حتى كان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، يقول ابن إسحاق:

---

١. مجمع البيان، للطبرسي ؛ أسباب النزول، للواحدي : الآية .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب. وقال عنه الذهبي: وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الخط العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عمي.

إذن أعجبه دين النصرانية فتنصّر هناك، وفي قولٍ صار واحداً من الحنفاء، الذين مالوا من الشرك وعبادة الأصنام ومن التقرب إليها إلى الحنيفية، وأسندوا له أخباراً وبشائر منها:

... وكان قد قرأ الكتب كلّها وكان عالماً حبراً وكان يعرف صفات النبيّ الخارج في آخر الزمان، وكان عند ورقة أنه يتزوج بامرأة من قريش تكون سيدة قومها و أميرة عشيرتها تساعده وتعاضده وتنفق عليه مالها، فعلم ورقة أن ليس بمكّة أكثر مالاً من خديجة؟، فرجا ورقة أن تكون ابنة أخيه خديجة، وكان يقول لها يا خديجة سوف تتصيلن برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء، أو فيه شرف الدنيا ونعيم الآخرة.[1]

ومنها: أنه سيكون في هذه الأُمّة نبيٌّ، وأنه قال لخديجة، بعد أن حدّثته عما ذكر لها غلامُها ميسرة عن رسول الله ﷺ من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه: لئن كان هذا حقًّا يا خديجة، إنَّ محمداً لنبيٌّ هذه الأمّة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمّة نبيٌّ ينتظر، هذا زمانه، فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى؟

وذكروا له في ذلك شعراً:

لججتُ وكنتُ في الذكرى لجوجا

لهم طالما بعث النشيجا

---

١. بحار الأنوار، العلاّمة المجلسي ١٦ : ٢١ عن أبي الحسن البكري في كتاب الأنوار .

ووصف من خديجة بعد وصف

فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكَّتين على رجائي

حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبرتنا من قول قس

من الرهبان أكره أن يعوجا

بأنَّ محمداً سيسود فينا

ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر في البلاد ضياء نور

يقيم به البرية أن تموجا

فيلقى من يحاربه خسارا

ويلقى من يسالمه فلوجا

فياليتي إذا ما كان ذاكم

شهدت فكنت أولهم ولوجا

ولوجاً في الذي كرهت قريش

ولو عجت بمكَّتها عجيجا

أرجِّي بالذي كرهوا جميعا

إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا

وهل أمر السفالة غير كفر

بمن يختار من سمك البروجا؟

فإن يبقوا وأبق تكن أمور

يضجُّ الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكلّ فتى سيلقي
من الأقدار متلفة حَروجا

ونسبوا له موقفاً لما رأى بلالاً ذلك العبد الصالح تُعذبه أيدي المشركين عذاباً شديداً، فعن ابن إسحاق فيما كان يلقاه بلال بعد إسلامه، أنه قال: وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد!

وأردف ابن إسحاق ذلك بقوله: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمرُّ به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال! ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً.

وعن (حناناً) قال محققو السيرة في هامش الصفحة: (أي لأجعلن قبره موضع حنان؛ أي عطف ورحمة، فأتمسح به متبركاً، كما يُتمسح بقبور الصالحين)!

وفي قصة البعثة النبويّة المباركة؛ ذُكر له دور رسمته له أيادٍ قد تكون نصرانيّة من كهنة ورهبان، أو زبيريّة، تريد بناء دور كبير لآل أسد بن عبد العُزّى من خلال أمِّ المؤمنين رضوان الله عليها، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد، ومن خلال ابن عمِّها ورقة بن نوفل بن أسد، ولآل الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، فانبرى لذلك أبناؤه وأحفاده كعروة وهشام بن عروة، ومولى آل الزبير؛ إسماعيل بن أبي حكيم، أو أيدٍ معاديّة لدعوة رسول الله ﷺ وقرآنه المبارك، فجعلت ورقة بطلاً راحت ابنتُ عمّه أمُّ

المؤمنين خديجة تستعين به على ماآل إليه أمرُ زوجها رسول الله ﷺ بعد أن عاد إليها من غار حراء، وقد هبط عليه جبرائيل في الغار، وتركه في هلع واضطراب حتى نسبوا إليه ﷺ أنه قال: «فَلَقَدْ هَمَمْت أنْ أطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حالِقٍ مِنْ جَبَلٍ» لولا خديجة وابن عمّها ورقة بن نوفل ساعداه حتى أذهبا عنه ما كان فيه من قلق ورعب، قولي له: (فليثبت) وكأنَّ ورقة ذلك المتنصّر الهرم الأعمى، يُثبت قلب رسول الله ﷺ، بأن يزيل منه كلَّ ما زرعه فيه جبرائيلُ من خوف واضطراب، ويُبعده عما تلبّس عليه من وساوس شيطانيّة، وأنَّ ما هو فيه لا علاقة له بالأجنة بل هو وحي ونبوّة، وإن بشرته هذه المرويات بكونه نبيًّا، لكنّه وحسب هذه الأخبار، لا يستطيع أن يميز بين ما هو وحي إلهي وما هو وسواس شيطانيّ.

وقد غفل هؤلاء الرواة ومن تبعهم، إن لم أقل غير هذا، أولاً عن أنَّ الله سبحانه وتعالى ما إن يُرسل رسولاً إلاّ وهو في قبضته تعالى، يعلم ما بين يديه وما فيه وما حوله، ويُظهره على ما يشاء من غيبه، ويُحيطه برصد يُراقبونه، يحرسونه من أي وسوسة شيطانيّة أو نفسيّة، ومن كلِّ ما قد يعترضه من ضعفٍ بشريٍّ أو تردّد، أوخطإٍ وسهوٍ ونسيانٍ .. وأنَّ النبيّ ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي، بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من الجنّ، ومن أن يتشبَّه الشيطان له على صورة الملك، فلا يُترك النبيُّ لجنّ وشيطانٍ، إنه رصد سماويٌّ لا يغلبه أو يخترقه شيءٌ أبداً، كلُّ هذا من أجل أن يؤدّي رسالة السماء وحجّتها على الناس جليّةً كاملةً غيرَ منقوصة .. وهذا ما نجده في المقطع القرآني ٢٦ ـ ٢٨ من سورة الجنّ:

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾.

وثانياً عن مدى الإساءة إلى مقام نبوّةٍ هي موضع اختيار السماء وتسديدها، فجعلت من ورقة معرّفاً لرسالة السماء، منقذاً لنبيٍّ اصطفاه الله تعالى لرسالته، وأعدّه لها خير إعدادٍ، واصطنعه لها، شأنه شأن أنبيائه السابقين، وكما أوحى إليهم أوحى إليه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾.

فنبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، الذي ما ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾ حتى كان مطمئنًّا، لم يصبه اضطراب ولا هلع، حين ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ونبيُّ الله موسى عليه السلام، الذي كان يعلم بنبوّته ورسالته، واستقبلها بهدوء وسكينة وهو يدعو الله تعالى، ويسأله تسديده في مهمته هذه، ويستجيب الله له كما جاء في سورة طه: ٢٥ ـ ٣٦:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۞ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۞ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۞ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۞ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۞ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۞ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وهكذا من بعده نبيُّ الله عيسى بن مريم عليهما السلام؛ ذلك العبد المطمئن الهادئ في مهده، يُبشّر بنبوّته كما في سورة مريم: ٣٠ ـ ٣١: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَانِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾. فرسول الله ﷺ إن لم يكن أفضلهم، وهو كذلك، فهو لا يقلُّ أهمية من أولئك الأنبياء والرسل، فلماذا يُرعبُه جبرائيلُ ولم يُرعبهم، والوحي هو الوحي، حتى بقي هذا الرعبُ ملازماً له ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ، فقلتُ: زملوني

زملوني...»؟! فما بال هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى؟! كما يُسميه ورقة، لم يعرفه رسول الله ﷺ وكان يلقي في نفسه الخوف والفزع؟! وكأنَّ نبوّته ﷺ ورسالته ﷺ لا يكتب لها الكمال إلاّ بإلقاء الرعب في قلبه وبإخافته، وورقة يُزيل ذلك عنه، ويُبين له حقيقة ما هو فيه بقوله: والذي نفسي بيده، إنك لنبيٌّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتُؤذَيَنَّه ولتُخرَجنَّه ولتُقاتلنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله!! هادئ البال، مطمئن الحال..

هذا فضلاً عن أنه ﷺ كان ذا بصيرة وكان على بينة من ربّه، فأين هؤلاء الرواة ومن تبعهم من المفسرين من البصيرة (في الآية ١٠٨يوسف) التي تعني اليقين والمعرفة والاستنارة والحجّة الواضحة غير عمياء، التي لم يتصف بها رسول الله ﷺ من ورقة بن نوفل، بل اتصف بها والسماء تعدُّهُ نبيًّا ورسولاً، كان ذا بصيرة وهو يستلم الرسالة وهو يُبلغها، وإلاّ كيف تكلّف السماءُ من لا بصيرة له؟! ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ومن قوله تعالى في الآية ٥٧ الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

لقد كان ﷺ على بيان وبرهان وحجّة واضحة من ربِّه تعالى، لا يُربكه وحيُها ولا يُقلقه.

ولكن آهٍ آهٍ من أمر المحدّثين! فكما قدّم بعضهم خدمات جليلة في نقل التراث الروائي وحفظه، فإنَّ لبعضهم إساءات كبرى بحقِّ صاحب هذا التراث، صارت مدعاةً للمغرضين والغاوين، ومادّةً لأقلام ولأجهزة مُلئت خبثاً وبغضاً، وأدلةً لبعض المستشرقين، للطعن برسالته ﷺ وبالقرآن الكريم، وإذا ما اطلع عليها الغيور لأدرك

مدى الجريمة، التي تزاولها تلك الأجهزة والمناهج والأقلام لتوهين رسالة الإسلام والقدح برسوله ﷺ وكتابه المبارك؛ مستفيدةً من روايات من هنا و هناك مختلقة أو مرسلة أو ضعيفة، اخترقت التراث الروائي، وروّج لها ذكرُها من قبل بعض أئمة الحديث في مصادرهم دون تحقيق وتدقيق ودراسة لمدى ملائمة متونها لمقام النبوّة والبعثة المباركة؛ ولمبادئ الدين الحنيف ومقاصد الشريعة،...

توفي ورقة بعد أن صار شيخاً كبيراً أعمى، إما بعد أن شهد المبعث النبوي، وإما قبل أن يؤمر النبيُّ بالإنذار...[1]

عبيد الله بن جحش بن رياب

ابن أسد بن خزيمة، أمّه أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ وعبيد الله هذا، رفض ما عليه قريش في الجاهلية من دين، وبقي في مكة، لم يخرج منها يلتمس ديناً آخر، ولما بُعث رسول الله ﷺ أسلم الرجل هو وأخوته قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين للإسلام في مكة، ومن أوائل الصحابة .. ثمَّ هاجر مع من هاجر من المسلمين في الهجرة الثانية إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة النبويّة المباركة، ومعه زوجته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وهناك تُوفي عبيد الله، وبقيت زوجته وله بنت منها.. واختلفت الأخبار في شأنه وهو في مهجره: أولاً : أنه تنصّر قبل وفاته،

---

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ٢٣٨ ؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢ : خديجة أمّ المؤمنين ؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ) ؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي (ت ٩١١ هـ) : ١ سورة العلق .

أو أنه مات مسلماً. ثانياً: زواج الرسول ﷺ من أمِّ حبيبة. فمع الاتفاق على أنَّ رسول الله ﷺ خلف عبيدَ الله على امرأته أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، لكن اختلفت الأخبار في وقته بعد وقعة الخندق، أو بين السنة السادسة أو السابعة من الهجرة النبويّة، أو بعد زواجه ﷺ بابنت عمّته زينب بنت جحش أخت عبيد الله هذا، وفي مكان العقد؛ في الحبشة، أو بعد أن رجعت إلى المدينة، واختلفت أيضاً في الذي ولي نكاحها؛ النجاشي نفسه أو غيره،..

ولكن الكلام، كلّ الكلام، في أنَّ عبيد الله مات في الحبشة مسلماً، أو مات نصرانيًّا، بمعنى أنه ارتدّ عن إسلامه حتى عدَّ في الخبر أول مرتد من الإسلام، فعلى قول ابن إسحاق: فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً. أي أنه تنصّر إما بداية وصوله أو بُعيده بقليل، والأخبار في هذا الشأن كثيرة، وهي لا تخلو من وهن وضعف وإرسال واضطراب، وأنَّ أغلبها ما إن يذكر ارتداد الرجل وتنصّره، إلاّ وأشاد بإسلام زوجته أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وبصبرها وثبات موقفها على الإسلام وتمسكها به. وذكر ما رأته في منامها في قصة تنصّر زوجها، وفي خطبتها وزواجها من الرسول ﷺ مما قد يثير الشك في أنَّ هناك يداً أمويّة دسّت نفسها في التأكيد على ذلك، وهذه فقرات اخترناها من الأخبار: (... فتنصر زوجها بالحبشة و مات بها، وأبت أن تتنصّر وثبتت على إسلامها ففارقها.. ثم تنصّر وارتد عن الإسلام ومات هناك، وثبتت أُمُّ حبيبة على الإسلام.. فتنصّر وراودها على النصرانية، فأبت وصبرت على دينها و مات زوجها.. فتنصر زوجها بالحبشة ومات بها وأبت هي أن تتنصر وثبتت على إسلامها ففارقها «فهلك». ثمَّ افتتن وتنصّر ومات نصرانياً، وأثبت الله الإسلام لأمِّ حبيبة، وعن طريق إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأموي، قال: قالت أُمُّ حبيبة: رأيتُ في المنام كأنَّ زوجي عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة، ففزعت فأصبحت، فإذا به قد تنصّر،

فأخبرتُه بالمنام، فلم يحفل به، وأكبَّ على الخمر حتى مات، فأتاني آتٍ في نومي، فقال: يا أمَّ المؤمنين! ففزعت، فما هو إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي يستأذن، فإذا هي جارية له يقال لها: أبرهة، فقالت: إنَّ الملك يقول لك وكّلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكلته، فأعطيت أبرهة سوارين من فضة، فلما كان العشي، أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين، فحضروا، فخطب النجاشي، فحمد الله وأثنى عليه وتشهد، ثم قال: أما بعد فإنَّ رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجه أمَّ حبيبة فأجبت، وقد أصدقتها عنه أربعمائة دينار ثم سكب الدنانير. فخطب خالد فقال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أمَّ حبيبة وقبض الدنانير، وعمل لهم النجاشي طعاماً فأكلوا. قالت أمُّ حبيبة: لما وصل إليَّ المال، أعطيت أبرهة منه خمسين ديناراً. قالت: فردّتها عليَّ، وقالت: إنَّ الملك عزم عليَّ بذلك، وردّت عليَّ ما كنت أعطيتها أولاً، ثم جاءتني من الغد بعود وورس وعنبر وزباد كثير، فقدمت به معي على رسول الله ﷺ... إلى غير ذلك من الفقرات).

ومن الأخبار ما عن ابن إسحاق: وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً. ثمَّ قال: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: كان عبيد الله بن جحش ـ حين تنصر ـ يمرُّ بأصحاب رسول الله ﷺ، وهم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، ولم تبصروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر صأصأ لينظر. وقوله : «فقح» فتح عينيه.

وذكر ابن عبد البرّ أنَّ:... عبيد الله بن جحش تنصّر بأرض الحبشة، ومات بها

نصرانياً، وبانت منه امرأته أمّ حبيبة ...

فيما حديث عائشة يختلف عن ذلك حيث قالت: هاجر عبيد الله بأمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة، أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله أمَّ حبيبة، وبعث معها النجاشي شرحبيل بن حسنة. وقال عنه شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط البخاري.

و ابن حجر نسب تنصّره إلى ما يُقال: إنه قد تنصّر..

وعن عروة عن أمِّ حبيبة أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوّجها النجاشي النبيَّ ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة.

ومن الأخبار الأخرى ما قاله ابن إسحاق: وحدثني محمد بن علي بن حسين: أنَّ رسول الله ﷺ بعث فيها إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فخطبها عليه النجاشي فزوجه إياها، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار...

جعفر بن محمد عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُمية إلى النجاشي خطب عليه أمَّ حبيبة، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار. أي عن *أبي جعفر* الباقر كما ذكر الذهبي: *بعث رسول الله ﷺعمرو بن أمية إلى النجاشي يخطب عليه أم حبيبة*، فأصدقها من عنده *أربعمائة دينار*، وقيل عقد عليها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وأمهرها النجاشي عن رسول الله ﷺ *وفي خبر* تزوجها رسول الله ﷺ وهي بالحبشة زوّجها منه عثمان بن عفان، وفي خبر آخر حين رجعت إلى المدينة، فخطبها رسول الله ﷺ فزوجها إياه عثمان بن عفان .

وقال أبو نعيم في الدلائل: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُمية الضمري إلى النجاشي، فزوّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وبعث بها

إليه. وقال: كان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر، ولا أعلم في ذلك خلافاً.

ولما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبيِّ ابنته، قال: ذاك أو ذلك الفحل لا يقدع أنفه أي لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريماً. ومعنى هذا أنَّ الزواج تمَّ قبل فتح مكة سنة ٨ هجرية، وأبو سفيان على كفره.

وأمر عبيد الله بن جحش، لا يخلو من تساؤل واستغراب خاصةً إذا نظرنا إلى قول ابن إسحاق: فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً مرّةً أخرى، لوجدنا أنَّ عبيد الله تنصّر عند قدومه الحبشة، أو بعيد قدومه أي في سنة هجرته وهي الخامسة من البعثة، وعلى رأي ابن عبد البرّ:.. وبانت منه امرأته أمّ حبيبة.. أي لم تبق على ذمته. وهنا يرد هذا السؤال: والنبيُّ ﷺ لابدَّ أنه علم بارتداد الرجل، فكيف يتركها وشأنها حتى السنة السادسة أو السابعة من الهجرة النبويّة؟! اللهم إلا أن يكون ارتداده وقع قبيل السنة السادسة، بمعنى بعد أن قويت شوكة الإسلام وتأسست دولته في المدينة المنورة، فهو وإن كان ممكناً أن يقع الارتداد، لكنه أمرٌ يعوزه الدليل الصحيح ..

ولا أدري، فلعلّ قوله كما في الخبر: «فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، ولم تبصروا بعد..»، أنه وجد الحبشة وملكها وأخلاقه، كما وصفها رسول الله ﷺ عندما أمر المسلمين بالخروج من مكة مهاجرين إلى الحبشة: «فإنَّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، وإنه يحسن الجوار»، فتأثر ومال إلى دينها!

ولكن كيف يكون ذلك ويترك إسلامه، وهو يرى تأثر ملك الحبشة بالإسلام خاصة بعد خطبة جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه المعروفة بمضامينها العالية، حتى وردت أخبار بإسلام النجاشي؟!

ثمَّ متى شرعت أحكام الارتداد أفي العهد المكّي، والإسلام بعدُ ضعيفاً في سنواته الأولى، ولم يتمكن من بعض النفوس، حتى تبين من عبيد الله زوجته بعد أن قال كلمة الكفر، وكفر بعد إسلامه وهجرته إلى الحبشة؟!

أوَ كان الارتداد فضلاً عن أحكامه يطلق في تلك الفترة على من ارتدَّ في إسلامه أو تركه؟! فضلاً عن أنَّ آيات الارتداد نزلت في المدينة المنورة: (البقرة: ٢١٧، آل عمران:٩٠، المائدة:٥٤، محمد:٢٧، الممتحنة:١٠).

ولماذا لم يلتمس النصرانيّة خارج مكة كورقة بن نوفل، وهي قريبة منه؟ أيتنصّر وهو الذي هجر ما عليه قومه من الشرك وعبادة الأصنام، وكان يبحث عن الحنيفية الحقّة؟! أيتنصّر بعد إسلامه وقد وجد ما كان ينتظره في مكة عند رسول الله ﷺ وفي بعثته التي كان يترقبها حتى اليهود والنصارى، وهو يعلم بذلك؟ أيتنصّر الرجل وهو الباحث عن الحقيقة، وقد وجدها برسول الله ﷺ وآمن بها، وتحمل الهجرة من أجلها، فكان من المهاجرين إلى الحبشة هو وزوجته وأخوه عبد الله بن جحش، وفي قول كان معهم أخ ثالث اسمه عبد بن جحش؟ أيتنصّر وهو من عائلة عرفت بإسلامها وإخلاصها لرسول الله ﷺ، حتى أنها تركت كلَّ شيء وهاجرت...؟

وهناك من استدلّ بما جرى من حوار بين هرقل و أبي سفيان، وكان إذ ذاك مشركاً، حين سأله هرقل عمن آمن برسول الله ﷺ: «هل يرتد أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه»؟

فأجاب أبو سفيان: لا»...

ولو كان عبيد الله قد تنصّر؛ لوجدها أبو سفيان فرصة للنيل من النبيِّ ﷺ ودعوته، كما فعل لما سُئل: «فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها؟ قال: ولم تمكنّي كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة». ولا يمكن القول بأنَّ

أبا سفيان لم يعلم بردّة عبيد الله ـ لو صحّت ـ لأنه والد زوجه أم حبيبة.

هذا وأنَّ أخبار ارتداد عبيد الله حتى وإن اشتهرت، فأولاً رُبَّ مشهور لا أصل له، وثانياً لا تخلو من إرسال وضعف في سندها، واضطراب واختلاف في متنها، ولعلَّ أغلبها لا تثبت عند التحقيق، شأنها شأن كثير من الأمور التي علقت بالدين والعقائد والوقائع التاريخية التي ما إن يضع المحقق الخبير الأمين يده عليها حتى تتساقط وتتهاوى! وثالثاً: أنَّ عبيد الله ثبت إسلامه وثبتت هجرته إلى الحبشة بعد أذيّة قريش لهم، وأخبار ارتداده هذا حالها، وبالتالي فلا يصحُّ نقض إسلامه بها، وحتى لو شككنا فاستصحاب إسلامه جارٍ هنا، ولا يعني أنَّ الارتداد لم يقع لبعض من أسلموا، لا، وقع كما وقع النفاق لبعضهم، لكن هذا ليس مبرراً لاتهام الرجل بالتنصّر بعد إسلامه، وحتى لا يظلم وهو في قبره ـ والله أعلم به منا ـ فالأمر يتعلق بما نُقل، وما نُقل قد لا يخلو من آفات، ويحتاج إلى مزيد تحقيق سنداً ومتناً؛ اكتفي بهذا لأنَّ البحث قد يطول.

ولنعم ما قاله العراقي في ألفيته في السيرة:

وليعلم الطالب أنَّ السيرا ۞ تجمع ما صحَّ وما قد أُنكرا.[1]

---

١. انظر في هذا السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ٢٢٣ ؛ الاستيعاب، بهامش الإصابة ٢ :٢٦٣ ؛ الإصابة ؛ طبقات ابن سعد ٨ : ٩٨ ؛ فتح الباري ؛ صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي، عن ابن عباس ؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٤ : كتاب بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق وكتبه إليهم ؛ التقاسيم والأنواع، ابن حبان ١٣ : ٣٨٥ رقم ٦٠٢٧ تحقيق شعيب الأرناؤوط، وقال عنه: إسناده صحيح على شرط البخاري ؛ وابن حبان في صحيحه ؛ الكشاف، للزمخشري تحقيق كلّ من عادل أحمد، وعلي محمد، ومشاركة الدكتور فتحي عبد الرحمن، الجزء ٦ : ٩٣ الهامش و٩٢، سورة الممتحنة. وغير ذلك من المصادر .

عثمان بن الحويرث بن أسد

ابن عبد العزى بن قصي، وهو شاعر جاهلي، عرف بالظرافة، وكان يقال لعثمان هذا: البطريق، ولا عقب له، وإنه طمع في الرئاسة وخطط لها، فلم يجد إلاّ التنصّر وسيلة لها، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وحسنت منزلته عنده، وله مع قيصر قصة طويلة، ملخصها أنَّ قيصر كان قد توّج عثمان وولاه أمر مكة، فلما جاءهم بذلك، أنفوا من أن يدينوا لملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى: ألا إنَّ مكة حي لقاح لا تدين لملك، فلم يتم له ما أراد، وقيل غير ذلك، ولما امتنعت قريش من أن يتملكها من قبل قيصر، رجع إلى الشام ليموت فيها مسموماً، سمّه عمرو بن جفنة الغساني.

فذلك حيث يقول ورقة بن نوفل:

هل أتى ابنتي عُثْمَان أنَّ أباهما
حانت منيته بجنب الفرصد
ركب البريد مخاطراً عن نفسه
ميت المنية للبريد المقصد
فلأبكين عُثْمَان حقَّ بكائه
ولأنشدن عمراً وإن لم ينشد.[1]

١. انظر الروض الأنف ؛ المنمق في أخبار قريش: قصته الطويلة مع قيصر ؛ تاريخ دمشق، لابن عساكر، ذكر من اسمه عثمان. الفرصد: موضع في الشام .

قُسّ بن ساعدة بن عمرو

ابن عدي بن مالك من قبيلة إياد، أو هو قس بن ساعدة بن حذاقة بن زهر بن أياد بن نزار. ترك وجوداً واضحاً لا في التراث قبل الإسلام فقط، بل وفيما بعد البعثة النبوية المباركة، فهو أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، حتى راح شعراؤها تضرب فيه الأمثال (أحكم من قس .. وأقول من قس ..).

قال فيه أعشى قيس:

وأحكم من قس وأجرأ مِلّذي ۞ بذي الغيل من خفان أصبح خادراً

وقال الحطيئة:

وأقْوَل من قس وأمضى إذا مضى ۞ من الرمح إذ مَسّ النفوسَ نكالُها

طالت حياته حتى قيل: وصلت إلى ستمائة سنة وأكثر، توفي قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وفيما يعتقد كلام مختلف: كان نصرانياً، وأنه أسقف كعبة نجران، وكانت العرب تعظّمه قساً .. لم يكن له صلة بنجران ويُرجّح أنه من الحنيفية.. فكان على ملّة إبراهيم عليه السلام الحنيفية، يدعو إلى توحيد الله وعبادته، يؤمن بالبعث بعد الموت ..

فيما الشهرستاني وكما يبدو من منهجه، حين يذكر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوّة قبل البعثة النبويّة، يُكثر من كلماتهم شعراً ونثراً؛ ليستدل بها على اعتقاداتهم تلك.

فيقول: ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوّة، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها .. فممن كان يعرف النور الظاهر، والنسب الطاهر، ويعتقد الدين الحنيفي، وينتظر المقدم النبوي: زيد بن عمرو بن نفيل، كان يسند ظهره إلى الكعبة، ويقول:

أيها الناس هلموا إليَّ، فإنَّه لم يبقَ على دين إبراهيم أحدٌ غيري.

وسمع أمية بن أبي الصلت يوماً ينشد: كلّ دين يوم القيامة عند الله ۞ إلاّ دين الحنيفة زور.

فقال له: صدقت.

وقال زيد أيضاً:

فلن تكون لنفس منك واقية ۞ يوم الحساب إذا ما يجمع البشر.

ثمَّ يواصل كلامه فيذكر قس بن ساعدة حيث يقول: وممن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب قس بن ساعدة الإيادي، قال في مواعظه: كلا وربِّ الكعبة! ليعودون ما باد، ولئن ذهب ليعودن يوماً.

وقال أيضاً: كلا بل هو الله إله واحد ـ ليس بمولود ولا والد ـ أعاد وأبدى ـــ وإليه المآب غدا.

وأنشد في معنى الإعادة: يا باكي الموت والأموات في جدث ـ عليهم من بقايا بزهم خرق ـ دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم ـ كما ينبه من نوماته الصعق ـ حتى يجيئوا بحال غير حالهم ـ خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا ـ منهم عراة ومنهم في ثيابهم ـــ منها الجديد ومنها الأزرق الخلق.[1]

كما أنَّ السيوطي روى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أن رحم الله قساً، كان على دين أبي إسماعيل بن إبراهيم».

وعن الشيخ الصدوق: قس بن ساعدة بن حذاقة بن زهر بن أياد بن نزار، أول

---

[1]. الملل والنحل، للشهرستاني ١ : ٨٦ ـ ٨٧ .

من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، ويقال: إنه عاش ستمائة سنة، وكان يعرف النبيَّ ﷺ باسمه ونسبه، ويبشر الناس بخروجه، وكان يستعمل التقية ويأمر بها في خلال ما يعظ به الناس ..

ينتظر ظهور رسول الله ﷺ ومبعثه، أدركه ولكن قبل بعثته، حال الموت بينه وبينها، ولأنّه متيقن ذلك كان يقول مبشراً به: إنَّ لله ديناً خيراً من الدين الذي أنتم عليه.

فعن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى مكة ـ قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤيّ بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمتُ أني أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أول من يسعى إليه».[1]

وله كلام جليل يتوفر على خطبة وشعر روي عن الفريقين. فعن الشيخ الصدوق قال: حدثنا أبي رضي الله عنه، قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد ابن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ أقبل إليه وفد فسلموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: مَن القوم؟ قالوا: وفد بكر بن وائل، قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي؟

قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فما فعل؟ قالوا: مات، فقال رسول الله ﷺ:

---

[1]. دلائل النبوة، لأبي نعيم .

«الحمد لله ربّ الموت وربّ الحياة، كلّ نفس ذائقة الموت، كأنّي أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي، وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر، وهو يخطب الناس، ويقول: اجتمعوا أيها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتم فاسمعوا، فإذا سمعتم فعوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا إنه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت، إنَّ في السماء خبراً وفي الأرض عبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء (لا) تغور، يحلف قس ما هذا بلعب ، وإنَّ من وراء هذا لعجباً، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يحلف قس يميناً غير كاذبة إنَّ لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه».

ثم قال رسول الله ﷺ: «أفيكم من يحفظ شعره»؟

فقال بعضهم: سمعته يقول: ...

وأيضاً روي هذا أو مثله عن الصحابي عبادة بن الصامت، وكذا مع اختلاف عن ابن عباس الذي قال: قدم وفد عبد القيس على النبيِّ ﷺ فقال: «أيكم يعرف قسّ بن ساعدة الإيادي»؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله. قال: «فما فعل»؟ قالوا: هلك. قال: «فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام، وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس، وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا، واستمعوا، وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، إنَّ في السماء لخبراً، وإنَّ في الأرض لعبراً ...». قال ﷺ: رحم الله قساً يحشر يوم القيامة أمّة وحده، هل فيكم أحد يحسن من شعره شيئاً؟ فأنشده بعضهم قوله:

في الذاهِبينَ الأوّلين ۞ نَ مِنَ القُرون لنا بصائرْ

لمّا رأيتُ مَوَارِدًا ۞ للموتِ ليس لها مَصَادِرْ

ورأيتُ قومِيَ نحوَها ۞ يَسْعى الأصَاغرُ والأكابِرْ

لا يَرجع الماضي إلَيَّ ۞ ولا مَنَ الباقين غابِرْ

أيقَنْتُ أنّي لا محـا ۞ لَةَ حيثُ صار القومُ صائِرْ

وقال الجاحظ في البيان والتبيين:

ولإياد في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأنَّ رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة، وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه بالبعث. ولذلك كان خطيب العرب قاطبةً.

ونسبوا أيضاً إلى النبيّ ﷺ أنه سأل وفد إياد قبيلة قس: هل ترك وصية؟ قالوا: وجدوا عند رأسه صحيفة فيها من إنشائه الأبيات التالية من الشعر:

يا ناعي الموت والملحود في جدث ۞ عليهم من بقايا قولهم خرق

دعهم فإنَّ لهم يوماً يصاح بهم ۞ فهم إذا انتبهوا من نومهم أرقوا

حتى يعودوا بحال غير حالهم ۞ خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا

منهم عراة ومنهم في ثيابهم ۞ منها الجديد ومنها المنهج الخلق.

وأما ما جاء عن الشيخ الصدوق فاختلاف يسير في هذه الأبيات مع زيادة؛ أنه قال: حدثنا الحسن بن عبد الله بن سعيد... عن هشام، عن أبيه (المراد بهشام هشام بن محمد بن السائب الكلبي)، كما يظهر من كتاب مقتضب الأثر:٣٧؛ الهامش. أنَّ وفداً من أياد قدموا على رسول الله ﷺ، فسألهم عن حكم قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس:

يا ناعي الموت والأموات في جدث ـ عليهم من بقايا بزهم خرق

دعهم فإنَّ لهم يوماً يصاح بهم ـ كما ينبه من نوماته الصعق

منهم عراة ومنهم في ثيابهم ـ منها الجديد ومنها الأورق الخلق

حتى يعودوا بحال غير حالتهم ـ خلق جديد وخلق بعدهم خلقوا.

مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في أثر آيات، وأموات بعد أموات، ضوء وظلام، وليال وأيام، وفقير وغني، وسعيد وشقي، ومحسن ومسئ، نبأ لأرباب الغفلة، ليصلحن كلّ عامل عمله، كلا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدا، وإليه المآب غدا، وأما بعد، يا معشر أياد أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين الحسن الذي لم يشكر والقبيح الذي لم ينقم؟ كلا وربّ الكعبة ليعودن ما بدا، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم!

حكمه: وينسب الرواة إلى قس بن ساعدة حكماً كثيرة منها: من عيَّرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من ظلمه، وإذا خاصمت فاعدل وإذا قلت فاصدق ولا تستودعن سرك أحداً، وقالوا: إنه أول من قال: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وهو أول من قال: أما بعد.. وعن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: جمع قس بن ساعدة ولده فقال: إنَّ المعا تكفيه البقلة وترويه المذقة. ومن عيرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، متى عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك، فإذا نهيت عن شيء فابدء بنفسك، ولا تجمع ما لا تأكل ولا تأكل ما لا تحتاج إليه، وإذا ادخرت فلا يكونن كنزك إلا فعلك، وكن عف العيلة مشترك الغنى تسد قومك، ولا تشاورن مشغولا وإن كان حازما، ولا جائعا وإن كان فهما، ولا مذعورا وإن كان ناصحا، ولا تضعن في عنقك طوقا لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاقتصد، ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته، فإنك إذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً، وكان المستودع بالخيار في الوفاء بالعهد، وكنت له عبداً ما بقيت، فإن جنى عليك كنت أولى بذلك، وإن وفى كان الممدوح دونك، عليك بالصدقة فإنها تكفر الخطيئة .. فكان قس لا

يستودع دينه أحداً، وكان يتكلم بما يخفى معناه على العوام، ولا يستدركه إلاّ الخواص ...[1]

زيد بن عمرو بن نُفَيل

ابن عبد العُزّى القُرَيشي العَدَوي، ابن عمِّ عمر بن الخطاب، والخطاب هذا هو ابن نفيل كان عمَّ زيد وأخاه لأُمّه، وهو قول ابن إسحاق الآتي: (وكان الخطاب بن نفيل عمَّه وأخاه لأُمّه).

وقفة: فقدكان من فعل الجاهلية أن ينكح الابن أمرأةَ أبيه إن توفي، ونستكشف من وصف الآية لهذا النكاح، الذي نهت عنه بكونه ﴿فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾، كم هو عمل قبيح بل في غاية القبح والشناعة! فأمُّ زيد وهي جيداء بنت خالد بن جابر كانت عند نفيل بن عبد العُزّى، فولدت له الخطاب (أبو عمر الخليفة الثاني) ثمَّ مات عنها نفيل، فتزوجها ابنُه عمرو، فولدت له زيداً، فالخطاب بن نفيل يكون عمَّ زيد، ويكون أخاه لأمّه. وكان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية حتى نزلت هذه الآية ٢٢ من سورة النساء: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾. في قول: أي لا تتزوجوا ما تزوّج آباؤكم. وقيل: ما وطأ آباؤكم من النساء؛ حرّم عليكم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الأب...

---

١. انظر الأعلام، للزركلي ؛ كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق ١ : ١٩٥ باب ١٠ رقم : ٢٢، في خبر قس بن ساعدة الإيادي ؛ والبيان والتبيين، للجاحظ ؛ والبداية والنهاية، لابن كثير ٢ : ذكر قس بن ساعدة الإيادي ؛ الطبراني في كتابه المعجم الكبير ؛ والحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة .

وزيد هذا هو والد الصحابي سعيد بن زيد، الذي أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً؛ لذلك فهو يعدُّ أحد السابقين الأولين إلى الإسلام.

ولعلّ نفيلاً هذا يُعدُّ أبرز أولئك الأربعة في البحث عن التوحيد، وقد فارق ما عليه قومه من عبادة الأوثان، وأكل الميتة والدم وما يذبح على الأوثان، وراح ينهى عن قتل المؤودة. ويُقال: إنه وقف فلم يدخل في يهوديّة ولا نصرانيّة، وظلَّ يبحث عن الحنيفية الحقّة، حتى قال: أعبد ربَّ إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة بن أبيه عن أمّه أسماء بنت أبي بكر، قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أي الوجوه أحبّ إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته!

وقد نُقل عنه شعر كثير، منه ما قاله في فراق دين قومه، وما كان لقى منهم في ذلك:

أربًّا واحداً أم ألفَ ربّ ـ أدينُ إذا تقسَّمت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعُزّى جميعاً ـ كذلك يفعل الجلدُ الصبورُ
فلا العُزى أدين ولا ابنتَيها ـ ولا صنَمَي بني عمرو أزورُ
ولا هبلاً أدين وكان ربًّا ـ لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ
عجبتُ وفى الليالي معجبات ـ وفى الأيام يعرفها البصيرُ
بأنَّ الله قد أفني رجالاً ـ كثيراً كان شأنهم الفجورُ
(ألم تعلم بأنَّ الله أفنى ـ رجالاً كان شأنهم الفجورُ؟)
وأبقى آخرين ببرّ قومٍ ـ فيربل منهم الطفل الصغيرُ

وبينا المرءُ يفتر ثاب يوماً ـ كما يتروّح الغصن المطيرُ
ولكن أعبدُ الرحمن ربّي ـ ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفورُ
فتقوى اللهِ ربِّكم احفظوها ـ متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارهم جنان ـ وللكفار حاميةٌ سعيرُ
وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا ـ يُلاقوا ما تضيق به الصدورُ

زيدٌ يستقبل القبلة:

كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال: لبيك حقًا حقًّا، تعبداً ورقًّا.

عذتُ بما عاذ به إبراهيم ـ مستقبلَ الكعبة وهو قائم
أنفى لك اللهمَّ عانٍ راغم ـ مهما تُجشّمني فإني جاشم

وله أيضاً:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ـ له الأرضُ تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت ـ على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ـ له المُزنُ تحمل عذباً زُلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة ـ أطاعت فصبَّت عليها سجالا

وكدليل آخر يسوقونه على أنه كان من الموّحدين، أنه قال:

إلَى اللهِ أُهْدِي مِدْحَتِي وَثَنَائِيَا ـ وَقَولاً رَضِيًّا لا يَنِي الدَّهْرَ بَاقِيَا
إلَى المَلِكِ الأَعْلَى الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ ـ إلَهٌ ولاَ رَبٌّ يَكُونُ مُدَانيَا
ألاَ أيُّهَا الإنْسَانُ إيَّاكَ وَالرَّدَى ـ فَإنَّكَ لاَ تَخْفَى مِنَ اللهِ خَافِيَا
وَإيَّاكَ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ـ فَإنَّ سَبيلَ الرُّشْدِ أصْبَحَ بَادِيَا
حَنَانَيْكَ إنَّ الجِنَّ كَانَتْ رَجَاءَهُمْ ـ وأنْتَ إلَهي ربُّنَا وَرَجَائِيَا

رَضِيتُ بكَ ـ اللَّهُمَّ ـ ربًّا فَلَنْ أُرَى ـ أدِينُ إلَهًا غَيْرَكَ ـ اللهَ ـ ثَانِيَا
وأنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْل مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ـ بَعَثْتَ إلَى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا
فَقُلْتَ لَهُ: اذْهَبْ وهَارُونَ فَادْعُوَا ـ إلَى اللهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا
وَقُولاَ لَهُ: أأنْتَ سَوَّيتَ هَذِهِ ـ بلاَ وَتَدٍ حَتَّى اطْمَأنتْ كَمَا هِيَا
وقُولاَ لَهُ: أأنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ ـ بلا عَمَدٍ أرْفِقْ إذًا بكَ بَانِيَا
وَقُولاَ لَهُ: أأنْتَ سَوَّيتَ وَسْطَهَا ـ مُنيرًا إذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولاَ لَهُ: مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدْوَةً ـ فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الأَرْض ضَاحِيَا
وَقُولاَ لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثَّرَى ـ فَيُصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ ـ وفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا
ولأَنْتَ بِفَضْل مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا ـ وقَدْ بَاتَ فِي أضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيَا
وإني ولَوْ سَبَّحْتُ باسْمِكَ ربَّنَا ـ لأُكْثِرُ ـ إلاَّ مَا غَفَرْتَ ـ خَطَائِيَا
فَرَبَّ العِبَادِ ألْقِ سَيْبًا وَرَحْمَةً ـ عَلَيَّ وبَارِكْ فِي بَنِيَّ وَمَالِيَا

يُعاتب زوجته !

وله شعر يُعاتب فيه زوجته صفية بنت الحضرمي على اتفاقها مع الخطاب في معاكسته:

يقول ابن إسحاق: وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة؛ ليضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، فكانت صفية بنت الحضرمي، كلما رأته قد تهيأ للخروج وأراده، آذنت به الخطاب بن نفيل، وكان الخطاب بن نفيل عمَّه وأخاه لأُمّه، وكان يعاتبه على فراق دين قومه، وكان الخطاب قد وكل صفية به، وقال: إذا رأيتيه قد همَّ بأمر فآذنيني به، فقال عند ذلك زيد:

لا تحبسيني في الهوا ـ ن صفّى ما دابي ودابه
إني إذا خِفتُ الهوا ـ ن مُشيَّعٌ ذُلُل ركابه
دُعموص أبواب الملو ـ ك وجائب للخرق نابه
قَطَّاع أسباب تَذ ـلُّ بغير أقرانٍ صعابه
وإنما أخذ الهوا ـ ن العير إذ يُوهي إهابه
ويقول إنّي لا أذ ـ لّ بصكّ جنبيه صِلابه
وأخي ابن أمّي ثم عمي ـ لا يواتيني خطابه
وإذا يُعاتبني بسو ـ ء قلتُ أعياني جوابه
ولو أشاء لقلتُ ما ـ عندي مفاتحُهُ وبابه

ومات في الشام : وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة.

فكان لا يدخلها إلاّ سرًّا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب، فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراقه. فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه:

لا هُمَّ إني محرم لا حلّه ـ وإنَّ بيتي أوسط المحلّه
عند الصفا ليس بذي مضلّه

ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلّها، ثم أقبل فجال الشام كلّه، حتى انتهى إلى راهب بميفعة (الأرض المرتفعة) من أرض البلقاء، كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد

أظلَّ زمان نبيٍّ يخرج من بلادك، التي خرجتَ منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه.

وقد كان شامَّ اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئاً منهما، فخرج سريعاً، حين قال له ذلك الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه.

وفي خبر أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ قال: من بنية إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال: الدين، قال: ارجع فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك، فرجع يريد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه، وكان يقول: أنا على دين إبراهيم عليه السلام، وأنا ساجد على نحو البنية، التي بناها إبراهيم عليه السلام، وكان يقول: إنا ننتظر نبيًّا من ولد إسماعيل من ولد عبد المطلب! وراح ورقة بن نوفل بن أسد يبكيه، حيث قال:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ـ تجنبت تنّوراً من النار حاميا
بدينك ربًّا ليس ربٌّ كمثله ـ وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبتَه ـ ولم تك عن توحيد ربِّك ساهيا
فأصبحتَ في دار كريم مقامها ـ تُعلّل فيها بالكرامة لاهيا
تُلاقى خليل الله فيها ولم تكن ـ من الناس جباراً إلى النار هاويا
وقد تُدرك الانسان رحمةُ ربِّه ـ ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وفي تفسير الرازي؛ نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال في زيد بن عمرو بن نفيل:

«يبعثه الله أمة وحده».[1]

وهناك غير هؤلاء الأربعة؛ منهم: أميّة بن أبي الصلت

عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان. ويقال: أبو الحكم الثقفي. ويُقال: اسم أبي الصلت: ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف.. وأمُّ أميّة هذا هي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف.

كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف، وكان أمية أشعرهم، وأنه رغب عن عبادة الأوثان، وقرأ الكتب، وكان يُبشّر:

ألا رسول لنا منا يخبرنا ۞ ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

ويُخبر بأن نبيًّا يبعث قد أظلّ زمانه، وأنه ابن عبد المطلب وبصفته، ويردف ذلك بقوله: .. ولئن ظهر وأنا حيٌّ؛ لأطلبن من الله عزَّوجلَّ في نصره عذراً!

ولما سُئل عن رسول الله ﷺ بعد بعثته المباركة: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحقِّ! ولطاما كان يدعو الآخرين لاتباعه لو ظهر: «أما إنه حقٌّ؛ فاتبعه»! ولكنه نكص على عقبيه، وذلك لما سمع بخروج النبيِّ ﷺ وقصّته، حين قيل له: يا أمية قد خرج النبيُّ الذي كنت تنعته! كفر حسداً له!! وفي خبر لما ظهر ﷺ امتنع عن اتباعه،

---

١. السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ٢٣٠ـ٢٣٢. والهوامش ؛ بلوغ الأرب، للآلوسي ٢ : ٢٤٩ ؛ بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ١٥ : ٢٠٤ و ١٥ : ٢٢٠ رقم ٣٩ عن الخرائج ؛ تفسير مفاتيح الغيب ؛ التفسير الكبير، الرازي : النحل ١٢٣ .

فقيل له: ما يمنعك من اتباعه؟ لأنه كان يتمنى أن يكون ذلك النبيّ من ثقيف، لأنه كان يُحدّث نفسه أن يكون هو .. وذلك هو قوله لما أخبره النصرانيُّ عن النبيِّ الذي يُنتظر، وأنه رجل من العرب، وأنه من أهل بيت تحجّه العرب، وأنه من إخوانكم من قريش! فأصابني والله شيءٌ ما أصابني مثله قط. وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة. وكنتُ أرجو أن أكون إياه!

لأنه وكما يقول: ما يمنعني إلاّ الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنتُ أحدثهن أني هو، ثم يريني تابعاً لغلام من بني عبد مناف!

وفي خبر أنَّ أمية بعد أن أقام بالبحرين ثماني سنين، وتنبأ رسول الله ﷺ قدم مكة، فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، فدعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام، وقرأ عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ يَسٓ ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى فرغ منها، وثب أمية يجرُّ رجليه، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحقِّ! قالوا: فهل تتبعه؟

قال: حتى أنظر في أمره. ثم خرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام، ورجع إلى الطائف. فمات بها.

فمن تمنّعه هذا، يبدو أنَّ تبشيره بالنبيِّ ﷺ، وأنه حقٌّ يدعو لاتباعه؛ لظنّه أنه هو المقصود بالنبوّة، ولما تبيّن أنه محمد بن عبد الله ﷺ، تغيّر موقفه إلى الرفض والإنكار والكفر به. فلم ينتفع بعلم ولا بمعرفة، صحيح أنَّ العلم أمر محبوب، وطلبه والسعي إليه ممدوح، والانتفاع به ونشره بين الناس زكاة له ونماء، فإذا أُوتي بعضٌ علماً فخليق به أن يأخذ به إلى ما يُفيده في دنياه وآخرته، أن يقوده إلى الحقِّ تعالى وإلى الهدى والرشاد، إلاّ أنَّ هذا الرجل وإن ترك عبادة الأصنام، وتحنَّف، وراح يبحث عن الحقِّ، و

اتصل إليه ـ كما يقول ابن كثير ـ علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكلّ من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، فإنَّ له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

لقد كان واحداً من أسبابٍ ذكرت لنزول الآية

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.[1]

وهي جزء من مقطع قرآني يبدأ بالآية ١٧٥ وينتهي بالآية ١٧٧ وهو محل كلام المفسرين : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

فعن الواحدي وهو يذكر الآية ١٧٥ : ... نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل محمدًا ﷺ حسده وكفر به.

وعن الشيخ الطبرسي: ... وكانت قصته أنه قرأ الكتب وعلم أن الله سبحانه

---

١. الأعراف : ١٧٥ .

مُرسِل رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمداً ﷺ حسده ومرَّ على قتلى بدر، فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبيَّاً ما قتل أقرباءه!

ابن عاشور: فقيل المعنى به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وهو قول الأكثر، ذلك أن أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالباً دين الحقِّ، ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزهّد وتوخّى الحنيفية دين إبراهيم، وأخبر أن الله يبعث نبيّاً في العرب، فطمع أن يكونه، ورفض عبادة الأصنام، وحرم الخمر، وذكر في شعره أخباراً من قصص التوراة، ويروى أنه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول: كُل دين يومَ القيامة عند الله/إلاّ دين الحنيفيةُ زُورُ. وله شعر كثير في أمورٍ إلهية، فلما بعث محمد ﷺ أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب، وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان سنين ثم رجع إلى مكة فوجد البعثة، وتردد في الإسلام، ثم خرج إلى الشام ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبيِّ ﷺ حسداً، ورثى من قُتل من المشركين يومَ بدر، وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافراً. وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب، واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبيُّ ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم»، وروي عن أمية أنه قال لما مرض مرض موته: «أنا أعلم أنَّ الحنيفية حقٌّ، ولكن الشك يداخلني في محمد». فمعنى ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أنَّ الله ألهم أمية كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحقّ، ويسّر له قراءة كتب الأنبياء، وحبّب إليه الحنيفية، فلما انفتح له باب الهدى، وأشرق نور الدعوة المحمدية، كابَر وحسَد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن جميع ما يُسر له، ولم ينتفع به عند إبان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن

الهدى، فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد ﷺ.

لقد ظلَّ مناصراً لمشركي مكة ومتابعاً لأخبارهم ومواقفهم ومباركاً لها ضدَّ رسول الله ﷺ ودعوته المباركة، وله مرثاةٌ بليغةٌ طويلةٌ لقتلى المشركين في معركة بدر الكبرى بلغت ثلاثةً وثلاثين بيتاً، ذكرها ابن إسحاق، وقال ابن هشام: تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ وهذا بعض منها:

ألا بكيتُ على الكرا ـ مِ بني الكرامِ أولي المادح
كبكا الحمام على فرو ـ ع الأيك في الغصن الجوانح
يبكين حرَّى مستكيـ ـ ـناتٍ يُرحن مع الروائح
أمثالهنّ الباكيا ـ ت المعولات من النوائح
من يبكهم يبكِ على ـ حُزن ويصدق كلّ مادح
ماذا ببدر فالعقنـ ـ ـقل من مرازبة جحاجح
شُمط وشبان بها ـ ليل مغاوير وحاوح
ألا ترون لما أرى ـ ولقد أبان لكلِّ لامح؟!
أن قد تغيّر بطنُ مكـ ـ ـة فهي موحشة الأباطح
من كلِّ بطريق لبطـ ـ ـريق نقيّ الود واضح؟!

قال ابن كثير: ... حمله كثرةُ جهله وقلةُ عقله على مدح المشركين وذمِّ المؤمنين، واستوحش بمكة من أبي جهل بن هشام وأضرابه من الكفرة اللئام والجهلة الطغام، ولم يستوحش بها من عبد الله ورسوله وحبيبه وخليله فخر البشر ومَن وجهه أنور من القمر؛ ذي العلم الأكمل والعقل الأشمل..، ومن بقية أصحابه الغرّ الكرام، الذين هاجروا

من دار الكفر والجهل إلى دار العلم والإسلام...[١]

قال مؤلف الكتاب: وله أشعار كثيرة اقتصرنا على هذا منها، وكان له ولد يقال له: القاسم، وتعاطى الشعر الجيد.

وإن مات كافراً، إلاّ أنه ترك وراءه شعراً كثيراً مفعماً بمبادئ جليلة، وقيم عالية، ومعاني كبيرة، تفوح منها رائحة الحنيفية المباركة، لهذا تجدني حريصاً على نقل أشعاره لولا خوف الإطالة، وكيف لا، وقد دعت أشعاره رسول الله ﷺ ليقول كلمته الشهيرة فيه: «آمن شعره وكفر قلبهُ»!

كان ذلك حين استنشد ﷺ أخته الفارعة بنت أبي الصلت؛ وقد قدمت عليه ﷺ بعد فتح الطائف شعره قائلاً:

«هل تحفظين من شعر أخيك شَيْئًا»؟ فكان مما أنشدّته قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها، وقالوا: إنَّ أمية بن أبي الصلت، قال هذه القصيدة في أول المبعث، يذكر فيها دين الإسلام، ونبوة نبينا محمد ﷺ، وآثار قدرة الله تعالى، وما ينتهي إليه أمر الدنيا من الزوال والمعاد، وإلى الخلود في الجنة والنار، وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك على ما كان قد قرأه في الكتب المتقدمة، وكان يتوهم أنَّ نبياً سيبعث، فيكون هو ذلك، فلما بلغه خروج نبينا محمد ﷺ انقمع وحسده.

فأنشدته قصيدة طويلة جدًّا، كان منها:

لَكَ الحَمْدُ والنَّعْماءُ وَالْفَضْلُ ربَّنا ـ وَلا شَيْءَ أعْلَى مِنْكَ جَدّاً وأَمْجَدُ

---

١. انظر السيرة النبويّة، لابن هشام ٣ : ٣١ شعر أميّة بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر من قريش ؛ والبداية والنهاية، لابن كثير ٣ ؛ فصل رثاء المشركين قتلاهم يوم بدر، بتلخيص .

مَلِيكٌ على عَرْش السَّماءِ مُهَيْمِنٌ ـ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ـ ومن هو فوق العرش فرد موحدُ

وسبحان ربّي خالق النور لم يلد ـ ولم يك مولوداً بذلك أشهد

وسبحانه من كلّ إفك وباطل ـ ولا والد ذو العرش أم كيف يولد

هو الله باري الخلق والخلق كلهم ـ إماء له طوعاً جميعاً وأعبد

هو الصمد الحي الذي لم يكن له ـ من الخلق كفءٌ قد يضاهيه مضدد

وأنى يكون الخلق كالخالق الذي ـ يدوم ويبقى والخليقة تنفد؟!

ويفنى ولا يبقى سوى القاهر الذي ـ يميت ويحيي دائباً ليس يمهد

ألا أيها القلب المقيم على الهوى ـ إلى أي حين منك هذا التمرد

عن الحقِّ كالأعمى المحيط عن الهوى ـ وقد جاءك النجد النبيُّ محمد

بنور على نور من الحقِّ واضح ـ دليل على طرق الهدى ليس يخمد

من الحقد نيران العداوة بيننا ـ لئن قال ربّي للملائكة اسجدوا

لآدم لما أكمل الله خلقه ـ فخروا له طوعاً سجوداً وركد

فقال عدو الله للكبر والشقا ـ أطين على نار السموم يسود

فأخرجه العصيان من خير منزل ـ فذاك الذي في سالف الدهر يحقد

علينا ولا يألو خبالاً وحيلة ـ ليوردنا منها الذي يتورد

جحيماً تلظى لا تفتر ساعة ـ ولا الحر منها آخر الدهر يبرد

فما لك في الشيطان والناس أسوة ـ إذا ما صليت النار بل أنت أبعد

هو القائد الداعي إلى النار جاهداً ـ ليوردنا منها الذي يتورد

وما لك من عذر بطاعة فاسق ـ ولا بلظى نار عملت لها يد

ثم أنشدته قصيدته الأُخرى التي يقول فيها:

وقَفَ النَّاسُ لِلْحِسابِ جَميعاً ـ فَشَقِـــيٌّ مُعَذَّبٌ وَسَعِـــيدُ
عِنْدَ ذي الْعَرْشِ تُعْرَضُونَ عَلَيهِ ـ يَعْـلَمُ الْجَهْـرَ وَالسرارَ الخَفِيَّا
يَوْمَ يأْتِي الرَّحْمَنُ وَهْوَ رَحِيـمٌ ـ إِنـهُ كانَ وَعْـدُهُ مَأْتِيّـــــا
رَبِّ إِنْ تَعْفُ فَالْمُعافـاةُ ظَنّـي ـ أَوْ تُعَاقِبْ فَلَمْ تُعـاقِـــبْ بَرِيّا

وأما الإمام النويري، فقد ذكر ذلك مع اختلاف بسيط وزيادة هذين البيتين:

يوم آتيـه مثـل ما قال فـردا ـ ثم لا أدري راشـداً أم غويا
أسعـيداً إسعـاده أنـا أرجـو ـ أو مهانا ألقى من العذاب فريا

وفي خبر آخر أنشدته أيضاً ثلاثة عشر بيتاً، منها:

ما رغب النفس في الحياة وإن ـ تحيا قليلاً فالموت سائقها
يوشك من فـرَّ من منيـته ـ يومـاً على غرة يـوافقـها
من لم يمت غبطة يمت هرماً ـ للموت كاس والمرء ذائقها.

... قال رسول الله ﷺ: «يا فارعة كان مثل أخيك كمثل الـذي آتـاه الله آياتـه فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين».

وله قصيدة لأُميّة من ثمانية وثلاثين بيتاً، كان مطلعها:

إله محمد حقاً إلهي ـ وديني دينه غير انتحال

ومما جاء فيها:

إله العالمين وكلّ أرض ـ وربّ الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شداداً ـ بلا عمد يزين ولا دجال
وسواها وزينها بنور ـ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ في دجاها ـ مراميها أشدّ من النصال
وأنشأ المزن تدلج بالروايا ـ خلال الرعد مرسلة الغوال

ليسقي الحرث والأنعام منها ـ سجال الماء حالاً بعد حال
وشقَّ الأرض فانبجست عيوناً ـ وأنهاراً من العذب الزلال
وكلّ معمر لابدَّ يوماً ـ وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى ـ سوى الباقي المقدس ذي الجلال
وصرنا في مضاجعنا رميماً ـ إلى يوم القيامة ذي الوبال
ونادى مسمع الموتى فجئنا ـ من الأجداث كالشنن العجال
وأعطى كلّ إنسان كتاباً ـ مبيناً باليمين وبالشمال
فلا إنسان بين الناس يرجى ـ ولا رحم تمت إلى وصال
سوى التقوى ولا موت يرجى ـ سوى الربّ الرحيم من الموالي
وسيق المجرمون وهم عراة ـ إلى دار المقامع والنكال
إلى نار تحش بصم صخر ـ وما الأوصال من أهل الضلال
إذا نضجت جلودهم أعيدت ـ كما كانت وعاداً في سفال
ونادوا مالكاً ودعوا ثبوراً ـ وعجوا من سلاسلها الطوال
إذا استسقوا هناك سقوا حميماً ـ على ما في البطون من الأكال
شرابهم مع الزقوم فيها ـ ضريع يجتلي عقد الخبال
فليسوا ميتين فيستريحوا ـ وكلّهم لحرّ النار صالي
وحلَّ المتقون بدار صدق ـ وعيش ناعم تحت الظلال
ظلال بين أعناب ونخل ـ وبنيان من الفردوس عالي
لهم ما يشتهون وما تمنوا ـ من اللذات فيها والجمال
ومن إستبرق يكسون فيها ـ عطايا جمّة من ذي المعالي
وأشربة من العسل المصفى ـ ومن لبن ومن ماء السجال

وكأس لذة لا غول فيها ـ من الخمر المشعشعة الحلال

وفي الخبر لما حضرت وفاته، قال عند المعاينة من الرجز:

إن تعف يا ربّي تعف جما ـ وأي عبـد لك لا آلمـا

ومما قاله من الخفيف:

كل عيش وان تطاول دهراً ـ صـائر مـرة إلى أن يــزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ـ في تلال الجبال أرعى الوعولا

كل عيش وإن تطاول دهراً ـ صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ـ في قلال الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر ـ غولة الدهر إن للدهر غولا.[1]

ومثله : أبو عامر بن صيفي الراهب

فعن سعيد بن المسيب أنَّ الآية نزلت في أبي عامر بـن صـيفي الراهـب، واسمـه النعمان الخزرجي، وكان يلقب بالراهب في الجاهلية؛ لأنه قد تنصّر في الجاهلية، ولـبس المسوح، وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبيُّ ﷺ المدينة دخل على النبيِّ ﷺ فقال:

---

١. تفسير القرآن العظيم ؛ البداية والنهاية، لابن كثير الجزء الثاني، باب أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفـي؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية ١٧٥ـ ١٧٧ الأعراف؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، للإمام النويري باب خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا ومـا يتصـل بذلك ؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، كتاب النساء وكناهن؛ بحـار الأنـوار، العلامـة المجلسي٢٢ : ٢٥ ؛ صفايا حكم الأشعار وغيرها، باب الفاء، الفارعة بنت أبي الصلت .

«يا محمد، ما الذي جئت به؟! قال: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم! قال: فإنّي عليها! فقال النبيُّ ﷺ: لست عليها؛ لأنك أدخلت فيها ما ليس منها». فكفر، وخرج إلى مكة يحرّض المشركين على قتال النبيِّ ﷺ ويخرج معهم، إلى أن قاتل في حُنين بعد فتح مكة، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج إلى الشام، فمات هنالك.

يقول الدكتور شوقي ضيف: ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها، فقد كانوا منتشرين في القبائل، إذ تعدُّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادي، وأبا ذرٍّ الغفاري، وصرمة بن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة، وعامر بن الظرب العُدواني، وخالد بن سنان العبسي، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، وعمير بن جندب الجُهني.. ثمَّ يقول: ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام مثل عبد المطلب بن هاشم، وقيس بن عاصم التميمي، وحنظلة الراهب بن أبي عامر غسيل الملائكة. ويختم ذلك بقوله: ولا نرتاب في أنَّ صنيع هؤلاء إنما كان شكًّا في حياتهم الدينية، وكلٌّ ذلك يؤكّد أنَّ الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال، فما انبلجت أضواء الإسلام حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً.

أقول: حصل هذا بعد ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والمعاناة والجهاد ..![1]

١. السيرة النبويّة، لابن هشام٣ :٣١ شعر أميّة بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر ؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٣، فصل رثاء المشركين قتلاهم يوم بدر بتلخيص ؛ تاريخ الأدب، العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ١ : ٩٧ .

شخصيات من الحرمين الشريفين

(٤٢)

عمرو بن الحمق ـ الخُزاعيُّ الآخر

محمد سليمان

الملخّص:

يُعدُّ الفساد سلوكاً منحرفاً عن المبادئ العقديّة والقيم الأخلاقيّة ؛ يُصاب به الفرد ، والجماعة ، والأمّة ، ويترك آثاراً مدمرة على البلاد والعباد ، خاصةً إذا ابتليت به مفاصل القرار في الدولة ومؤسساتها ، وتبنته رموز وشخصيات بيدها السلطة والحكم ، فيتحول إلى ظاهرة وثقافة في الساحة ، تُطيح لا فقط بكلّ منجز، وتعبث بكلّ مرفق ،

بل تقوّض مقومات الحياة ، حين تهلك الحرث والنسل ، وتساهم في تشويه معالم الدين الحنيف ، وتُسيء إلى رموزه ومعتنقيه...!

ومن الغريب أنَّ هذا الداء أُصيبت به الساحة المسلمة في العصر الإسلامي الأول ؛ بعد عصر النبوَّة بقليل ، في مرحلة الخلافة الراشدة الثالثة وبالذات بين أمرائها ، على مسمع ومرأى الجيل الأول من المهاجرين والأنصار ، وهم للتو قد أسلموا وآمنوا وجاهدوا ، وحظوا بصحبة الرسول (ص) ونالوا قسطاً عظيماً من مبادئ الإسلام وقيمه الروحية والأخلاقية ، فما أسرع أن دبَّ الفساد في ساحتهم ، حتى صار شيئاً واضحاً محسوساً ، له رجال يدافعون عنه ، ويستبسلون في منع وردِّ كلّ من يتصدى لهذا المنكر، حتى قامت ثورة كبرى على رأسها عدد من الصحابة والتابعين ؛ لعزل الخليفة الثالث ، الذي أقلّ ما يقال عن خلافته أنها تراخت في معالجة ظاهرة الثراء الفاحش ، وأمراء السوء وتجاوزاتهم .. وخوفاً من أن تسترخي الأمّة هذه الحالة وتعتادها وتألفها من غير قلق ولا معاناة ؛ فتردى ...

المقدمة :

وحتى نعرف الدور الذي قام به كثير من الصحابة ومنهم الصحابي عمرو بن الحمق، عنوان مقالتنا هذه، وكذلك مالك الأشتر عنوان مقالتنا في العدد القادم، في الثورة على الخليفة عثمان بن عفان، تلك الثورة التي تعدُّ الأولى في العصر الإسلامي الأول، لا بدَّ لنا من عودة ولو سريعة ومختصرة لما كُتب عن الخلافة الثالثة وإمارة الشام، وتداعيات سياسة كلّ منها على الساحة بما خلقته من مظالم وتجاوزات أدّت لا فقط إلى مواقف مختلفة وأحداث مضطربة، بل إلى تنازع وقتال كلّفا الأُمّة الكثير من الضحايا...

فلقد مرَّ على الأُمّة حكمٌ سياسيّ خطير، خلّف واقعاً اجتماعيًّا مريراً، ترك آثاره

السيئة على مجمل تاريخها، ولا أبالغ إن قلتُ غيّر مجـرى التـاريخ الإسـلامي، فأوجـد مرحلةً مهّدت للعظيم من الأخطار، التي أنّت منها الأجيال وما زالت، ذلك هو الخلافـة الثالثة بالأخصِّ، وبسياستها وإدارتها غير الحكيمة، التي تركت إرثاً ألقى بثقله، وانعكس بسيّآته حتى على الواقع الاجتماعي والسياسي في عهد الخلافة الرابعة للإمام عليٍّ عليه السلام، فأوجد لها وللصالحين فيها وقبلها وبعدها متاعبَ جمّةً وأذًى وآلاماً، ومشـاكلَ خطـيرةً أبشعها حرب صفين، فضلاً عما سببه ذلك الإرث من تجاوز على مبادئ الدين الحنيـف وأحكامه ومفاهيمه ومنظومته الأخلاقية في الحكم والعطاء..

وقد كان من سياسة الخلافة الثالثة توسعتها على معاويـة حـتى منحتـه حكمـاً وسلطةً مطلقةً، فجعلت منه سلطاناً باسطاً ذراعيه ببلاد إسلاميّة واسعة، ومستحوذاً على ثروات عظيمة، وصدق إذ قال لعثمان: «... وأنت قد ملكتنا رقـاب النـاس، وجعلتنـا أوتاداً في الأرض..»! وبدل أن يشكر الله تعالى، ويحافظ على مبـادئ الإسـلام، ويقـيم موازين العدل، ويُحسن للرعية..، راح بذلك يبني منهجاً آخـر مغـايراً لـروح الإسـلام وأحكامه وأخلاقه؛ لتوطيد سيطرته، وتشييد ملكه، الذي أرسى أركانه؛ ليكـون ملكـاً عضوضاً، حتى وإن قام على سحق مبادئ الدين، وتجهيل الناس، والكيـد لمـن يـأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر والبغي والفساد، فصار يشتري الذمم، لبناء دنياه وسـلطانه، ويُغري بأموال الشام الكثيرة التي بين يديه نفوساً هنا وهناك على ما صرّح هو به:

والله لأستميلنَّ بالأموال ثقاتِ عليٍّ، ولأقسمنَّ فيهم المالَ حتى تغلب دنيايَ آخرتَه

وإلاّ عمل بأساليب أخرى؛ منها كيده الجائر لمعارضيه حتى صار (إنَّ لله جنـوداً من عسل) وهي طريقة قتل هادئة لا أثراً تترك ولا ضجيجاً يُقال؛ لافتـةً أطلقهـا هـو وصاحبه عمرو بن العاص تخلّصاً منهم، وإنهاءً لكلِّ من يأبى الانصياع لحكمه وإرادته!

يقول العقّاد: فكان شعار معاوية وأشياعه: (إنَّ لله جنوداً من العسل) هو يعني الذي يُداف بالسم؛ ليُخلي طريق النجاح من كلِّ معترض فيه ولو كان من الأصدقاء، فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن عليٍّ عليه السلام والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود ...! وقد صار عمله هذا سنّةً سيئةً اتّبعها بعده خلفاءُ الجور قتلاً للأئمة الطاهرين وإقصاءً لهم، وتشفيًّا وتنكيلاً بالصالحين وتخويفاً لآخرين ...!

وليس هذا غريباً عليه .. حقًّا ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾! فهو ابن بني أُميّة وتاريخها، الذين لم تطهر نفوسهم، ولم يخبو حقدهم، وسوء سريرتهم، وإن أُعلِنوا إسلامهم قهراً يوم فتح مكة في العشرين من شهر رمضان في العام الثامن من الهجرة النبوية الشريفة، فهم فئة تُعدُّ أقل الطلقاء فضلاً ومنزلةً ... فمعاوية في المرتبة الدنيا من الطلقاء...[١]

هكذا وباختصار كان منهج معاوية وآلياته وأهدافه، مدلل خلافة عثمان بن عفان، والمؤيَّد من قبلها، وبه تضخّمت مخالفات عثمان وبطانته، ودبَّ الفساد في مفاصل الدولة، فصارت مرتعاً للفاسدين وذوي المصالح، حتى أنكرها الكثير من الصحابة والتابعين؛ وعلى رأسهم الصحابي الجليل أبو ذرٍّ الغفاري، و الصحابي عمرو بن الحمق، وكذا مالك الأشتر، وهما من كبار رجال الثورة على الثراء بغير حقٍّ، وعلى الفساد والانحراف في الخلافة الثالثة.. وقد اخترتُهما؛ لتداخل دوريهما في الثورة؛ في مقالتين

---

١. انظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم : ٤٩٦ . وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ابن أبي الحديد ٢ : ٢٩٣ . وعنهما كتاب الغدير للشيخ الأميني : ٤٢ . وكتاب (أبو الشهداء ؛ الحسين بن عليّ) لعباس محمود العقّاد : ١٤ . كتاب الصحبة والصحابة لحسن بن فرحان المالكي : ١٩١ .

متتاليتين في هذه المجلة، وارتأيتُ لهما هذه المقدمة الموجزة، بما تحمله من قراءة دقيقة، أو استعراض سريع لتلك المرحلة التأريخيّة، بما تضمنته من منهجَي الحكم والمال، وقد أفسدت سياسة كلّ منهما كثيراً من النفوس، وأطاحت بكثير من القيم، بعدما شهدت الساحة في العصر النبوي للرسالة فترةً فريدةً رائعةً في حياة الإسلام والمسلمين...

وحتى نجمل الحديث عمّا وقع، وقد كتب عنه الكثير بأقلام عديدة، تعالوا معي لنقرأ سويّةً مختصراً لما كتبه سيد قطب عن تلك المرحلة الخطيرة في تاريخنا، بشقّيها: خلافة عثمان وسلطان بني أُميّة المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان في الشام، وأنَّ ما قاما به، أقلّ ما يُقال عنه أنه غير صائب وغير حكيم، بل والبعيد عن روح الإسلام وتشريعاته وأخلاقياته، وأنهما سبب ما أصاب الساحة المسلمة من اضطراب وفساد ودمار، حتى قامت ثورة كبرى للإصلاح ضمّت كثيراً من الصحابة والتابعين، دون أن يغفل سيد قطب عن دور الإمام عليٍّ عليه السلام في حفظ الساحة المسلمة والخلافة بمواقفه ونصائحه.. وعن خلافته ومنهج الحقّ والعدل والمساواة في إدارة سياسة الحكم وسياسة المال، وعما لاقاه من مناوئيه أذًى وشقاقاً ونزاعاً وخداعاً...

جاء كلُّ هذا في كتابيه (العدالة الاجتماعيّة في الإسلام) و (كتب وشخصيات) حتى أنه وبسبب نظراته لتلك الحقبة في كتابيه المذكورين، وقد انتصر للإمام عليٍّ عليه السلام ضدَّ مناوئيه معاوية ومن معه، وصفوه بالانحراف وبالتشيع، وهو ديدنهم في كلّ من يحقق في التاريخ، ويضع يده بإخلاص على أحداثه، وينصف أهل البيت عليهم السلام والصالحين، فجاء ردُّه عليهم واضحاً في كتابه (كتب وشخصيات) قائلاً:

وبعد، فلستُ «شيعياً» لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعياً؛ لينتصر للخُلق الفاضل المترفع عن «الوصولية» الهابطة المتدنية، ولينتصر لعليٍّ على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع

والنظافة والاستقامة.[١]

فبعد أن تحدث سيد قطب عن سياسة الحكم وعما انبثق عنها من سياسة المال خلال السنوات العشر الأولى للهجرة النبوية؛ المباركة برسول الله ﷺ مروراً بالخلافتين الأولى والثانية، تحدث عن خلافة عثمان، مُبيّناً دورها في بناء نظام حكم سياسي ومالي مُغاير لما سبقه، ترك آثاره السلبية على مجمل الساحة؛ فكان هناك تجاوز وثراء بغير حقٍّ، وضياع للحقوق والواجبات..، وعن دورها الخطير في تثبيت إمارة معاوية على الشام وتوسعة نفوذه، وبالتالي ابتعاده عن الإسلام ومبادئه في الحكم والمال وحتى في العقائد، وفيما آلت إليه هذه السياسة من أمور وأحداث كلّفت الأمّة الكثير من الأضرار والضحايا.. وكانت سبباً فيما وقع في المدينة من احتجاجات بل وثورة لإعادة الدولة ومفاصلها للإسلام ومنظومته التشريعية والأخلاقية بعيداً عن الظلم والتعالي، ورفضاً لاستئثار وتعسف بني عمومة عثمان وحاشيته ومقربيه...

سياسة الحكم وسياسة المال:

فمما قاله سيد قطب: .. فأما سياسة الحكم وسياسة المال من الوجهة الرسمية في الدولة، فقد شهد الواقع التاريخي عنهما فترة فريدة في حياة الإسلام، ولم تعمر طويلاً مع الأسف الشديد. وسنرى فيما بعد علّة هذا، لنرى إن كانت العلّة كامنة في طبيعة النظام الإسلامي في هاتين الناحيتين كما يزعم الزاعمون أم إنها الملابسات الأخرى التي

---

١. انظر كتب وشخصيات، سيد قطب : ٢٣٠ ـ ٢٤٤، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ردوده على (العناصر النفسية في سياسة العرب لشفيق جبري).

لا علاقة لها بطبيعة هذا النظام.

ولنبدأ بالحديث عن سياسة الحكم، إذ كانت سياسة المال في الواقع التاريخي تبعاً لها، وفرعاً عن تصورها... وبعد استعراض سريع لآلية وسياسة الحكم، والتي تكشف عن قاعدة الإسلام الأصيلة في الحكم كما يقول، وصل إلى التالي:

فلما جاء الأمويون، وصارت الخلافة الإسلامية ملكاً عضوضاً في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي. ويكفي أن نُثْبت هنا بعض الروايات عن الملابسات التي صاحبت البيعة ليزيد بن معاوية:

كان معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد في الشام قد كلف سعيد بن العاص أن يحتال لإقناع أهل الحجاز، فعجز، فسار معاوية إلى مكة ومعه الجند والمال. ودعا وجهاء المسلمين، فقال لهم: قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم؛ يزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه. فأجابه عبد الله بن الزبير مخيراً بين أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ إذ لم يستخلف أحداً، أو كما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل ليس من بني أبيه، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه.

فاستشاط معاوية غضباً وهو يقول: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. والتفت معاوية إلى الآخرين يسألهم: فأنتم؟ قالوا على ما قال ابن الزبير. فقال يتوعدهم: أعذر من أنذر. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة، فاقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه؛ فلا يبقين رجل إلاّ على نفسه!

فأما الذي كان بعد ذلك، فهو أن أقام صاحب حرس معاوية رجلين على رأس

كلّ وجيه من وجهاء الحجاز المعارضين، وقد قال له معاوية: إن ذهب رجل منهم يرد عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما. ثم رقي المنبر فقال: هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضي إلاّ على مشورتهم. وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد، فبايعوه على اسم الله.

فبايع الناس !!![1]

ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية، ولكن تبرئة للإسلام في ذاته نقول: إنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامي في الحكم لا تبررها حجّة، ولا يقوم لها عذر!

على هذا الأساس الذي لا يعترف به الإسلام البتة، قام ملك يزيد. فمن هو يزيد؟

هو الذي يقول فيه عبد الله بن حنظلة: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء. إنَّ رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر، ويدع الصلاة. والله لو لم يكن معي أحد من الناس؛ لأبليت الله فيه بلاء حسناً.[2]

فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد، فإنَّ تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد، من قتل للحسين عليه السلام على ذلك النحو الشنيع، إلى حصار البيت ورميه... إلخ تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيراً فيما قالوه! وأياً ما كان الأمر، فإنَّ أحداً لا يجرؤ على الزعم

---

١. انظر الكامل في التاريخ، لابن الأثير في حوادث سنة ٥٦هـ .

٢. انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي (ت ٥٩٧) ـ ٦ : ١٩ مع الهامش، رقم ٤٢٣ عبد الله بن حنظلة الغسيل. وغيره من المصادر .

بأنَّ يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة والتابعون. إنما كانت مسألة وراثة الملك في البيت الأموي. وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة في قلب الإسلام، ونظام الإسلام، واتجاه الإسلام.

وفي سبيل تبرئة الإسلام: روحه ومبادئه، من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعاً في الإسلام، نقرر هذه الحقائق؛ لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته. ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة، يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر. وعلى أيدي عثمان ومروان. وعلى يدي عليّ الإمام. ثم على يدي الملوك من أمية. ومَن بعدهم من بني العباس بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام...

الخلافة الثالثة: وبعد أن راح سيد قطب في استعراضه لتلك الصور من سياسة الحكم، وقد وصل فيه إلى الخلافة الثالثة، قال: هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئاً ما دون شك على عهد عثمان ـ وإن بقي في سياج الإسلام ـ لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير. ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام. كما أن طبيعة عثمان الرخية، وحدبه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم. فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله؛ ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين، قال مستغرباً: أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحمي؟! فردَّ الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: لا يا أمير المؤمنين. ولكن

أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ، والله لو اعطيته مئة درهم لكان كثيراً! فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له:

ألق بالمفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك!

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات؛ فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفّل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية.

ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب، فأجاب: إنَّ لي قرابةً ورحماً فأنكروا عليه وسألوه: فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟

فقال: إنَّ أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي! فقاموا عنه غاضبين يقولون: فهديهما والله أحبُّ إلينا من هديك..

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان. وفيهم معاوية الذي وسع عليه في الملك فضمَّ إليه فلسطين وحمص؛ وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليّ، وقد جمع المال والأجناد. وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله ﷺ، الذي آواه عثمان، وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرف. وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخوه من الرضاعة...

وهنا يذكر سيد قطب حركة الناس في ثورتهم: ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة؛ والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان. وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان؛ ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطإ، الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة؛ في كبرة عثمان. ولقد اجتمع الناس، فكلفوا عليّ بن أبي طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه، فدخل إليه فقال: الناس ورائي وقد كلموني فيك.

والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم؛ ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه؛ ولا خلونا بشيء فنبلغكه؛ وما خُصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره. وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحقِّ منك؛ ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك؛ وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً؛ ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا؛ ولا سبقاك إلى شيء. فالله الله في نفسك؛ فإنك والله ما تُبَصَّرُ من عمى؛ ولا تُعَلمُ من جهل؛ وإن الطريق لواضح بيّن؛ وإن أعلام الدين لقائمة. وتعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي و هَدى؛ فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة؛ فو الله إن كلا لَبيِّن؛ وإن السنن لقائمة لها أعلام؛ وإن شرَّ الناس عند الله إمام جائر ضَلَّ وضُل به ؛ فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم... فقال عثمان: قد والله علمت ليقولن الذي قلتَ. أما والله لو كنت مكاني ما عنَّفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك؛ وما جئت منكراً أن وصلت رحماً، وسددت خلة، وآويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولّي. أنشدك الله يا عليّ، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: أتعلم أن عمر ولاه؟ قال: نعم. قال: فلِمَ تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال عليٌّ: سأخبرك. إنَّ عمر كان كل من ولّى فإنما يطأ على صماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل. ضعفتَ ورفقتَ على أقربائك. قال عثمان: وأقرباؤك أيضاً! قال عليٌّ: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد ولّيته. فقال عليٌّ: أنشدك الله! هل تعلم أنَّ معاوية كان أخوف من عمر، من يرفأ غلام عمر منه؟ قال:

نعم. قال عليٌّ: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لا تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تُغير على معاوية! ...[١]

وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحقُّ بالباطل، والخير بالشرّ. ولكن لا بدّ لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام، أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام؛... واعتذارنا لعثمان: أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، فكان موقفه كما وصفه صاحبه عليٌّ بن أبي طالب:

إني إن قعدتُ في بيتي، قال: تركتني وقرابتي وحقّي؛ وإن تكلمتُ فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيقةً له يسوقه حيث شاء، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله ﷺ.[٢]

ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشيء بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كبرته، أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول. وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية، ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان (كما سيجيء) وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر شديد التبكير.

ومع كلّ ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين، تكشف عن

---

١. ذكره الطبري فيما يرويه في سنة أربع وثلاثين هجرية .

٢. انظر تاريخ الطبري ٢ : ٦٤٥ سنة ٣٤ ، و٦٦٠ سنة ٣٥ .

نقلة بعيدة جدًّا في تصور الناس للحياة والحكم، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية، إلاّ أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى.

ثمَّ يقول سيد قطب: مضى عثمان إلى رحمة ربّه، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض، وبخاصة في الشام، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية ـ إن حقاً أو باطلاً ـ أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف؛ ويعزل أصحاب رسول الله ﷺ؛ ليولي أعداء رسول الله ﷺ؛ ويبعد مثل أبي ذرٍّ؛ لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق والبر والتعفف.. فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار؛ إن حقاً وإن باطلاً، أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس. تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثماً؛ وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان.

وعن خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام، يقول:

فلما أن جاء عليٌّ عليه السلام لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة. وقد علم المستنفعون على عهد عثمان، وبخاصة من أمية، أنَّ عليًّا لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية. جاء عليٌّ؛ ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها، ويختم على جراب الشعير، ويقول:

لا أحبُّ أن يدخل بطني إلاّ ما أعلم.

وربما باع سيفه؛ ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء. جاء ليعيش كما روى عنه النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلتُ على عليٍّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته؛ وكسر يابسة.

فقلت: يا أمير المؤمنين! أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب! كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ به خفتُ ألا ألحق به!

أو كما روى عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على عليٍّ بالخورنق، وهو فصل الشتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه.

فقلت: يا أمير المؤمنين! إنَّ الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟

فقال: والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلاّ قطيفتي، التي أخرجتُها من المدينة.

وهنا يقف سيد قطب؛ الذي قال قبلُ في حقَّ الإمام عليٍّ عليه السلام: (وهذا عليّ بن أبي طالب خليفة؛ يرعد من البرد في الشتاء، وعلى جسده ثوب صيفي لا وقاء له سواه، وبيت المال في يده، تذوده عنه تلك اليقظة في الضمير، وذلك الإرهاف في الشعور).

ليقول فيه هنا أيضاً:

وما يصنع عليٌّ هذا بنفسه وأهله، وهو يجهل أنَّ الدين يبيح له فوق ما يصنع، وأنه لا يحتم التزهد والحرمان والشظف، وأنَّ حظّه من بيت المال في ذلك الحين ـ كفرد من المسلمين ـ يبلغ أضعاف ما يأخذ، وأنَّ راتبه كأمير للمؤمنين يؤدي خدمة عامة، أكبر من هذا؛ لو شاء أن يأخذ مثلما خصّصه عمر لبعض ولاته على الأقاليم، إذ قدر

لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم في الشهر له ولمساعديه، ويزاد عليها عطاؤه الذي يوزع عليه كما توزع الأعطية على نظرائه، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق؛ كما قدر لعبد الله بن مسعود مئة درهم وربع شاة؛ لتعليمه الناس بالكوفة، وقيامه على بيت المال فيها، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهماً وربع شاة في اليوم مع عطائه السنوي وهو خمسة آلاف درهم...

ما يصنع عليٌّ بنفسه ما صنع، وهو يجهل هذا كله. إنما كان يعلم أنَّ الحاكم مظنة وقدوة. مظنة التبحبح بالمال العام إذ كان تحت سلطانه؛ وقدوة الولاة والرعية في التحرج والتعفف.. وسار عليٌّ عليه السلام في طريقه؛ يرد للحكم صورته كما صاغها النبيُّ صلى الله عليه وآله..

وجد درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح قاضيه، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أبع، ولم أهب.

فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصراني: ما الدرع إلاّ درعي، وما أميرالمؤمنين عندي بكاذب!

فالتفت شريح إلى عليٍّ يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟

فضحك عليٌّ؛ وقال: أصاب شريح. ما لي بينة!

فقضى بالدرع للنصراني، أخذها ومشى، و أمير المؤمنين ينظر إليه.. إلاّ أنَّ النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أنَّ هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يديني إلى قاضيه فيقضي عليه! أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله. الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين؛ فخرجت من بعيرك الأورق.

فقال عليّ: أما إذ أسلمتَ فهي لك.[١]

ثمَّ يواصل سيد قطب كلامه عن الإمام عليٍّ قائلاً: ولقد كان منهاجه الذي شرعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له: «أيها الناس إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيّكم، ومنفذ فيكم ما أمرت به.. ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإنّ الحقَّ لا يبطله شيء؛ ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك الإماء، وفرق في البلدان لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحقُّ؛ فالجور عليه أضيق. أيها الناس .. ألا لا يقولن رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا، فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة ـ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: (حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا). ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإنّ الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله. ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله، فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده؛ فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء».

وهنا يُعقّب سيد قطب قائلاً:

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن عليٍّ، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار. فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر

---

١. عبقرية الإمام ، للأستاذ العقاد .

الآخر، معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم، على حساب العدل والحقّ اللذين يصرُّ عليهما عليٌّ عليه السلام هذا الإصرار!

موقفان: راح سيد قطب يشير إليهما صراحةً فيقول: والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً لا يرونهما في عليٍّ عليه السلام؛ ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم عليٍّ وواجبه. لقد كان واجب عليٍّ الأول والأخير، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها؛ وأن يرد إلى الدين روحه؛ وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة، لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين. إنَّ عليًّا إما أن يكون عليًّا أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو الفهم الصحيح، الذي لم يغب عنه عليه السلام وهو يقول فيما روي عنه إن صحت الرواية: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر؛ لكنت من أدهى الناس».

وأيضاً لسيد قطب كلام في كتابه (شخصيات وكتب) عن إقصاء المبدإ الأخلاقي في تعامل معاوية وصاحبه عمرو بن العاص في حربهما ضدَّ الإمام عليٍّ عليه السلام؛ جاء منه ذلك في ردّه على شفيق جبري، الذي حكم على عليٍّ عليه السلام بأنه كان يجهل النفس البشرية؛ لمجرد أنه لم يستخدم الوسائل السياسية، التي استخدمها خصماه معاوية وعمرو بن العاص، فيقول: وأبسط نظرة تكشف أنَّ هناك فارقاً كبيراً بين معرفة السلاح واستخدام هذا السلاح، فلم يكن الفرق بين عليٍّ وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها، إنما كان الفرق في حقيقته هو الرضى باستخدام كلّ سلاح، يرضاه الخلق العالي أو يأباه، فعليٌّ لم تكن تنقصه الخبرة بوسائل الغلبة، ولا بنوازع النفوس البشرية وأهوائها، ولكنه لم يكن يتدنى لاستخدام الأسلحة القذرة جميعاً. وفي ردّه على

من أشاروا عليه بتوزيع المال لرشوة الضمائر ما يكفي:

«أتأمرني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام، فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم»!

فحين قالها لم يكن جاهلاً أنَّ الناس عامة همهم حطام هذه الدنيا ولكنه كان مترفعاً عن استخدام سلاح تستقذره نفسه الكريمة، ويستخدمه خصمه بلا تحرج! وكذلك ردّه على ابن عباس حين استصوب إشارة المغيرة بن شعبة على عليٍّ عليه السلام بأن يُولي الزبير البصرة ويولي طلحة الكوفة؛ ليدل على هذا، فلقد قال:

«ولو كنت مستخدماً أحداً لضره ونفعه، لاستعملتُ معاوية على الشام». فهو إذن لم يكن يجهل ما يضرّ وما ينفع، ولكنه كان يأبى ويترفع!

ويواصل سيد قطب كلامه ليقول: إنَّ معاوية وزميله عمراً (عمرو بن العاص) لم يغلبا عليًّا؛ لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب. ولكن لأنهما طليقان في استخدام كلِّ سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميله عمرو إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك عليٌّ عليه السلام أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل، فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كلِّ نجاح.

على أنَّ غلبة معاوية على عليٍّ عليه السلام كانت لأسباب أكبر من الرجلين: كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه. كان مدّ الروح الإسلامى العالى قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي عليٌّ في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهى هزيمة أشرف من كلِّ انتصار.

وعن خديعة رفع المصاحف، التي قال شفيق جبري عنها: .. وعلى كلِّ حال،

فإنَّ هذه الخديعة، التي أوحى إلى صاحبها بها علمُ النفس، كان فيها حقن دماء المسلمين، وخديعة فيها منتهى حرب ومنتهى دماء، إنما هي خديعة خير. جاء ردّ سيد قطب عليه قائلاً: من هذا التعليق، ومن إشادته بمعاوية في كلّ موضع، نحسُّ شديد إعجابه بسياسة معاوية، وقد عرفنا من قبل رأيه في ترفع عليٍّ عليه السلام. ونحن نأخذ على المؤلف هذا الاتجاه الخطير. فما كانت خديعة المصاحف ولا سواها خديعة خير؛ لأنها هزمت عليًّا ونصرت معاوية، لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام، التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدّر لعليٍّ أن ينتصر؛ لكان انتصاره فوزاً لروح الإسلام الحقيقية: الروح الخلقية العادلة المترفعة، التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال؛ ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضي عليها، فلم تقم لها قائمة بعد ـ إلاّ سنوات على يد عمر بن عبد العزيز ـ ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. لقد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت وهزمت، بل انطفأت. فإن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية الحقيقية في مهدها، وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية وخلقية لا شك فيها. على أننا لسنا في حاجة يوماً من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهي جزء من طبائع الناس عامة، إنما نحن بحاجة إلى خطة عليٍّ عليه السلام، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يجهد الكثيرين أن ينالوه. ثم أردف قائلاً: وإذا احتاج جيل لأن يدعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم. فروح «مكيافيلي» التي سيطرت على معاوية قبل مكيافيلي بقرون، هي التي تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها! لأنها روح «النفعية» التي تظلل الأفراد والجماعات والأمم والحكومات!

وهنا يأتي ردُّه الذي ذكرناه أعلاه على الذين وصفوه بالتشيع، بعد أن ملأت قراءتُه هذه المتّصفة بدقة وانتصار للحقِّ قلوبَهم غيظاً؛ حيث قال: وبعد، فلستُ (شيعياً) لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعياً؛ لينتصر للخُلق الفاضل المترفع عن (الوصولية) الهابطة المتدنية، ولينتصر لعليٍّ عليه السلام على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة.[1]

ويقول سيد قطب: ومضى عليٌّ عليه السلام إلى رحمة ربّه! وجاء بنو أمية، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، كانت تقف حاجزاً أمام أمية، لقد انهار هذا الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف.

ولا تغيب عن ذهن سيد قطب خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح ساقها دليلاً وإبرازاً لمظاهر التحول والانحسار، التي أصابت الروح الإسلامي في الحكم:

فهذه خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، التي يقول فيها: يا أهل الكوفة! أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، قد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم؛ وقد آتاني الله ذلك، وأنتم كارهون. ألا إنّ كلّ مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكلّ شرط شرطته، فتحت قدمي هاتين. وهذه خطبته كذلك في أهل المدينة: أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة؛ ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً؛ وأردتها على سنيات عثمان، فأبت عليَّ؛ فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة

---

١ . انظر كتاب شخصيات وكتب : ٢٣٩ ـ ٢٤٤) .

حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية...

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال. ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية؛ لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل؛ ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار؛ غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملقين؛ وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشيتها رسوم؛ وانقلبت الخلافة ملكاً، وملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول الله ﷺ في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق. وعدنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملهين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد من ملوك العباسيين إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلاً نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلاّ فترة بين الحين والحين .. وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائياً من دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام؛ هذا عن سياسة الحكم.

سياسة المال:

وأما عن سياسة المال، فيقول سيد قطب: فأما سياسة المال، فكانت تبعاً لسياسة الحكم، وفرعاً عن تصور الحكّام لطبيعة الحكم وطريقته، ولحق الراعي و الرعية. فأما في حياة محمد ﷺ وصاحبيه، وفي خلافة عليّبن أبي طالب عليه السلام، فكانت النظرة السائدة هي النظرة الإسلامية: وهي أنّ المال العام مال الجماعة؛ ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئاً إلاّ بحقه؛ ولا أن يعطي أحداً منه إلاّ بقدر ما يستحق، شأنه شأن الآخرين. وأما حين انحرف هذا التصور قليلاً في عهد عثمان، فقد بقيت للناس حقوقهم؛ وفهم الخليفة أنه في حل ـ وقد اتسع المال عن المقررات للناس ـ أن يطلق فيه

يده يبرُّ أهله ومن يرى من غيرهم حسب تقديره. وأما حين صار الحكم إلى الملك العضوض، فقد انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح، بالحقّ في أحيان قليلة، وبالباطل في سائر الأحيان. واتسع مال المسلمين لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم إلى غير حدٍّ، وخرج الحكّام بذلك نهائياً من كلّ حدود الإسلام في المال.. هذه صورة مجملة نعرض لها نماذج نفصلها من وقائع التاريخ. كانت موارد بيت المال منذ أيام الرسول ﷺ هي...

وبعد أن راح يعددها، ويتحدث عن سياسة المال في عهد رسول الله ﷺ والخليفة الأول، ولما يصل إلى الثاني نرى سيد قطب يتوجّع ويتأسّف؛ لخطورة ما فعله عمر من التفرقة في العطاء... فيقول: ولكن وا أسفاه! لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر، ووقعت النتائج المؤلمة التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة، بما أضيف إليها من تصرف مروان وإقرار عثمان!

ثمَّ يواصل كلامه قائلاً: رجع عمر إذن عن رأيه في التفرقة بين المسلمين في العطاء، حينما رأى نتائجه الخطرة، إلى رأي أبي بكر. وكذلك جاء رأي عليٍّ عليه السلام مطابقاً لرأي الخليفة الأول ـ ونحن نميل إلى اعتبار خلافة عليٍّ عليه السلام امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله، وأنّ عهد عثمان الذي تحكم فيه مروان كان فجوة بينهما ـ لذلك نتابع الحديث عن عهد عليٍّ عليه السلام، ثم نعود للحديث عن الحالة في أيام عثمان.

اختار عليٌّ عليه السلام مبدأ المساواة في العطاء، وقد نصَّ عليه في خطبته الأولى حيث قال: «**ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أنّ الفضل له على سواه بصحبته، فإنّ الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله. ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله، فصدق ملتنا ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية؛**

ولا فضل فيه لأحد على أحد؛ وللمتقين عند الله أحسن الجزاء».

وعن هذه الخطبة للإمام يقول سيد قطب: هذا هو المبدأ الإسلامي السليم الذي يتفق مع روح المساواة الإسلامية؛ ويكفل للمجتمع الإسلامي التوازن، فلا يدع الثروات تتضخم إلاّ بقدر الجهد والعمل وحدهما، لا بفضل إتاحة فرصة لا تتاح للآخرين، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين...

فلما جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا في الأرض. ولم يبح لهم هذا وحده بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم، بعدما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف.

لقد كان ذلك كلّه برًّا ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة. ولكنه أنشأ خطراً عظيماً لم يكن خافياً على فطنة أبي بكر، وفطنة عمر بعده. أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة تأتيها أرزاقها من كلّ مكان دون كد ولا تعب؛ فكان الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان، وحرصاً على ألا يتيحياه.

وعن الصحابي الجليل أبي ذرٍّ الغفاري، يقول سيد قطب: عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدهم حرارةً وثورةً أبوذر. **(ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلاّ أن تخطئه في اتجاهه؛ وإلاّ أن تزعم لنفسها بصراً بالدين أكثر من بصره بدينه! ثم عادت ـ في مناسبة أخرى ـ فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه، عندما تغيرت الظروف الأولى! كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات!)** قام أبوذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام؛ وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر الترف، وتستزيد منه وتتمرغ فيه؛ وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف، فيزيد في

ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أنّ عثمان أعطى مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية، والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف... وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئاً من هذا كلّه. فانطلق يخطب في الناس: «لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى .. يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. يا كانز المال اعلم أنّ في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شركها من هلاك أو موت؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن .. إنّ الله عزَّوجلَّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. اتخذتم ستور الحرير، ونضائد الديباج؛ وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربي، وكان رسول الله ﷺ ينام على الحصير؛ واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله ﷺ لا يشبع من خبز الشعير».

وروى مالك بن عبدالله الزيادي عن أبي ذر: أنه جاء يستأذن عثمان بن عفان، فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان: يا كعب، إنّ عبدالرحمن توفى وترك مالاً، فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحبّ لو أنّ لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني، أذر خلفي منه ست أواق». أنشدك الله يا عثمان أسمعته ـ ثلاث مرات ـ قال نعم ... وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم؛ فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى «الربذة» منفياً من الأرض في غير

حرب الله ورسوله، وفي غير سعي في الأرض بالفساد كما تقول شريعة الإسلام! لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدره الأطماع، أمام تضخم فاحش في الثروات، يفرق الجماعة الإسلامية طبقات، ويحطم الأسس التي جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس.

وأما عن الثروات!! فيقول سيد قطب: وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام أورده المسعودي، قال: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثُمْن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كلّ يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، ...[١]

التفرقة في العطاء!

ولا يفوت سيد قطب أن يشير هنا إلى خطورة سياسة التفرقة في العطاء، التي انتهجها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث يعيد سياسة التوسعة وهذا الثراء إلى جذرها الأول، إلى نهج التفضيل، الذي اتبعه في العطاء، فيقول: هذا هو الثراء الذي بدأ صغيراً بإيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء في أيام عمر ـ ذلك الإيثار الذي كان معتزماً إبطاله وتلافي آثاره لولا أن عاجلته الطعنة ... ـ ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه،

١. عن كتاب عثمان، للأستاذ صادق عرجون ؛ مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦) : ٣٤١ ـ ٣٤٣ .. هذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ...

فضلاً على العطايا والهبات والقطائع. ثم فشا فشواً ذريعاً بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال، بما أباحه عثمان من شراء الأرضين في الأقاليم وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة؛ وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر؛ وكانت جديرة لو بلغت غايتها، ولو وجدت من الإمام استماعاً لها، وأن تعدل الأوضاع، وأن تحقق ما أراده عمر في أواخر أيامه من رد فضول الأغنياء على الفقراء، بما يبيحه له سلطان الإمامة لدفع الضرر عن الأمة، بل بما يحتمه عليه تحقيقاً لمصلحة الجماعة. وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت في جانب، كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر حتماً، وكانت النقمة والسخط كذلك. وما لبث هذا كله أن تجمع وتضخم، لينبعث فتنة هائجة، يستغلها أعداء الإسلام، فتودي في النهاية بعثمان وتؤدي معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها؛ وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخب أواره حتى كان قد غشى بدخانه على روح الإسلام، وأسلم الأمة إلى ملك عضوض.

وغضِب أهلُ المصالح! وعن هؤلاء يقول سيد قطب: لذلك لم يكن غريباً أن يغضب أصحاب الأموال، والمستنفعون من تفاوت الحظوظ في العطاء، على سياسة المساواة والعدالة التي اعتزمها عليٌّ عليه السلام بعد عثمان؛ وأن يتظاهروا بأنهم إنما ينصحون بالعدول عن هذه السياسة خوفاً عليه من الانتقاض، فما كان جوابه إلاّ أن يستلهم روح الإسلام في ضميره القوي فيقول: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ لو كان هذا المال لي لسويت بينهم؛ فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف؛ وهو يرفع صاحبه في الدنيا؛ ويضعه في الآخرة».

وأختم هذا الموجز بما ذكره بعده سيد قطب حيث قال: فأما بنو أمية فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرى.. ففي أيام بني أمية ثم في أيام بني العباس من بعدهم، كان بيت المال مباحاً للملوك كأنه ملك لهم خاص .. وكم عدا من يسمون خلفاء من الملوك

على أموال المسلمين العامة، وكم بعدت سياسة المال عن أصول الإسلام، وكم ارتفع الثراء والترف في جانب والبؤس والشقاء في جانب، وكم اختل المجتمع الإسلامي نتيجة بعده عن النهج الإسلامي، وتنكره للمبادئ الإسلامية. من النكسة التي أصابته في مطلع عهده، على أيدي بني أمية...

ولكن الواقع التاريخي للإسلام ـ على الرغم من هذا كله ـ استطاع أن يقرر عدة مبادئ أساسية في «سياسة المال» وأن يحقق الكثير من نظريات الإسلام ومبادئه على الرغم من النكسة، التي أصابته في مطلع عهده، وعلى أيدي بني أُميّة ...

۞ ۞ ۞

فبعد هذه المقدمة، التي تبيّن لنا أسباب الثورة ضدّ الفساد والثراء الفاحش في الخلافة الثالثة وإمارة الشام، وقد تحدث عنها عددٌ، اكتفينا منهم بسيد قطب، وقد حمل مسؤولية الثورة الكثير من الصحابة، ومنهم الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي، فهو من قبيلة خزاعة، والتي تعرض ذكرها في العدد ٤٧ من هذه المجلة ، حيث كانت في تلك المجلة مقالتان: الأولى عن الأصنام، وامتدّت إلى العدد ٤٨ ، والثانية تحت عنوان (خُزاعيّون) والمقالتان تضمنتا حديثاً مختصراً عن خُزاعة؛ عن وجودها الطويل الضارب في عمق التاريخ والمؤثر فيه عبر دورها الاجتماعي، وعن إسلامها، و شخصيّات منها، ونُلحق أولئك بخُزاعيٍّ آخر إن لم يساوهم بالفضل، فهو لا يقلُّ عنهم منزلةً وسيرةً في الإسلام، وفيما قدموه من مواقف مُلئت قوّةً وصلابةً، وحفظاً للقيم والمبادئ التي آمنوا بها حين أعلنوا الشهادتين بصدق وإخلاص..

إنه **عمرو بن الحَمِق الخُزاعيّ** بن كاهل، ويقال: الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القَين بن رزاح بن عمرو بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو لُحَيٌّ بن حارثة بن

عمرو بن تمام أو عامر بن حارثة الخزاعي الكعبي. أو... ابن كعب بن عمرو بن ربيعة الخُزاعيّ. فهو من خُزاعة عند أكثرهم، ومنهم من ينسبُه، فيقول: هو عمرو بن الحَمق، والحَمق هو سعد بن كعب. وقد ذكروا أنَّ للحمق معاني عديدة منها: الحَمِق من حَمِقَ، حَمِقَ فلانٌ يَحمَقَ حَمَقاً: خَفَّت لحيتُه، فهو حَمِقٌ. والحَمِقُ، ككَتِفٍ: الخَفِيفُ اللِّحْيَةِ عن ابنِ دُرَيْدٍ، وبه سُمِّيَ الرّجُل. حَمِقَ الرَّجُلُ: خَفَّتْ لِحْيَتُهُ. وشَابٌّ حَمِقٌ: خَفِيفُ اللِّحْيَةِ فالحَمِقُ بفتح أوله وكسر الميم بعدها قاف: الخفيف اللحية؛ وبه سمّي عمرو بن الحَمِق رضي الله عنه...[١]

وجدّه من أبيه عرف بأنه كان كاهناً، له مكانته الاجتماعية وكلمته التي يفصل بها بين المتنازعين..

وأما عن ولادة عمرو بن الحمق، فيُقال: إنَّ ولادته كانت قبل الهجرة النبوية الشريفة بأكثر من ثلاثين سنة...[٢]

---

١. انظر المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى ورفاقه ؛ لسان العرب، لابن منظور ٤ : حمق ؛ المعجم الغني (حَمِق)، الغني ـ عبدالغني أبوالعزم الرائد ـ جبران مسعود ؛ تاج العروس، للزبيدي: حمق ؛ إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ومؤلفه: مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين (المتوفى: ٧٦٢هـ). المحقق: أبوعبدالرحمن عادل بن محمد ـ أبو محمد أسامة بن إبراهيم. الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ١٠ رقم ٤٠٨٢ عن كتاب «ليس» لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني (ت. ٣٧٠ هـ) .

٢. انظر الإصابة، رقم : ٥٨٣٤ ؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣ : ٢٥٧ ؛ طبقات خليفة ١ : ٢٣٠ رقم ٩٤٠ .

إسلامه وهجرته :

يكفيه أنه ممن حظي بمدرسة الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ فما إن وفق لها حتى كان بصيراً بها واعياً لقيمها متمسكاً بها؛ ومنذ أن نطقت شفتاه شهادتي الإسلام بعد أن صدّق بهما قلبُه قبل فتح مكة المكرمة، أو عام حجّة الوداع والأول أصحُّ كما ذكروا، فيما ذُكر في الإصابة ... عن ابن إسحاق ما يقتضي أنّ عمرو بن الحمق شهد بدراً، ووقعة بدر كانت في السابع عشر من رمضان في العام الثاني من الهجرة، وهذا القول إن صحَّ، فإنَّ إسلام هذا الصحابي سبق فتح مكة، الذي وقع في العشرين من رمضان في العام الثامن للهجرة، فضلاً عن عام حجّة الوداع في العام العاشر للهجرة.

وكان ذلك في شبابه، ولعلَّ عمره كان خمسة وعشرين عاماً أو يقرب من ذلك. وكان هذا الصحابي مقرَّبًا للرسول ﷺ وقد سقى النبيَّ ﷺ في أحد الأيام لبناً، أو شربة ماء، فنال دعاءه، فعن عمرو بن الحمق أنه سقى النبيَّ ﷺ فقال: «**متّعه بشبابه**» أو «**اللهمَّ أمتعه بشبابه**». فبقي ثمانين سنة لا تُرى، أو لم تُرَ في لحيته شعرة بيضاء ...

وقال أحدهم: يعني أنه استكمل الثمانين، لا أنه عاش بعد ذلك ثمانين.

لم يشِب رأسُ عمرو حتى وهو في الثمانين، وقيل في التسعين، حين ختمت حياته قتيلاً بأيدي القاسطين، وقد رفعوا رأسه، الذي حظي بدعاء وبركة رسول الله ﷺ على رمح يُطاف به في البلدان والأزقة، فعُدَّ أول رأس يُطاف به في الإسلام، وكأنه يحكي للملإ من حوله وللناس جميعاً تجاوز الظالمين وبغي المفسدين! كما يأتينا.

وأما عن هجرته إلى المدينة، فكما اختلفت أقوالهم في وقت إسلامه، فكذا في وقت هجرته، مع الاتفاق على أنه كان قد هاجر بعد إسلامه إلى المدينة، فحظي بوسام الهجرة المباركة لرسول الله ﷺ ففي قول: ما إنَّ تمَّ صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من

العام السادس الهجري، وكان من بنوده (فمن أحبَّ من القبائل أن يتحالف مع النبيِّ ﷺ، فليتحالف) حتى التحق كثير من قبيلة خُزاعة برسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة، وكان منهم عمرو بن الحمق الخُزاعي ..

وفي الإصابة: أخرج الطّبرانيّ من طريق صخر بن الحكم، عن عمّه، عن عمرو بن الحمق، قال: هاجرت إلى النبيِّ ﷺ، فبينما أنا عنده، فذكر قصة في فضل عليٍّ. وسنده ضعيف.

ولتكون المدينة مكان إسلامه، ودار هجرته، وقد ذكرت قبل أو قبيل إسلامه وهجرته أخبار عديدة تبيّن أنَّ له فضائل ومكانةً كبيرة؛ وتحمل أكثر من بشارة نبويّة له، منها: .. عن مَعْمَر، عن قتادة، قال: كان النبيُّ ﷺ جالسًا في أصحابه يومًا، فقال: «**اللّهمَّ أنْج أصحاب السَّفينة**»، ثمَّ مكث ساعةً، فقال: «**قد اسْتمرت**»، فلمَّا دنوا من المدينة، قال: «**قد جاءُوا يقودهم رجل صالح**»، والذين كانوا في السفينة الأشعريون كانوا أربعين رجلاً، والذي قادهم عمرو ابن الحمق الخزاعي. قال: قال النبيُّ ﷺ: «**من أين جئتم**»؟ قالوا: من زبيد. قال النبيُّ ﷺ: «**بارك الله في زبيد**». قالوا: وفي رمع! قال: «**بارك الله في زبيد**». قالوا: وفي رمع يا رسول الله! فقال في الثالثة: «**وفي رمع**».

ومنها: أنه: لما بعث رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة في بعثة، قال لهم: إنكم ستلقون رجلاً صبيح الوجه، يطعمكم من الطعام، ويسقيكم من الشراب، ويهديكم الطريق، هو من أهل الجنّة.

فأقبلوا حتَّى انتهوا إلى عمرو بن الحمق الخزاعيّ، فأمر فتيانه، فنحروا جزوراً، وحلبوا من اللبن، فبات القوم يطعمون من اللحم ما شاؤوا، ويسقون من اللبن ثم أصبحوا، فقال لهم: ما أنتم بمنطلقين حتى تطعموا أو تزودوا، فقام رجلٌ منهم وضحك إلى صاحبه، فقال عمرو: ولم ضحكت؟

فقال: أبشر ببشرى الله ورسوله! فقال عمرو: وما ذاك؟ فقال: بعثنا رسول الله ﷺ في هذا الفج، وأخبرناه أنه ليس لنا زاد ولا هداية الطريق، فقال: ستلقون رجلاً صبيح الوجه يطعمكم الطعام، ويسقيكم من الشراب، ويدلّكم على الطريق، هو من أهل الجنة، فلم نلق مَن يوافق نعت رسول الله النبيّ ﷺ غيرك، فركب عمرو بن الحمق معهم، وأرشدهم على الطريق، ثم سار عمرو بن الحمق إلى رسول الله ﷺ حتى بايعه وأسلم، وكان إسلامه بعد الحُدَيبية، وشارك مع رسول الله ﷺ في غزواته.

ومنها أنَّ رسول الله ﷺ أرسل سرية، فقال لهم: «إنكم تضلون ساعة كذا من الليل، فخذوا ذات اليسار، فإنكم تمرون برجل فاضل خير في شأنه فتسترشدونه، فيأبى أن يرشدكم حتى تصيبوا من طعامه، فيذبح لكم كبشاً فيطعمكم، ثم يقوم فيرشدكم، فاقرأوه مني السلام، وأعلموه أني قد ظهرت بالمدينة». فمضوا فضلوا الطريق، فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله ﷺ تياسروا؟ ففعلوا، فمروا بالرجل الذي قال لهم رسول الله ﷺ، فاسترشدوه، فقال لهم الرجل: لا أفعل حتى تصيبوا من طعامي، ففعلوا، فأرشدهم الطريق ونسوا أن يقرأوه السلام من رسول الله ﷺ فقال لهم الرجل ـ وهو عمرو بن الحمق رضي الله عنه ـ: أظهر النبيُّ عليه السلام بالمدينة؟

فقالوا: نعم، فلحق به ولبث معه ما شاء الله، ثم قال له رسول الله ﷺ: «إرجع إلى الموضع الذي منه هاجرت، فإذا تولّى أميرُالمؤمنين عليه السلام فأته، فانصرف الرجل، حتى إذا تولّى أميرُ المؤمنين عليه السلام الكوفةَ، أتاه وقام معه بالكوفة ...

إذن، فإنَّ مما لا شك فيه أنَّ الرجل، وعلى ضوء هذه الأخبار، كان من الأولياء الصالحين، وأنه أسلم في حياة رسول الله ﷺ ونال صحبته وكان من المهاجرين.

وهجرته إلى الله ورسوله معروفة، ومكانه منه ﷺ مشهور، ومدحه ﷺ له

مذكور

هكذا وصف الشيخ المفيد رحمه الله تعالى هجرةَ هذا الصحابي ومكانته من رسول الله ﷺ ومدح الرسول ﷺ له! وعلى قول كان من البدريين، إذا ما أخذنا بما جاء في الإصابة: وقع في «الكنى» للحاكم أبي أحمد في ترجمة أبي داود المازني، من طريق الأموي، عن ابن إسحاق ما يقتضي أنّ عمرو بن الحمق شهد بدراً.[١]

خلاصة ما ذكره بعض علماء الرجال:

فمن أهل السنة؛ أنه سقى النبيَّ ﷺ لبناً، فقال: «اللهم أمتعه بشبابه»، فمرت به ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء .. أنه بايع النبيَّ ﷺ في حجة الوداع، وصحبه بعد ذلك، وروى عنه، وسكن الكوفة، ثمَّ انتقل إلى مصر، وأنه أحد من ألب على عثمان. وكان من شيعة عليٍّ عليه السلام، وشهد معه مشاهده. وكان يوم صفين على خُزاعة، ولما قدم زياد الكوفة أثاره عُمارة بن عُقبة بن أبي معيط، فقال: إنَّ عمرو بن الحمق من شيعة عليٍّ عليه السلام، فسيَّر إليه يقول: ما هذه الزرافات التي تجتمع عندك؟! من أرادك أو أردت

---

١. انظر الإصابة، لابن حجر العسقلاني رقم : ٥٨٣٤ ؛ وأسد الغابة، لابن الأثير : عمرو بن الحمق ؛ وتاريخ دمشق، لابن عساكر ٤٥ : رقم ٥٣٣١ . وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، فضائل أهل اليمن ؛ رقم ١٤٢٤ ؛ المصنف، لعبد الرزاق رقم ١٩٨٩١ ؛ ورواه أيضاً البيهقي في الدلائل ٦ : ٢٩٨ ؛ تاريخ دمشق ٤٥ رقم ٥٣٣١ وفيه (زَمْع) لا (رَمْع) و(زَمْع) وفي الهامش: من منازل حمير باليمن ؛ معجم ما استعجم ١: ٧٠٢ ولم يذكره ياقوت ؛ معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي ١٤ : ٩٨ رقم ٨٩٠٢ عن رجال الكشي ؛ كتاب الجمل، للشيخ المفيد، تحقيق السيد علي شريفي : ١٠٤ .

كلامه ففي المسجد.. تطلّب زياد رؤساء أصحاب حجر، فخرج عمرو إلى الموصل هو ورفاعة بن شداد... وبعد أن عثروا عليه، كتب لهم معاوية بقتله، فقتل في الموصل سنة إحدى وخمسين، وكان رأسه أول رأس أهدي في الإسلام إلى معاوية...[1]

هذا مختصر ما ذكروه، وأما عند الإمامية، فقد ذكروا أنَّ الشيخ الطوسي عدّه من أصحاب عليٍّ عليه السلام ومن أصحاب الحسن عليه السلام. فيما عدَّه البرقي من شرطة الخميس من أصحاب عليٍّ عليه السلام .. وهكذا عدّه غيرهم من أصفياء أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن خواصه ومن الذين رجعوا إليه. وذكروا أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام جعله في حرب الجمل، وفي حرب صفين على الكمين .. وأنَّ ابن شهر آشوب روى عن كتاب فضائل الصحابة، أنَّ عليًّا عليه السلام قال: «**أسلمت قبل الناس بسبع سنين**»، وعن تاريخ بغداد وعدة كتب أخر، عن حبة العرني، أنه قال: بعث النبيُّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين، وأسلمت يوم الثلاثاء، ثم قال: وقد روى وجوه الصحابة، وخيار التابعين، وأكثر المحدثين ذلك، وعدَّ منهم عمرو بن الحمق..

وقال الكشي: جبرئيل بن أحمد الفاريابي، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن مهران، عن الحسن بن محبوب، عن أبي القاسم ـ وهو معاوية بن عمار إن شاء الله ـ رفعه، قال: أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله سرية، فقال لهم: «إنكم تضلون ساعة كذا من الليل، فخذوا ذات اليسار فإنكم تمرون برجل [فاضل خير] في شأنه فتسترشدونه فيأبى أن يرشدكم حتى تصيبوا من طعامه، فيذبح لكم كبشا فيطعمكم، ثم يقوم فيرشدكم، فاقرأوه

---

١. تهذيب الكمال، للمزي (ت٧٤٢ هجرية)٢١ : ٥٩٦ رقم ٤٣٥٣ ؛ تاريخ الإسلام، للذهبي (ت ٧٤٨هجرية) ٢ : ٤٢٤ رقم ٤٩ .

مني السلام وأعلموه أني قد ظهرت بالمدينة»، فمضوا، فضلوا الطريق، فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله ﷺ تياسروا؟ ففعلوا، فمروا بالرجل الذي قال لهم ﷺ، فاسترشدوه، فقال لهم الرجل: لا أفعل حتى تصيبوا من طعامي، ففعلوا، فأرشدهم الطريق ونسوا أن يقرأوه السلام من رسول الله ﷺ، قال: فقال لهم الرجل ـ وهو عمرو بن الحمق رضي الله عنه ـ: أظهر النبي عليه السلام بالمدينة؟ فقالوا: نعم، فلحق به ولبث معه ما شاء الله، ثم قال له رسول الله ﷺ: «إرجع إلى الموضع الذي منه هاجرت، فإذا تولى أمير المؤمنين عليه السلام فأته، فانصرف الرجل، حتى إذا تولى أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة، أتاه وقام معه بالكوفة، ثم إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال له: «ألك دار؟ قال: نعم، قال: بعها، واجعلها في الأزد، فإني غدا لو غبت لطلبت، فتمنعك الأزد حتى تخرج من الكوفة متوجهاً إلى حصن الموصل، فتمر برجل مقعد فتقعد عنده ثم تستسقيه، فيسقيك، ويسألك عن شأنك فأخبره وادعه إلى الإسلام فإنه يسلم، وامسح بيدك على وركيه، فإن الله يمسح ما به وينهض قائماً فيتبعك، وتمر برجل أعمى على ظهر الطريق فتستقيه، فيسقيك ويسألك عن شأنك، فأخبره وادعه إلى الإسلام فإنه يسلم، وامسح يدك على عينيه، فإنَّ الله عزَّوجلَّ يعيده بصيراً فيتبعك، وهما يواريان بدنك في التراب، ثم يتبعك الخيل، فإذا صرت قريباً من الحصن في موضع كذا وكذا، رهقتك الخيل فأنزل عن فرسك ومر إلى الغار، فإنه يشترك في دمك فسقة من الجن والإنس».

ففعل ما قال أمير المؤمنين عليه السلام، قال: فلما إنتهى إلى الحصن، قال للرجلين: إصعدوا فانظروا هل تريان شيئاً؟ قالا: نرى خيلاً مقبلة، فنزل عن فرسه ودخل الغار وعار فرسه، فلما دخل الغار ضربه أسود سالخ فيه. وجاءت الخيل، فلما رأوا فرسه عائراً قالوا: هذا فرسه وهو قريب، فطلبه الرجال فأصابوه في الغار، فكلما ضربوا أيديهم إلى شيء من جسمه تبعهم اللحم، فأتوا به معاوية فنصبه على رمح، وهو أول

رأس نصب في الاسلام.

ثم إنَّ الكشي ذكر بعد ذلك كتاباً للحسين عليه السلام إلى معاوية، وفيه قوله عليه السلام: «أو **لستَ قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه واصفر لونه بعدما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلتَه جرأة على ربِّك واستخفافاً بذلك العهد..**»؟!

وقال الشيخ المفيد: حدثنا جعفر بن الحسين، عن محمد بن جعفر المؤدب: الأركان الأربعة سلمان، والمقداد، وأبو ذر، وعمار، هؤلاء الصحابة، ومن التابعين أويس بن أنيس القرني الذي يشفع في مثل ربيعة، ومضر، وعمرو بن الحمق الخزاعي. وذكر جعفر بن الحسين أنه كان من أمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة سلمان من رسول الله صلى الله عليه وآله.

.. عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه، رفعه قال: قال عمرو بن الحمق الخزاعي لأميرالمؤمنين عليه السلام: والله ما جئتك لمال من الدنيا (تعطينيها)، ولا لالتماس سلطان ترفع به ذكري، إلاّ لأنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأولى الناس بالناس، وزوج فاطمة سيدة نساء العالمين، وأبو الذرية التي بقيت لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأعظم سهما للإسلام من المهاجرين والأنصار.. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم نوّر قلبه باليقين، واهده إلى الصراط المستقيم، ليت في شيعتي مائة مثلك»؛ وذكر في هذه الترجمة، ذيل الحديث المذكور، كتاب معاوية إليه يدعوه إلى بيعته، وأعطى له الأمان، وأنّ عمرو بن الحمق لم يجبه إلى ذلك، وذكر قصة بعث معاوية برأس عمرو بن الحمق إلى زوجته وما قالت هي في ذلك حتى طلبها معاوية فتكلمت معه فألقمته حجراً ..

وبعد أن ذكر السيد الخوئي ذلك، قال: إنَّ ما تقدم من الروايات وإن كانت كلها

ضعيفة السند، إلاّ أنها مستفيضة، على أنّ جلالة عمرو بن الحمق من الواضحات التي لا يعتريها شك، مضافاً إلى أنّ شهادة البرقي على أنه كان من شرطة الخميس فيها كفاية.[١]

وأقول: لا أدري كيف عدَّه الشيخ المفيد من التابعين في كتابه (الاختصاص :٧)، وقد عدّه في كتابه كتابه الجمل: ١٠٢، رقم ١٥ تحت عنوان (بيعة المهاجرين) للإمام عليٍّ عليه السلام واحداً من المهاجرين، وقال عنه: وهجرته إلى الله ورسوله معروفة، ومكانه منه صلى الله عليه وآله مشهور...؟! ولم يُنبه السيد الخوئي ولا محققو الاختصاص على هذا، فيما اجتمعت الكلمة على أنه من الصحابة.

رواياته :

من بركات صحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله أن حفظ عنه أحاديث، وكان مما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما من رجل أمَّن رجلاً على دمه فقتله، فأنا بريءٌ من القاتل، وإن كان كافراً». «من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، أُعطي لواء الغدر يوم القيامة».

قال شهاب وهو أحد رواة هذا الحديث: وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.[٢]

وفي حديث: «من ائتمن على نفسه رجلاً فقتله». «تكون أو ستكون أو ستلقون فتنةٌ أسلم الناس فيها ـ أو خير الناس فيها ـ الجندُ الغربيُّ»، فلذلك قدمت عليكم مصر. «إذا أراد الله بعبد خيراً عَسَلَهُ». وفي مسند أحمد ٤ : ٢٠٠ قيل: وما

١. معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي المجلد ١٤ رقم ٨٩٠٢ ، والمصادر في المتن .
٢. الأنفال : ٥٨ .

عسله؟ قال: «يفتح الله عزَّ وجلَّ له عملاً صالحاً قبل موته، ثمَّ يقبضه عليه».

آية الجنّة :

وقد نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال لعمرو بن الحمق، كما عن الأجلح بن عبد الله الكندي: «يا عمرو، أتحبُّ أن أريك آية الجنّة؟ قال: نعم يا رسول الله. فمرَّ عليٌّ عليه السلام، فقال: هذا وقومه آية الجنّة»! فلما قتل عثمان وبايع الناس عليًّا عليه السلام لزمه، فكان معه حتى أصيب، ثم كتب معاوية في طلبه، وبعث من يأتيه به...[1]

تمصير الكوفة :

تطويراً للبلاد، وتنميةً للعمران، وتوسعةً للعباد، وتشجيعاً للمسلمين في الانتشار والسكن في البلاد المفتوحة، والاستفادة مما فيها من خيرات، وتبليغاً للإسلام، وإنشاءً لقواعد عسكرية قريبة ممن يريد الكيد للأُمّة المسلمة..، فلعل لذلك ولغيره؛ تمَّ تمصير الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط في بلاد مصر .. كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة ... وأنَّ العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلاّ ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعاً عدناً، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً ... فكانت الكوفة أرضاً انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن المباق .. فاختطّها، وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها، وذلك فى سنة سبع عشرة أو فى سنة ثمان

١. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، للإمام ابن منظور ١٩ : ٢٠٢ ، رقم ١٢٥ .

عشرة هجرية، وحينما اكتمل تمصيرها، توافد عليها جمع من المسلمين للسكنى والاستيطان، فكان هذا الصحابي عمرو بن الحمق واحداً ممن نزل الكوفة حتى عدَّ من ساكنيها، إلاّ أنه وقبل أن يتّخذها وطناً دائماً ومسكناً ثابتاً له، غادرها إلى مصر، فحطَّ رحله فيها برهةً من الزمن.

وقد اختلف القول في وقت عودته من مصر واتخاذه الكوفة وطناً دائماً، وربما يكون بعد وقعة الجمل، حين اتخذها الإمامُ عليٌّ عليه السلام مقرًّا له؛ لكونها قريبة مما حدث من وقائع هنا وهناك .. وفي قول أنَّ عمرو بن الحمق سكن الشام فترةً، وقد يكون ذلك في وقت الفتوح، التي كانت الشام قاعدةً لها؛ ففي الاستيعاب: وسكن الشام، ثم انتقل إلى الكوفة فسكنها.[١]

ولاة سيّئون :

وبقي عمرو بن الحمق الخُزاعي في الكوفة، حتى الخلافة الثالثة حين تولاها عثمان بن عفان (٢٣هـ ـ ٣٥هـ)؛ ليتعاقب على أمر الكوفة ولاة سيئون، بهم اضطربت أوضاعها، وتردّت أحوالها، وفقدت أمانها، وبهم وبأتباعهم انتُهكت الشريعة..، وللعلم ليس هذا كان مختصًّا بالكوفة، إنما هو فتنة وابتلاء عمَّ الساحة المسلمة، وظلّت آثار ذلك خطيرةً ومؤثرة عبر التاريخ، ومازالت كذلك، ونظراً للدور الكبير والواسع الذي قامت به جموع من المصريين بقيادة عدد من الصحابة، أبرزهم الصحابي عمرو بن الحمق نصحاً وتحذيراً لسلطة الخلافة ومن والاها من مغبة الاستمرار بسنّتهم السيئة وطريقة إدارتهم

---

١. انظر فتوح البلدان ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ؛ الاستيعاب : ٥١٥ وغيرهما .

لشؤون الخلافة في الأقاليم والولايات، حتى باءت بالفشل لا فقط جهود الثائرين، بل لم توفق حتى جهود الناصحين الآخرين، الذين سجلوا مواقف جليلة لـدرء الفتنـة بإزالـة أسبابها؛ حين اصطدمت بمواقف الخلافة المضطربة وغير المدركة لخطورة بقائها في سـدّة الحكم، ولما تقطعه من عهود لا نيّة لها بتنفيذها، أو أنها لم تكـن جـادةً بالإصـلاح، ولا بتلبية شيءٍ من نداآت المخلصين، حتى بُحّـت أصـواتهم، لتهدئـة السـاحة وامتصـاص النقمة، بل ظلّت إما متجاهلة لمطاليب الثـوار أو مسـوّفة لهـا، غـير مهتمـة أو مدركـة للعواقب، وأحياناً مستخفّة بها، فضلاً عن كونها غير مكترثة لجهـود الوسـاطات، الـتي راحت بنفسها تناشدها التدخل وإنهاء الأزمات، وإعادة الثوار إلى بلدانهم بعيـداً عـن المدينة؛ مقر الخلافة، ولم تفِ بأي اتفاق أو عهد توصل إليه الوسطاء مع المعارضين، حتى وصلت الأمور إلى خاتمة أودت بحياة الخليفة ...! وقد كثرت الأخبار في هذا الحـادث، ولا يجد المتابع مصدراً تاريخيًّا إلاّ وقد تعرض لما وقع، مما يجعلنا نختار أهم مـا يتعلـق بهذا الصحابي الجليل وبشكل مختصر، وبما يبين لنا أسباب ونتـائج تحركـه ومـن معـه، إضافةً لما ذكرناه أعلاه ...

فمما رواه البلاذري: .. أنَّ عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نقمهـا الصـحابة مـن تأمير بني أمية ولاسيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين، وإخـراج مـال الفـيء إليهم وما جرى في أمر عمار وأبي ذر وعبدالله بن مسعود، وغير ذلك من الأمـور الـتي جرت في أواخر خلافته..

فقد عَزل سعدَ بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة سنة ٢٥ هجرية؛ ليجعـل بـدلاً عنه والياً عليها أخاه لأُمّه أروى بنت كريز الوليد بن عقبة بن أبي معـيط، الـذي أسـاء كثيراً، ومن ذلك ما اضطر عدداً من أشراف الكوفة، وكان منهم عمـرو بـن الحمـق، أن يشكوه إلى الخليفة حين ذهبوا إليه في المدينة، ويُقال: إنه ردّهم في مرّتهم هذه خائبين،

فلما رجعوا، أتاهم كلُّ موتور فاجتمعوا معهم على رأيهم، ثمَّ قدموا على عثمان، وبعد أن سلموا عليه وردَّ عليهم السلام، قال: تكلموا لحاجتكم، فقالوا: إننا أتيناك في أمر الوليد بن عقبة. قال عثمان: وما شأن الوليد؟ فقالوا: إنك وليته علينا فأساء السيرة، ثم إننا دخلنا عليه في منزله وهو يشرب الخمر، فإن رأيت أن تعزله عنا! فقال عثمان: سبحان الله؛ ما أظنُّ هذا كما تقولون! فقالوا: بلى، قد كان ذلك، ولا نشهد عليه إلاّ بما رأينا! فتقدم رجل من أهل الكوفة يكنى أبا زينب فقال: بلى يا أمير المؤمنين أنا دخلت عليه ومعي قوم يشهدون بذلك، ثم إنهم وجدوه يقيء الخمر وليس يعقل شيئاً من أمره فأخذت خاتمه من إصبعه، وها هو في يدي. فأرسل عثمان إلى علي عليه السلام فدعاه وأخبره بذلك فقال: ما الرأي عندك في هذا يا أبا الحسن؟ فقال علي عليه السلام: «الرأي عندي أن تبعث إلى صاحبك فتخبره وتدعو بالشهود، فإذا شهدوا عليه في وجهه أقمت عليه الحدّ». فأرسل عثمان إلى الكوفة فجيء بالوليد بن عقبة، واجتمع الناس وتقدم أبو زينب ومن معه من أهل الكوفة فشهدوا عليه في وجهه بشرب الخمر، قال: فأمر به عثمان، فجرد عن ثيابه ثم جلد الحدّ، وعزله عن الكوفة وولي مكانه سعيد بن العاص، ثم كتب عثمان إلى أهل الكوفة: ... أما بعد! فإنَّ رجالاً فيكم قد قدموا إليَّ من قبلُ، فشكوا الوليد بن عقبة وشهدوا عليه بما شهدوا، فإن يكونوا صدقوا فقد قضينا ما كان علينا، وإن يكونوا كذبوا فالله حسيبهم، فاتقوا الله عباد الله، ووازروا أمراءكم وناصحوهم ولا تبغوا عليهم، وإياكم والقذف والبهت وإن تحقق الأمر السيء، وقد وليت عليكم أشرف ما علمت فأحسنوا إليه، فإني قد أمرته بالإحسان إليكم، ... فأقبل سعيد بن العاص حتى دخل الكوفة، ثم أقبل إلى المسجد الأعظم فدخله فصلّى فيه ركعتين، ثم صعد المنبر وقد نودي له في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أهل الكوفة، إنَّ أحبَّكم إليَّ أقرأكم لكتاب الله، أفقهكم في دين الله، فليكن أولئك من ألافي وأخداني،

وإنَّ أبغضكم إليَّ المسرف على نفسه، المصر على ذنبه الذي لا هم له إلاّ المضاحيك والأباطيل، فلا يقربني أولئك. ثم نزل عن المنبر ودعا بعبد الرحمن بن خنيس الأسدي، فولاه الشرطة وانصرف إلى دار العمارة. فكان أشراف أهل الكوفة وقراؤهم يأتونه ويحدثونه وينصرفون عنه، وهم مع ذلك لا يرون منه إلاّ ما يحبون من حسن السيرة وبسط العدل ولين الجانب، ... وبينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة، فكان بينهم كلام أدّى إلى نزاع، فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتاباً في أوله: ... أما بعد! فإني أخبر أمير المؤمنين أني ما أملك من الكوفة شيئاً مع الأشتر النخعي، ومعه قوم يزعمون أنهم القراء وهم السفهاء، فهم يردون علي أمري، ويعيبون عليَّ صالح أعمالي، وأنَّ الأشتر كان بينه وبين صاحب شرطي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له، فأغرى به الأشتر سفهاء أصحابه وأشرار أهل المصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس، فضربوه حتى وقع لجنبه وهو لما به... فكتب إليه أن سيرهم إلى الشام...[1]

وبذلك بدأت علامات الفتنة تظهر على السطح، بنفي هذه الصفوة المؤمنة إلى الشام: إنهم صلحاء الكوفة، الذين عرفوا بقرائها ونجبائها، وأهل الرأي فيها! وهم... وكان من جملتهم عمرو بن الحمق الخزاعي،.. وهناك في الشام دار بينهم وبين معاوية كلام طويل، انتهى إلى أن يفرض عليهم الإقامة، فلم يزالوا مقيمين بالشام، وقد وكّلَ بهم قوماً يحفظونهم أن لا يبرحوا..

---

١. انظر كتاب الفتوح، لابن الأعثم ٢ : ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

وكثرت الشكايات :

وحجَّ عثمان في تلك السنة، فلما قدم من حجّه إلى المدينة قدم عليه قوم من الكوفة، فعاتبوه على تسييره الأشتر وأصحابه إلى الشام، ثم شكوا عاملهم سعيد بن العاص، وجاء أقوام آخرون من البصرة فشكوا عاملهم عبد الله بن عامر بن كريز، وكثرت الشكايات إلى عثمان من عماله من جميع البلاد. فأرسل إلى جميع عماله فأشخصهم إليه من جميع البلاد، ثم أقبل عليهم فقال: يا هؤلاء! إنه قد كثرت شكايات الناس منكم، فأما القريب فقد بادهني وأما البعيد فما نالوا جهدا، فماذا عندكم من الرأي؟ فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز وقال: يا أمير المؤمنين! إنه ليس يرضي الناس عنك إلاّ ما أسخطهم عليك، فإنَّ الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك. ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين! إنَّ لك على الناس حقاً في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك، فادفع إليهم حقوقهم واستوف منهم حقك،... ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: لا والله يا أمير المؤمنين! ما دعا الناس أن نقموا عليك إلاّ الحمام والفراغ من الحروب، وذلك أنّ العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث، فاشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم، إذا رجع إلى منزله قد أهمته نفسه لا يتفرغ لعيب الأمراء. ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين! إنك قد جمعتنا وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا، وأنت قد ملكتنا رقاب الناس، وجعلتنا أوتاداً في الأرض، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى نكفيك ما قبله، ولا يكون ههنا شكاية أحد ولا ينقم أحد عليك. فعلم عثمان أنَّ الرأي ما قال معاوية، فعزم على أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم، ثم أوصاهم وعهد إليهم وحذرهم الشكايات،... فلم يزدادوا على الناس إلاّ غلظة وجنفاً

وجوراً في الأحكام وعدولاً عن السنة.

ولم يزدد الخليفة عثمان إلاّ انتهاكاً لحقوق كلِّ معترض وناصح له، فتراه يجلد هذا وينفي ذاك، كما جاءت به الأخبار.. ولما كثر ضغط الناس على الخلافة وسلطتها في الشام أعادت بعض أولئك المنفين فيما أبقت آخرين منهم تحت أعينها، فلم تطلق سراحهم...

وفي خبر أنَّ معاوية كتب إلى عثمان: ... أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ويأتون الناس زعموا من قبل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كلُّ الناس يعلم ما يريدون وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام.

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة فردهم إليه، فلم يكونوا إلاّ أطلق ألسنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد إلى عثمان يضجُّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى الشام وألزمهم الدروب.

وفي كتاب له: سيرهم إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وكان أميراً على حمص. وكتب إلى الأشتر وأصحابه أما بعد، فإني قد سيرتكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا، فاخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرًّا، والسلام. فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: اللهم أسوأنا نظراً للرعية، وأعملنا فيهم بالمعصية فعجّل له النقمة، وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص، فأنزلهم عبدالرحمن بن خالد الساحل، وأجرى عليهم رزقاً. وأما هؤلاء النفر فهم كما عن أبي إسحاق الهمداني قال: اجتمع نفر بالكوفة يطعنون

على عثمان من أشراف أهل العراق، وهم: ... وعمرو بن الحمق الخزاعي.

من هذا يتضح أنهم سُيروا أولاً إلى الشام، ثمَّ أُرجعوا إلى الكوفة بعد كتاب معاوية لعثمان، ليُنفوا إلى حمص، قبل أن يعودوا إلى الكوفة.

وكتبوا نصائح وتحذيراً من الفتنة :

فما أن عاد بعضهم أو كلّهم ومنهم عمرو بن الحمق الخزاعي حتى جلسوا مع نفر آخرين من أهل الكوفة منهم ... وحجر بن عدي... وسليمان بن صرد الخزاعي، ورجال كثير من أهل الكوفة ورؤسائهم، فكتبوا إلى عثمان بن عفان: ... لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من الملإ المسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك! فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أما بعد! فإننا كتبنا إليك هذا الكتاب نصيحة لك واعتذاراً وشفقة على هذه الأمة من الفرقة، وقد خشينا أن تكون خلقت لها فتنة، وأنَّ لك ناصراً ظالماً وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نقم عليك الناقم، ونصرك الظالم، اختلفت الكلمتان وتباين الفريقان، وحدثت أمور متفاقمة أنت جنيتها بأحداقك، يا عثمان! فاتق الله والزم سنة الصالحين من قبلك، وانزع عن ضرب قرابتنا ونفي صلحائنا، وقسم فيئنا بين أشرارنا والاستبدال عنا، واتخاذك بطانة من الطلقاء وابن الطلقاء دوننا، فأنت أميرنا ما أطلعت الله واتبعت ما في كتابه وأنبت إليه وأحييت أهله وجانبت الشر وأهله وكنت للضعفاء ورددت من نفيت منا وكان القريب والبعيد عندك في الحق سواء، فقد قضينا ما علينا من النصيحة لك، وقد بقي ما عليك من الحق، فإن تبت من هذه الأفاعيل نكون لك على الحقِّ أنصاراً وأعواناً، وإلاّ فلا تلوم إلاّ نفسك، فإننا لن نصالحك على البدعة وترك السنة، ولن نجد عند الله عذراً إن تركنا أمره لطاعتك، ولن نعصي الله فيما يرضيك، هوأعز في أنفسنا وأجل من ذلك، نشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً،

ونستعينه وكفى بالله ظهيراً، راجع الله بك إلى طاعته، يعصمك بتقواه من معصيته، والسلام.

فلما كتبوا الكتاب وفرغوا منه قال رجل منهم: من يبلغه عنا كتابنا؟ فوالله إن ما نرى أحداً يجترئ على ذلك، فقام رجل من عنزة آدم ممشوق فقال: والله ما يبلغ هذا الكتاب إلاّ رجل لا يبالي أضرب أم حبس أم قتل أم نفي أم حرم، فأيكم عزم على أن يصيبه خصلة من هذه الخصال فليأخذه فقال القوم: ما ههنا أحد يحب أن يبتلي بخصلة من هذه الخصال، فقال العنزي: هاتوا كتابكم، فوالله إني لا عافية لي، وإن ابتليت فما أنا يائس أن يرزقني ربّي صبراً وأجراً، فدفعوا إليه كتابهم، وبلغ ذلك كعب بن عبيدة النهدي وكان من المتعبدين، فقال: والله لأكتبن إلى عثمان كتاباً باسمي واسم أبي، بلغ ذلك من عنده ما بلغ! ثم كتب إليه: ... لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من كعب بن عبيدة، أما بعد! فإني نذير لك من الفتنة، متخوف عليك فراق هذه الأمة، وذلك أنك قد نفيت خيارهم وولّيت أشرارهم، وقسمت فيأهم في عدوهم واستأثرت بفضلهم، ومزقت كتابهم، وحميت قطر السماء ونبت الأرض، وحملت بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عداوتهم، ولعمري لئن فعلت ذلك فإنك تعلم أنك إذا فعلت ذلك وتكرمت فإنما تفعله من فيئنا وبلادنا، والله حسيبك يحكم بيننا وبينك، وإن أنت أبيت وعنيت قتلنا وأذانا ولم تفعل، فإننا نستعين الله ونستجيره من ظلمك لنا بكرةً وعشياً، والسلام.

ثم جاء كعب بن عبيدة بكتابه هذا إلى العنزي وقد ركب يريد المدينة، فقال: أحبُّ أن تدفع كتابي هذا إلى عثمان، فإنَّ فيه نصيحةً له وحثًا على الإحسان إلى الرعية والكفِّ عن ظلمها، فقال: أفعل ذلك، ثم أخذ الكتاب منه ومضى إلى المدينة. ورجع كعب بن عبيدة حتى دخل المسجد الأعظم، فجعل يحدث أصحابه بما كتب إلى عثمان،

فقالوا: والله يا هذا لقد اجترأت وعرضت نفسك لسطوة هذا الرجل! فقال: لا عليكم فإني أرجو العافية والأجر العظيم، ولكن ألا أخبركم بمن هو أجرأ مني؟ قالوا: بلى ومن ذلك؟ فقال: الذي ذهب بالكتاب، فقالوا: بلى صدقت، إنه لكذلك، وإنا لنرجو أن يكون أعظم هذا المصر أجراً عند الله غداً. وقدم العنزي على عثمان بالمدينة، فدخل وسلم عليه ثم ناوله الكتاب الأول وعنده نفر من أهل المدينة، فلما قرأه عثمان ارتد لونه وتغير وجهه، ثم قال: من كتب إليَّ هذا الكتاب؟ فقال العنزي: كتبه إليك ناس كثير من صلحاء أهل الكوفة وقرائها وأهل الدين والفضل، فقال عثمان: كذبت، إنما كتبه السفهاء وأهل البغي والحسد، فأخبرني من هم؟ فقال العنزي: ما أنا بفاعل، فقال عثمان: إذاً والله أوجع جنبك وأطيل حبسك، فقال العنزي: والله لقد جئتك وأنا أعلم أني لا أسلم منك، فقال عثمان: جردوه! فقال العنزي: وهذا كتاب آخر فاقرأه من قبل أن تجردني، فقال عثمان: آت به، فناوله إياه، فلما قرأه قال: مَن كعب بن عبيدة هذا؟ قال العنزي: إيه! قد نسب لك نفسه، قال عثمان: فمن أي قبيل هو؟ قال العنزي: ما أنا مخبرك عنه إلاّ ما أخبرك عن نفسه، قال: فالتفت عثمان إلى كثير بن شهاب الحارثي فقال: يا كثير! هل تعرف كعب بن عبيدة قال كثير: نعم يا أمير المؤمنين! هو رجل من بني نهد، قال: فأمر عثمان بالعنزي، فجردوه من ثيابه ليضرب.

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**لماذا يضرب هذا الرجل؟ إنما هو رسول جاء بكتاب وأبلغك رسالة حملها**»؛ فلم يجب عليه في هذا ضرب. فقال عثمان: أفترى أن أحبسه؟ قال: «**لا، ولا يجب عليه الحبس**».

فخلى عثمان عن العنزي، وانصرف إلى الكوفة وأصحابه لا يشكون أنه قد حبس أوضرب أو قتل، قال: فلم يشعروا به إلاّ وقد طلع عليهم، فما بقي في الكوفة رجل مذكور إلاّ أتاه ممن كان على رأيه، ثم سألوه عن حاله فأخبرهم بما

قال وما قيل له، ثم أخبرهم بصنع عليٍّ عليه السلام، فعجب أهل الكوفة من ذلك ودعوا لعليٍّ عليه السلام بخير وشكروه على ما فعله. وكتب عثمان إلى سعيد بن العاص: أن تسرح إلي كعب بن عبيدة مع سائق عنيف حتى يقدم عليَّ به والسلام.

فلما ورد كتاب عثمان على سعيد بن العاص ونظر فيه أرسل إلى كعب بن عبيدة فشدّه في وثاق ووجه به إلى عثمان مع رجل فظ غليظ، فلما صار في بعض الطريق جعل الرجل ينظر إلى صلاة كعب بن عبيدة وتسبيحه واجتهاده، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، بعثت مع رجل مثل هذا أهديه إلى القتل والعقوبة الشديدة أو الحبس الطويل، ثم أقبل بكعب بن عبيدة حتى أدخله على عثمان. فلما سلم عليه، جعل عثمان ينظر إليه ثم قال: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)! أنت تعلمني الحقَّ، وقد قرأت القرآن وأنت في صلب أب مشرك؟! قال كعب: على رسلك يا بن عفان، فإنَّ كتاب الله لو كان للأول دون الآخر لم يبق للآخر شيء، ولكن القرآن للأول والآخر. فقال عثمان: والله ما أراك تدري أين ربُّك! قال: بلى يا عثمان هو لي ولك بالمرصاد! فقال مروان: يا أمير المؤمنين حلمك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس، فقال كعب: يا عثمان! إنَّ هذا وأصحابه أغمروك وأغرونا بك، قال عثمان: جردوه، فجردوه و ضربه عشرين سوطاً، ثم أمر به فرد إلى الكوفة، وكتب إلى سعيد بن العاص: أما بعد، فإذا قدم عليك كعب بن عبيدة هذا فوجه به مع رجل فظ غليظ إلى جبال كذا، فليكن منفياً عن بلده وقراره. قال: فلما قدم كعب على سعيد بن العاص دعا به فضمه إلى رجل من أصحابه يقال له بكير بن حمران الأحمري فخرج به حتى جعله كذلك حيث أمر عثمان. وفي خبر: وكتب الخليفة عثمان إلى سعيد بن العاص أن يضرب كعب بن

عبدة عشرين سوطاً، ويحول ديوانه إلى الري. ففعل.[١]

إلى مصر :

ولعلَّ هذا الصحابي عمرو بن الحمق رأى ذلك كلَّه، ورأى المصلحة أن ينتقل إلى مصر؛ بعد أن راحت وفود الاحتجاج تصل المدينة وتتزايد من الأقاليم، وتستنكر الفساد والمظالم، تلك التي تمارسها سلطة الخلافة أو بطانتها بقيادة مروان بن الحكم وأمثاله، فقد طغوا في البلاد وبالتالي أكثروا فيها الفساد، فلطالما يكون وراء كلِّ طغيان فساد، ولنعم ما قاله ابن عاشور عن الطغيان والفساد في تفسير الآيتين ١١ ــ ١٢ من سورة الفجر: ﴿الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَادِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

لأن فساد البعض آئل إلى فساد الجميع بسَنِّ سنن السوء، ولذلك تسبب عليه ما فرع عنه من قوله: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾. لأنَّ الطغيان يجرِّيء صاحبه على دحض حقوق الناس فهو من جهة يكون قدوة سُوءٍ لأمثاله ومَلئهِ، فكلّ واحد منهم يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم؛ لأنَّ به اختلال الشرائع الإلاهيّة والقوانين الوضعية الصالحة وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطْغيّ عليه من الرعية فيُضمرون السوء للطاغين، وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور وتربص الدوائر بها، فيكونُون لها أعداء غير مخلصي الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجّسين نهم خيفة، فيظنون بهم السوء في كلّ حال ويحْذَرُونهم ، فتتوزع قوة الأمّة على أفرادها عوض أن تّحد على

---

١. انظر الفتوح ٣ : ٣٨٩ ؛ وتاريخ الطبري ٤ : ٣٢٦ وغيرهما .

أعدائها، فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سبباً لكثرة الفساد...[١]

ويبدو لي أنَّ هذه المخاطر التي تترتب على ما وقع في الخلافة الثلاثة من ظلم وإقصاء للآخرين، وتقديم لغير الجديرين وتوليتهم أمور الناس، وإعطائهم ما يريدون، مقابل حرمان غيرهم ..، وعدم وفاء السلطة بما تقطعه على نفسها من عهود بالتغيير والتصحيح، فضلاً عن الخداع والمراوغة .. دفعت الرعية من أمصار عديدة؛ دفعت البصريين، والكوفيين، والمصريين؛ لأن يعلنوا عن شجبهم ورفضهم ومعارضتهم، التي تدرّجت في شدّتها .. وكلُّ تلك المخاطر والوعود، وهذه المواقف المعارضة نجدها في أخبار المؤرخين، والتي منها أنَّ هذا الصحابي الجليل عمرو بن الحمق كان واحداً من ثلاثة أو أربعة قادوا حركة المعترضين المصريين، وقد كان عددهم ستمائة شخص أو يزيدون، في توجههم نحو مقر الخلافة في المدينة المنورة، وهم في طريقهم، إذ بمحمد بن مسلمة، إما خرج بنفسه للقادمين من مصر أو بطلب من الخليفة عثمان، كما في روايةٍ عن جابر بن عبد الله؛ أنَّ المصريين لما أقبلوا من مصر يريدون عثمان ونزلوا بذي خشب، دعا عثمان محمد بن مسلمة، فقال: اذهب إليهم فارددهم عني وأعطهم الرضا، وأخبرهم أني فاعل بالأمور التي طلبوا ونازع عن كذا بالأمور التي تكلموا فيها. فركب محمد بن مسلمة إليهم إلى ذي خشب. قال جابر ابن عبد الله: وأرسل معه عثمان خمسين راكباً من الأنصار أنا فيهم .. وفي رواية محمد بن سلمة: خرجت في نفر من قومي إلى المصريين، وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عُديس البلوي، وسودان

---

١. تفسير التحرير والتنوير .

ابن حُمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي ـ وقد كان هذا الإسم غلب حتى كان يقال: جيش بن الحمق ـ وابن النباع أو البياع. فدخلت عليهم، وهم في خباء لهم أربعتهم، ورأيت الناس لهم تبعاً، فعظمت حقَّ عثمان، وما في رقابهم من البيعة وخوّفتهم بالفتنة، وأعلمتهم أنَّ في قتله اختلافاً وأمراً عظيماً، فلا تكونوا أول من فتحه، وأنه ينزع عن هذه الخصال التي نقمتم منها عليه، وأنا ضامن لذلك. قال القوم: فإن لم ينزع؟ قلت: فأمركم إليكم، فانصرف القوم وهم راضون، فرجعتُ إلى عثمان، فقلت: أخلني فأخلاني، فقلت: الله الله يا عثمان في نفسك، إنَّ هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك، وأنت ترى خذلان أصحابك لك، لا بل هم يقوون عدوك عليك، قال: فأعطاني الرضا، وجزاني خيراً. ثم خرجت من عنده.

كتابُ غدرٍ !

وهم عائدون إلى مصر، إذ بشخص يغذُّ السير، وقد أثار ارتيابهم فيه، فأوقفوه ووجدوا عنده كتاب أمر من سلطة الخلافة إلى عاملها على مصر أن يُنزل عقاب جلد وحلق وحبس وصلب بمن كان يقود المصريين الثائرين ضدَّ الخليفة: عمرو بن الحمق الخُزاعي ومن معه، فاضطروا للعودة إلى المدينة مستصحبين معهم الكتاب المذكور وحامله، وكلاهما خير دليل على عدم وفاء الخليفة بعهوده لمحمد بن مسلمة، وسرعة نقضها .. وهنا نعود إلى مبعوث الخليفة محمد بن مسلمة؛ ليواصل قوله:

وقد تكلّم عثمان برجوع المصريين، وذكر أنهم جاءوا لأمر، فبلغهم غيره فانصرفوا، فأردت أن آتيه فأعنِّفه بهما، ثم سكتّ فإذا قائل يقول: قد قدم المصريون وهم بالسُّويداء، قلت: أحقٌّ ما تقول؟ قال: نعم، قال: فأرسل إليّ عثمان. وإذا الخبر قد جاءه، وقد نزل القوم من ساعتهم ذا خشب، فقال: يا أبا عبد الرّحمن هؤلاء القوم قد

رجعوا، فما الرأي فيهم؟ قلت: والله ما أدري؛ إلاّ أني أظنُّ أنهم لم يرجعوا لخير. قال: فارجع إليهم فارددهم، قلت: لا، والله ما أنا بفاعل، قال: ولِمَ؟ قلتُ : لأني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها، فلم تنزع عن حرف واحد منها. فقال: الله المستعان. وخرجت وقدم القوم وحلوا بالأسواف، وحصروا عثمان. وجاءني عبد الرحمن بن عبديس ومع سودان بن حمران وصاحباه، فقالوا: يا أبا عبد الرّحمن، ألم تعلم أنّك كلّمتنا ورددتنا، وزعمتَ أنّ صاحبنا نازعٌ عمّا نكره؟ فقلت: بلى، فإذا هم يخرجون إليّ صحيفة صغيرة؛ قصبة من رصاص؛ .. وجدنا جملاً من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، فأخذنا متاعه ففتّشناه، فوجدنا فيه هذا الكتاب؛ فإذا فيه بعد البسملة: أما بعد؛ فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس، فاجلده مائة جلدة، واحلق رأسه ولحيته، وأطل حبسه حتى يأتيك أمري؛ وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك، وسودان بن حمران مثل ذلك؛ وعروة بن النّباع الليثيّ مثل ذلك. فقلت: وما يدريكم أنّ عثمان كتب بهذا؟ قالوا: فيفتات مروان على عثمان بهذا؟! فهذا شرّ؛ فيخرج نفسه من هذا الأمر. ثم قالوا: انطلق معنا إليه، فقد كلمنا عليًّا عليه السلام، ووعدنا أن يكلّمه إذا صلّى الظهر. وجئنا سعد بن أبي وقّاص، فقال: لا أدخل في أمركم. وجئنا سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، فقال مثل هذا. فأين وعدكم عليٌّ عليه السلام؟ قالوا: وعدنا إذا صلّى الظهر أن يدخل عليه.. فصليتُ مع عليٍّ عليه السلام، ثم دخلت أنا وعليٌّ عليه السلام عليه، فقلنا:إنَّ هؤلاء المصريين بالباب، فأذن لهم، ومروان عنده جالس. فقال مروان: دعني جعلتُ فداك أكلّمهم! فقال عثمان: فضّ الله فاك! اخرج عني؛ وما كلامك في هذا الأمر! فخرج مروان. وأقبل عليٌّ عليه السلام عليه؛ وقد أنهى المصريُّون إليه مثل الذي أنهوا إليّ. فجعل عليٌّ عليه السلام يخبره ما وجدوا في كتابهم. فجعل يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شُورِ فيه. فقلتُ: ـ وما زال القائل محمد بن مسلمة ـ والله إنه لصادق؛ ولكن هذا عمل مروان.

فقال عليٌّ عليه السلام: «**فأدخلهم عليك؛ فليسمعوا عذرك**».

ثم أقبل عثمان على عليٍّ عليه السلام، فقال: إنّ لي قرابةً ورحماً؛ والله لو كنتَ في هذه الحلقة لحللتُها عنك؛ فاخرج إليهم، فكلِّمهم؛ فإنهم يسمعون منك.

قال عليٌّ عليه السلام: «**والله ما أنا بفاعل؛ ولكن أدخلهم حتى تعتذر إليهم**»؛ فادخلوا.

قال محمد بن مسلمة: فدخلوا يومئذ، فما سلّموا عليه بالخلافة، فعرفتُ أنه الشرّ بعينه؛ قالوا: سلام عليكم، فقلنا: وعليكم السلام، قال: فتكلَّم القوم وقد قدّموا في كلامهم ابن عديس، فذكر ما صنع ابن سعد بمصر، وذكر تحاملاً منه على المسلمين وأهل الذمّة، وذكر استئثاراً منه في غنائم المسلمين؛ فإذا قيل له في ذلك، قال: هذا كتاب أميرالمؤمنين إليّ، ثم ذكروا أشياء مما أحدث بالمدنية، وما خالف به صاحبيه. فرحلنا من مصر ونحن لا نريد إلاّ دمك أو تنزع؛ فردّنا عليٌّ عليه السلام ومحمد بن مسلمة، وضمن لنا محمد النزوع عن كلّ ما تكلمنا فيه ـ ثم أقبلوا على محمد بن مسلمة، فقالوا: هل قلتَ ذاك لنا؟ قال محمد: فقلت: نعم ـ ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عزّوجلّ عليك، ويكون حجّةً لنا بعد حجّةٍ حتى إذا كنا بالبُويب، أخذنا غلامك فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله بن سعد، تأمره فيه بجلد ظهورنا، والمثل بنا في أشعارنا، وطول الحبس لنا؛ وهذا كتابك! قال: فحمد الله عثمان وأثنى عليه، ثم قال: والله ما كتبتُ ولا أمرتُ، ولا شوورتُ ولا علمتُ. فقلتُ وعليٌّ عليه السلام جميعاً: قد صدق. فاستراح إليها عثمان! فقال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري، قالوا: أفيُجترأ عليك، فُيبعث غلامُك وجملٌ من صدقات المسلمين، ويُنقش على خاتمك، ويُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟! قال: نعم، قالوا: فليس مثلك يلي، اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه!

قال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عزّوجلّ. قال: وكثرت الأصوات واللغط، فما كنتُ أظنّ أنهم يخرجون حتى يواثبوه. قال: وقام عليّ عليه السلام فخرج، قال: فلمّا قام

عليّ عليه السلام قمتُ. وقال للمصريين: اخرجوا، فخرجوا. ورجعتُ إلى منزلي ورجع عليٌّ عليه السلام إلى منزله ...

وفي خبر آخر: ... فأتوا بالكتاب، فأنكر عثمان أن يكون كتبه، وقال: هذا مفتعل، قالوا: فالكتاب كتاب كاتبك! قال: أجل؛ ولكنّه كتبه بغيرأمري، قالوا: فإنّ الرسول الذي وجدنا معه الكتاب غلامك؛ قال: أجل؛ ولكنه خرج بغير إذني، قالوا: فالجمل جملك، قال: أجل؛ ولكنه أخذ بغير علمي، قالوا: ما أنت إلاّ صادق أو كاذب؛ فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقّها، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك؛ لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يُقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته. وقالوا له: إنّك ضربت رجالاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحقّ عندما يستنكرون من أعمالك؛ فأقد من نفسك مَن ضربته وأنت له ظالم. فقال: الإمام يخطىء ويصيب؛ فلا أُقيد من نفسي؛ لأني لو أقدت كلّ من أصبته بخطإ آتي على نفسي؛ قالوا: إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً فاستحققت بها الخلع؛ فإذا كلمت فيها أعطيت التوبة ثم عدت إليها وإلى مثلها، ثم قدمنا عليك فأعطيتنا التوبة والرجوع إلى الحقّ؛ ولا منا فيك محمد بن مسلمة، وضمن لنا ما حدث من أمر، فأخفرته فتبرّأ منك، وقال: لا أدخل في أمره؛ فرجعنا أوّل مرة لنقطع حجّتك، ونبلغ أقصى الإعذار إليك؛ نستظهر بالله عزّوجلّ عليك؛ فلحقنا كتاب منك إلى عاملك علينا تأمره فينا بالقتل والقطع والصلب. وزعمت أنه كتب بغير علمك وهو مع غلامك وعلى جملك وبخطّ كاتبك وعليه خاتمك، فقد وقعت عليك بذلك التُّهمة القبيحة، مع ما بلونا منك قبل ذلك من الجور في الحكم والأثرة في القسم والعقوبة للأمر بالتبسط من الناس، والإظهار للتوبة، ثمّ الرجوع إلى الخطيئة، ولقد رجعنا عنك وما كان لنا أن نرجع حتى نخلعك، ونستبدل بك من أصحاب

رسول الله ﷺ من لم يحدث مثل مما جرّبنا منك، ولم يقع عليه من التُّهمة ما وقع عليك؛ فاردد خلافتنا؛ واعتزل أمرنا، فإنّ ذلك أسلم لنا منك، وأسلم لك منا!

فقال عثمان: فرغتم من جميع ما تريدون؟! قالوا: نعم. قال: ... أما بعد، فإنكم لم تعدلوا في المنطق، ولم تنصفوا في القضاء، أما قولكم تخلع نفسك فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عزَّوجلَّ وأكرمني به، وخصّني به على غيري، ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون، فإني والله الفقير إلى الله الخائف منه! قالوا: إنَّ هذا لو كان أول حدث أحدثته ثم تبتَ منه ولم تقم عليه؛ لكان علينا أن نقبل منك وأن ننصرف عنك، ولكنه قد كان منك من الأحداث قبل هذا ما قد علمت، ولقد انصرفنا عنك في المرة الأولى، وما نخشى أن تكتب فينا، ولا من اعتللت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك. وكيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب إلاّ عدت إليه، فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل بك، فإنَّ حال من معك من قومك وذوي رحمك وأهل الانقطاع إليك دونك بقتال، قاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله! فقال عثمان: أما أن أتبرأ من الإمارة، فإن تصلبوني أحبّ إليَّ من أن أتبرأ من أمر الله عزَّوجلَّ وخلافته، وأما قولكم تقاتلون من قاتل دوني، فإني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتل دوني فإنما قاتل بغير أمري، ولعمري لو كنت أريد قتالكم، لقد كنت كتبت إلى الأجناد، فقادوا الجنود، وبعثوا الرجال، أو لحقت ببعض أطرافي بمصر أو عراق؛ فالله الله في أنفسكم أبقوا عليها إن لم تُبقوا عليَّ، فإنّكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتموني دماً! ثم انصرفوا عنه وآذنوه بالحرب، وأرسل إلى محمد بن مسلمة فكلمه أن يردهم، فقال: والله لا أكذب الله في سنة مرتين! ...

طلحة وابن عديس !!

يقول الخبر عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، قال: دخلت على عثمان، فتحدثت عنده ساعة، فقال: يا ابن عياش تعال، فأخذ بيدي، فأسمعني كلام مَن على باب عثمان، فسمعنا كلاماً منهم من يقول: ما تنتظرون به؟! ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع، فبينا أنا وهو واقفان إذ مرَّ طلحة بن عبيد الله، فوقف فقال: أين ابن عديس؟ فقيل: هاهو ذا. فجاءه ابن عديس فناجاه بشيء، ثم رجع ابن عديس، فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل، ولا يخرج من عنده، فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله، ثم قال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله، فإنه حمل عليَّ هؤلاء وألبهم، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه، إنه انتهك مني ما لا يحلّ له ... يُضاف إلى ذلك موقف مروان بن الحكم، وقوله: ... والله إني لاعلم أنه ما حرض على قتل عثمان يوم الدار أحد كتحريض طلحة ولا قتله سواه.

وهناك نقولات أخرى، منها:

أنّ أشد الصحابة على عثمان طلحة .. قال عليٌّ عليه السلام لطلحة: أنشدك بالله إلاّ رددت الناس عن عثمان، قال: لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها .. وإن طلحة قد شارك في منع وصول الماء إلى بيت عثمان ..

أقوال مروان العديدة في وقعة الجمل وقد اجتمعا لقتال الإمام عليٍّ عليه السلام، منها: هذا أعان على عثمان فرماه بسهم في ركبته ... رمى مروان طلحة بسهم، ثم التفت إلى أبان بن عثمان فقال: قد كفيناك بعض قتلة أبيك .. نظر مروان بن الحكم إلى طلحة بن

عبيد الله يوم الجمل، فقال: لا أطلب بثأري بعد اليوم، فرماه بسهم فقتله ...[١]

اكتفي بهذه الإشارة، فلعلها تؤشر على دور طلحة، ومروان أيضاً، كما جاء بالأخبار في قتل الخليفة يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة ٣٥هـ وبالتالي تبرئة الثوار وزعمائهم خاصة أولئك الذين كانوا من الموالين للإمام عليٍّ عليه السلام، ومنهم عمرو بن الحمق، والذين يأتمرون بأوامره، ولا يخالفونه في منهجه، ودوره عليه السلام كما نصّت عليه أخبار المؤرخين، كان واضحاً فيما حدث، بنصحه للخليفة في إصلاح ما فسد من الأمور، ودرء الفتنة وتداعياتها على الأمّة المسلمة .. حتى نسب للإمام عليٍّ عليه السلام أنه قال لعثمان: «والله إني لأكثر الناس ذبًا عنك، ولكني كلما جئتُ بشيء أظنّه لك رضا، جاء مروان بأخرى فسمعتَ قوله وتركتَ قولي».[٢]

وهذا ما كان فإنَّ الخليفة كان شديد الاستماع لمستشاريه وبطانته، وكما جاء في قوله: ... إنَّ لكلّ امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونُصحائي وأهل ثقتي... كان منهم معاوية، ومن بطانته مروان وهناك غيرهما ...[٣]

وأخيراً قُتل الخليفة!

ولئن شارك أولئك الصالحون في الثورة والتأليب على الخليفة، على سيرته وفساد حاشيته، فهو أمر ينسجم مع مبادئهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلاّ

---

١. تاريخ الطبري ٣ : ٤٤٣ ؛ الفتوح، ابن الأعثم ٢ : ٤٧٨ ؛ تاريخ المدينة، لعمر بن شبة : ١١٦٩ ؛ الكامل في التاريخ ٢ : ٥٣٥ ؛ وغيرها .

٢. الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٣ :٦٢ .

٣. تاريخ الطبري ٢ : ٦٤٣ سنة ٣٤ .

أنهم لم يشاركوا أو يُباشروا قتل الخليفة، فقتله بلا شك لا يرتضيه الإمامُ عليٌّ عليه السلام بل ويُغضبه، وهم لا يمكن أن يعملوا خلاف رغبة إمامهم فيدخلوا دائرة العصيان، هذا دليل واضح، فضلاً عن أدلة أُخرى .. وكل ما نُقل عن عمرو بن الحمق وعن مالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر، لا يمكن أن يثبت أمام التحقيق النزيه، وأنَّ الذي فعل فَعلته في قتل الخليفة ذو مآرب؛ إما يريد إفساد أهداف الثورة والثوار وإعاقة مشروعهم، أوخوفاً من أن يضعف الخليفة ويقبل بمطاليبهم؛ خاصةً وقد اشتدَّ الحصار عليه، وسقطت حججه كلها، بل لا أستبعد أنَّ هناك أيادٍ سيئة من بطانة الخليفة كمروان بن الحكم وحتى معاوية، أو من أصحاب المصالح كطلحة بن عبيد الله عمدت إلى ذلك، أو على الأقل امتنعت عن الدفاع عنه أو تغافلت إن لم نقل شجعت، أو رضيت لغايات ترجوها، ولخلط الأوراق وزرع الفتنة والشقاق في الساحة، وبتحميل الثوار مسؤولية ذلك، ثمَّ الانتقام منهم ومن آخرين، وهو ما تحقق لهم فعلاً عبر الثأر لدم أو قميص عثمان، حتى صار شعار وقعتي الجمل وصفين، وقد كلّف ذلك الأمّة الكثير من الأضرار والمخاطر، والتجاوز على أئمتها المخلصين وصالحيها ...[1]

ولاؤه :

توجهت أنظار المسلمين في المدينة وغيرها، وفي مقدمتهم الصحابة إلى بيعة الإمام عليٍّ عليه السلام بالخلافة، فكان عمرو بن الحمق الخُزاعي من المبادرين للبيعة؛ ليسجل ولاءً مطلقاً لأمير المؤمنين عليه السلام، حتى عدَّ واحداً من حواري الإمام عليه السلام وما أعظمها من

١. انظر المقالة (محمد بن أبي بكر) العدد ٣٨ من هذه المجلة .

منزلة!

فقد نسب إلى الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة، ينادي مناد: أين حواري علي بن أبي طالب عليه السلام، وصي محمد بن عبد الله رسول الله؟ فيقوم عمرو بن الحمق الخُزاعي، ومحمد بن أبي بكر، وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد، وأويس القرني».[1]

وليرسم مواقف عظيمة في نصرته، وهو يخوض معارك شرسة في الجمل ضدَّ الناكثين وفي صفين ضدَّ القاسطين وفي النهروان ضدَّ المارقين، وكان دوره القتالي فيها جميعاً متميزاً؛ يتصف بالبصيرة والصلابة والثبات؛ وكيف لا يكون كذلك؛ وهو القائل في وقعة صفين: «إني والله يا أمير المؤمنين، ما أجبتُك ولا بايعتُك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان يُرفع ذكري به، ولكن أحببتُك لخصال خمس: إنّك ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، وأبو الذريّة التي بقيت فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وأعظم رجلٍ من المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أني كلفتُ نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي حتى يأتي عليَّ يومي في أمر أُقوِّي به وليَّك، وأُوهن به عدوَّك، ما رأيتُ أني قد أديتُ فيه كلَّ الذي يحقُّ عليَّ من حقّكَ»؟!

فقال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «اللهم نوّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراط مستقيم، ليت أنَّ في جندي مائة مثله!

فقال حُجر ـ حُجر بن عدي ـ : إذاً والله يا أمير المؤمنين، صحَّ جندك، وقلَّ

---

١. رجال الكشي ١: ٢٥٣ : ٩٩ ؛ الاحتجاج ٢:٩٠ : ١٦٤ ؛ أنساب الأشراف ٥: ١٢٩ .

فيهم من يغشك! ثمَّ قام حُجر فقال: يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها ...[١]

شرطة الخميس :

الشُّرْطةُ أو الشُّرَطة، بالسكون والحركة: وهم أولُ كتيبة تحضر الحرب، وتتهيّأُ للموت، وهم خيار جند السلطان، أو نخبة جنده أو أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده .. وإنما سُمّوا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلاماتٍ يعرفون بها، أو لأنهم أعدوا لذلك ..

الخميس: الجيش الجرار؛ سمي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة. وقيل: لأنه تخمس فيه الغنائم ..

وفي التسمية «شرطة الخميس» أقوال، منها: إنما سموا «شرطة الخميس» لأنهم اشترطوا على أنفسهم أن يكونوا أوفياء للإمام عليه السلام. وفي قول: إنهم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الذين قال لهم: تشرّطوا إنما أشارطكم على الجنة، ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة. وقيل: إنّما سمّوا بشرطة الخميس؛ لأنهم يشترطون على الإمام عليه السلام، كما روي عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: ضمِنّا له ـ أي لأمير المؤمنين عليه السلام ـ الذبح، وضَمِن لنا الفتح .. فهي بالتالي قوّة قتاليّة متميزة مستبسلة؛ تتصف بالشجاعة والجرأة والفداء، وكان عمرو بن الحمق، ومالك الأشتر مع سائر أصحاب الإمام عليه السلام كعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، وحجر بن عدي، وميثم التمار، والأصبغ بن نباته وآخرين، قد انضمّوا في شرطة الخميس هذه، وقدرت أعدادهم بخمسة آلاف أو

---

١. وقعة صفين : ١٠٣ ؛ الاختصاص : ١٤ .

ستة آلاف مقاتل تحت قيادة الإمام عليٍّ عليه السلام...[١]

وقعة الجمل :

ما إن مُلئت قلوبُهم حبًّا للدنيا وسلطتها، حتى أعلنوا تمرداً على الإمام عليٍّ عليه السلام، ونكثاً لبيعتهم له.. من أجل ذلك توجّه إلى البصرة كلٌّ من الصحابيّين الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله؛ تُرافقهما أمُّ المؤمنين عائشة زوجُ رسول الله صلى الله عليه وآله وإلاّ فلِم تركوا المدينة ومكة، واجتمعوا في حشود كبيرة من الأتباع والجند؟! وقد خرجا، وخرجت معهما طواعيةً من بيتها، الذي أُمرت هي وأُمهات المؤمنين أن يقرن فيه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ..﴾[٢].

أو ليس في عملها هذا ما يُعدُّ مخالفةً صريحةً للآية؛ خاصةً إذا كان بعيداً عن دائرة الطاعة لله تعالى، بل ومما يترتب عليه معصية لولي الأمرالشرعي، ومفاسد خطيرة وجسيمة ونتائج دموية كبرى ...؟!

ولا أدري، وقد نبحتها تلك الكلابُ فعلاً، ولم تنبح غيرها .. كيف لم تُدرك ما يعني ذلك، وهي العالمة النابهة، ولم يغب عنها حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «كأني بإحداكن تنبحها كلابُ الحوأب» وفي بعض الروايات ـ كما يقول علاّمة بغداد الآلوسي، وهو يبرّر

---

١. هذا مختصر لتفصيلٍ في معاجم اللغة وبالذات تاج العروس ١٩ : ٤٠٧ ـ ٤٠٨ ؛ شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني ٦: ٢٨٦ ؛ الفوائد الرجالية، السيد مهدي بحر العلوم ٣ : ٣٦ ؛ رجال الكشي : ٥ ـ ٦ ؛ الاختصاص : ٢ ـ ٥ .

٢. الأحزاب : ٣٣ .

عملها، وأنها (سارت معهم بقصد الإصلاح وانتظام الأمور وحفظ عدة نفوس من كبار الصحابة..) ـ الغير المعتبرة عند أهل السنة بزيادة «فإياك أن تكوني يا حميراء»؟![1]

ليعلن هذا الثلاثي فتنته، فاستحق ومن تبعه الوصفين معاً؛ فهم الناكثون لبيعتهم، وهم البغاة على إمام عادل يعرفونه حقَّ معرفته، يدور الحقُّ معه حيث دار.. يُقاتلونه وهم له ظالمون ..، وإلاّ فبمَ تُفسَّر توبتُها إن صحّت، وندمُ الآخَرين، وتركهما لميدان القتال بعد أن تسبّبوا فيه ...؟!

علماً بأنّهم إن لم يبغوا الفتنة، وأرادوا السلم الاجتماعي للأُمّة والصلاح لها؛ لأطاعوا وليَّ الأمر الذي بايعوه، ولآزروه ولنصروه، ولكان هذا يحقق الأمن، ويدفع الخطر، ويجمع ولا يفرّق، بدل خذلانه، وإرباك الساحة، والخروج عليه حتى اختاروا البصرة مكاناً ومقرًّا لفَعْلَتهم التي فعلوا، لنقضهم العهد ولبغيهم، وقد توسط الساحةَ جملُهم المقدّسُ بأُمّهم (... فبعر جمل أمّنا كأنه المسك الأذفر!!) والذي لم تتركه أُمُّهم؛ أو تأمرهم بإخراجها منه ومن النزاع والقتال حتى عُقر؛ وليتهما حين ندما وذهبا بعيداً؛ فقتلا، أخرجا أُمَّهما من الميدان أيضاً؛ لتُنهي الفتنةُ، وتُحقن الدماءُ! كما أخرجاها من بيتها من المدينة فمكة فالبصرة ...!!

توجّه الإمامُ عليٌّ عليه السلام إليهم محاوراً؛ فلعلّهم يعقلون ويرجعون، إلاّ أنه وبعد مفاوضات طويلة، لم تأتِ بنتيجة، جمع الناس فخطبهم خطبة بليغة قائلاً:

«أيّها الناس! إني قد ناشدتُ هؤلاء القوم كيما يرجعوا ويرتدعوا، فلم يفعلوا ولم يستجيبوا، وقد بعثوا إليَّ أن أبرز إلى الطعان، وأثبت للجلاد، وقد كنتُ وما أهدد

---

١. تفسير روح المعاني ، الآية ٣٣ الأحزاب .

بالحروب، ولا أدعى إليها، وقد أنصف القارة من راماها، ولعمري لئن أبرقوا وأرعدوا، فقد عرفوني ورأوني، ألا وإنَّ الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ومن لم يمت يقتل، وإنَّ أفضل الموت القتل، والذي نفس عليٍّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من موتة على الفراش»!

ثمَّ رفع يده إلى السماء وهو يقول: «اللهم! إنَّ طلحة بن عبيد الله أعطاني صفقة بيمينه طائعاً، ثم نكث بيعته، اللهم! فعاجله ولا تمهله، اللهم! إنَّ الزبير بن العوام قطع قرابتي، ونكث عهدي، وظاهر عدوي، ونصب الحرب لي، وهو يعلم أنه ظالم، فاكفنيه كيف شئت وأني شئت»! ثمَّ وثب عليٌّ عليه السلام فعبّأ أصحابه، وكان على خيل ميمنته عمار بن ياسر... وعلى خيل الكمين عمرو بن الحمق الخزاعي ...[1]

لقد عبّأ الإمامُ عليه السلام جنده استعداداً لمعركة لا مناص منها، فكان هذا الصحابي الجليل عمرو بن الحمق على خيل الكمين كما ذكر، وفي قول آخر على رجالة خُزاعة وأفناء اليمن، وراح كلٌّ واحد من هؤلاء القادة في جيش الإمام يتقدم تلو الآخر لميدان القتال، حتى أنَّ عمرو بن الحمق في وقعة الجمل، شكل مع ثلة مؤمنة من أصحاب الإمام عليه السلام من شرطة الخميس سدَّاً منيعاً وسيفاً مدافعاً عن الإمام عليه السلام، وهذا ما نجده فيما قاله حنظلة بن ضرار من جيش الناكثين البغاة؛ وقد خرج للمبارزة فقصد قصدة عليٍّ عليه السلام، فإذا دونه السيوف والأسنة، فرجع وهو يقول:

يا ضب يا ضب دعي عليًّا

إني أرى من دونه خطيا

---

١. انظر الفتوح، لابن الأعثم ٢ : ٤٦٨ وهامشها ؛ وغيره من المصادر .

يا معشراً يدعونه الوصيا

وارم بنا الأشتر أو عديا

وارم بنا ابن الحمق الغويا

ثمَّ تقدم عمرو بن الحمق وهو يقول شعراً، فاقتتل القوم قتالاً شديداً لم يسمع بمثله، وصار الهودج الذي فيه عائشة كأنه القنفذ مما فيه من النبل والسهام، وجعلت بنو ضبة يأخذون بعر الجمل فيشمونه ويقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى بعر جمل أمّنا كأنه المسك الأذفر... وإذا برجل من أصحاب الجمل يقال له الأسود البختري، قد خرج وهو يقول شعراً، فحمل عليه عمرو بن الحمق الخزاعي فقتله..

هذا وقد حُكي عنه أنّه كان يُنشد:

هذا عليٌّ قائد نرضى به

أخو رسول الله في أصحابه

من عودة النامي ومن نصابه.[1]

ولا أظنُّ ـ وهو ما أخشاه ولا أتمنّاه لأحد! ـ إلاّ وكانت حصيلة هؤلاء الناكثين من جهدهم الضّار، وعظيم الخطر أن ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، بما خلّفه من آلاف القتلى والضحايا فضلاً عما تركه من أرامل ويتامى وآلام وفرقة وتشتت وعقائد ضالة ..!

١. انظر كتاب الفتوح ٢ : ٤٨١ ؛ كتاب الجمل، للشيخ المفيد، تحقيق السيد علي شريفي : ٣٢٠ ؛ وقعة الجمل، محمد بن زكريا البصري (ت ٢٩٨ هـ) تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين ٤٢ـ٤٣ .

وقعة صفين :

وليس فقط كان هؤلاء الحواريون، قد استبسلوا في صفين، بل كانوا وقد حمي الوطيس لا يعصون إمامهم عليًّا عليه السلام، يأتمرون بأوامره، ولا يخالفونه في شيءٍ مع خطورة الموقف وضخامته وشدّته، وشراسة العدو وتجاوزاته؛ حتى أنَّ بعضهم؛ حجر بن عدي وكان على كندة، وعمرو بن الحمق وكان على خزاعة في وقعة صفين؛ ولشدّة تألمهما من مواقف معاوية وأتباعه، ومن عنادهم ومكرهم؛ راحا يُظهران البراءة واللعن من أهل الشام، فأرسل إليهما عليٌّ عليه السلام أن كُفَّا عما يبلغني عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين ألسنا محقّين؟

قال: بلى .

قالا: فلِمَ منعتنا من شتمهم؟

قال: كرهتُ لكم أن تكونوا لَعَّانين شتامين؛ تشتمون وتبرؤون، ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر. ولو قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقَّ منهم من جهله، ويرعوي عن الغيِّ والعدوان منهم من لهج به؛ لكان أحبَّ إليَّ وخيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك!

قال عمرو بن الحمق؛ وكما ذكرنا أعلاه: إني والله يا أمير المؤمنين، ما أجبتُك ولا

بايعتُك على قرابة بيني وبينك،...[١]

هذا وكان من أشعاره في صفين؛ وهو يخوض غمارها:

تقول عرسي لما أن رأت أرقى ـ ماذا يهيجك من أصحاب صفّينا

ألستَ في عُصبة يهدي الإله بهم ـ لا يظلمون ولا بغياً يريدونا

فقلت إني على ما كان من سدر ـ أخشى عواقب أمر سوف يأتينا

إدالة القوم في أمر يُراد بنا ۞ فاقني حياء وكفّي ما تقولينا

وذكروا أنَّ عمرو بن العاص لما رأى الشرَّ استقبل، قال له معاوية: ائت ببني أبيك فقاتل بهم، فإنه إن يك عند أحد خير فعندهم.

فأتى جماعة أهل اليمن فقال: أنتم اليوم الناس وغداً لكم الشأن، هذا يوم له ما بعده من الأمر، حملوا معي على هذا الجمع. قالوا: نعم. فحملوا وحمل عمرو وهو يقول :

أكرم بجمع طيب يمان ـ جدُّوا تكونوا أولياء عثمان

إني أتاني خبر فأشجان ـ أنَّ عليًّا قتل ابن عفان

خليفة الله على تبيان ـ ردوا علينا شيخنا كما كان

فرُدَّ على عمرو:

أبت شيوخ مذحج وهمدان

بأن نردَّ نعثلاً كما كان

خلقاً جديداً مثل خلق الرحمن

---

[١]. كتاب وقعة صفين، لنصر بن مزاحم : ١٠٣ ؛ بحار الأنوار ٣٢ : ٣٩٩ .

فانبرى عمرو بن الحمق لحملة عمرو هذه ومعه أهل اليمن، قائلاً: دعوني والرجل (يعني عمرو بن العاص)، فإنَّ القوم قومي! فقال ابن بديل دع الجمع يلقى بعضهم بعضاً.

فأبى عليه، وحمل وهو يقول:

بؤساً لجند ضائع يمان ـ مستوسقين كاتساق الضّان

تهوى إلى راع لها وسنان ـ أقحمها عمرو إلى الهوان

يا ليت كفّي عدمت بناني ـ وأنّكم بالشّحر من عمَان

مثل الذي أفناكم أبكاني

ثم طعن في صدره فقتله، وولت الخيل، وزال القوم عن مراكزهم.

أقول : لا أدري صدر من هذا الذي طعنه فقتله، إن كان عمرو بن العاص وهو من قاد هذه الحملة كما هو السياق، فلعله طعنه فقط ولم تقتله الطعنة، فابن العاص لم يقتل في صفين، وإن كان المراد غيره، فلم يتضح ذلك من السياق. ولعلّ في هذه العبارة (ثم طعن في صدره فقتله) اشتباه إن كان يقصد صدر عمرو بن العاص.

وبعد ليلة الهرير أو في ليلتها، وقد رفعت المصاحف، واضطربت المواقف، فانطلقت كلمات وخطب قصيرة من هنا وهناك من الفريقين المتقاتلين، فكان لعمرو بن الحمق كلمته، التي تبيّن أنه على بصيرة من أمره، وأنّه كان واعياً فيما اختار، وأنه كان من الذين يدعون لعدم نقف القتال بل لاستمراره، ولكنه ترك الأمر والقول الأخير للإمام عليٍّ عليه السلام، كما يبدو من ذيل كلمته الرائعة فيما حدث ما بعد رفع المصاحف في وقعة صفين حين قام، فقال: يا أميرالمؤمنين، إنا والله ما أجبناك (ما اخترناك) ولا نصرناك عصبيةً على الباطل، ولا أجبنا إلاّ الله عزَّوجلَّ، ولا طلبنا إلاّ الحقَّ، ولو دعانا غيرُك إلى ما دعوت إليه؛ لا ستشرى فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحقُّ مقطعَه،

وليس لنا معك رأى!

ولكن انتهى الموقف إلى التحكيم، فكان عمرو بن الحمق ممن شهد على وثيقة التحكيم مع جمع من أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام بلغ سبعاً وعشرين، فيما الطبري ذكر عشرة أشخاص من كلِّ فريق، ولم يكن عمرو بن الحمق في العشرة من أصحاب الإمام عليه السلام.[١]

وقعة النهروان : ما إن عاد الإمام عليٌّ عليه السلام بجنده من معركة صفين حتى وقعت معركة أخرى بينه وبين أولئك المارقين؛ الخوارج في منطقة النهروان، وكان عمرو بن الحمق الخُزاعي أحد المقاتلين الأشداء فيها ...[٢]

وصار الأمر لمعاوية !

وحين صار أمر الخلافة إلى معاوية بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، وبعد أن سأله زياد بن أبيه أن يأذن له في نزول الكوفة فأذن له،... كتب معاوية إلى واليه على الكوفة يومذاك المغيرة بن شعبة أن يأخذ عدداً من أهل الكوفة بحضور صلاة الجماعة:

خذ زياداً، وسليمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وابن

---

١. وقعة صفين ٣٨١ ، ٣٩٩ ـ٤٠٠ وأيضاً ٢٢٨ وهامشها، ٤٨٢ ؛ تاريخ الطبري ٣ : ١٠٤ سنة ٣٧ ؛ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، تحقيق علي شيري، منشورات الشريف الرضي ١ : ١٤٤ ؛ نعثل: رجل من أهل مصر كان طويل اللحية. وكان عثمان إذا نيل منه وعيب، شبه بهذا الرجل المصري لطول لحيته، ولم يكونوا يجدون فيه عيباً غير هذا. انظر اللسان «نعثل» .

٢. انظر أُسد الغابة، لابن الأثير، حرف العين ؛ الاستيعاب، لابن حجر، ترجمته في باب عمرو .

الكواء، وعمرو بن الحمق، بالصلاة في الجماعة؛ فكانوا يحضرون معه في الصلاة. وإنما ألزمهم ذلك؛ لأنهم كانوا من شيعة عليٍّ عليه السلام كما ذكر ذلك ابن الأثير.

والمعروف في الكوفة، والسلطة على علمٍ منه أنَّ كلاً من حجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وأصحابهما من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، إذا سمعوا المغيرة وغيره من أصحاب معاوية، وهم يلعنون عليًّا عليه السلام على المنبر، وهي سنّة معاوية التي بلّغ بها ولاته في الأمصار، يقومون فيردون اللعن عليهم، ويتكلمون في ذلك..

أول نميمة !

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ،[1] فمن الأسوء، الذي يفتك بين الناس، ويُفسد قلوبهم، ويُطيح بالمودة بينهم، ويزرع البغضاء، ويوقد العداوات، فيقطع الصلات، ويمزق الساحة، ويشتت الجمع، ويؤذي الناس، حين يُغري السلطان الظالم في الكيد لهم .. هو ذلك الهمّاز النمَّام، الوقّاع في الناس، الساعي بينهم بالشرِّ ..

لقد عرف الوليد بن المغيرة في مكة بشدَّة عدائه لرسول الله صلى الله عليه وآله ولدعوته

---

١. سورة القلم : ١١ .

المباركة، وسخّر صفاته السيئة؛ للوقوف ضدَّ الإسلام، فنزلت فيه آيات عديدة ـ كما في أسباب النزول ـ تبيّن سيّآت أخلاقه، منها أنه ﴿.. هَمَّازٍ مَّشَّاءِۭ بِنَمِيمٍ ..﴾، ينتظره تهديد السماء ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، إذلالاً له وتحقيراً .. وكان على شاكلته عُمارة بن عقبة بن أبي معيط الأموي في الكوفة، أو يزيد بن رُويم، الذي مشى بنميمته ضدَّ عمرو بن الحمق، يلقيها بين يدي ابن زياد، وهذا المنهج الخبيث، يقوده المشاؤون بالنميم، هو الذي أفسد الساحة في الكوفة، إضافةً إلى دور المنافقين..

وقع ذلك لما مات المغيرة بن شُعبة، وضمَّ معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، وكانت أولى مهامه متابعة شيعة عليٍّ عليه السلام، .. وإذا بعُمارة بن عقبة بن أبي معيط يأتيه يوماً؛ ليقول له: إنَّ عمرو بن الحمق يجتمع إليه من شيعة أبي تراب.

فقال له عمرو بن حريث: ما يدعوك إلى رفع ما لا تيقنه، ولا تدرى ما عاقبته!

فقال زياد: كلاكما لم يصب أنت حيث تكلمني في هذا علانيةً، وعمرو حين يردك عن كلامك، قوما إلى عمرو بن الحمق فقولا له: ما هذه الزرافات، التي تجتمع عندك من أرادك أو أردت كلامه ففي المسجد؟!

ويقال: إنَّ الذي رفع على عمرو بن الحمق وقال له: قد أنغل المصرين؛ يزيد بن رُويم.

فقال عمرو بن الحريث: ما كان قط أقبل على ما ينفعه منه اليوم.

فقال زياد ليزيد بن رُويم: أما أنت فقد أشطت بدمه، وأما عمرو فقد حقن دمه،

ولو علمت أن مخَّ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج عليَّ![1]

فهذه أول نميمة، كان ابن الحمق ضحيتها، نُمَّ بها إلى زياد بن أبيه ابن سمية، في بداية ولايته الكوفة من قبل المشائين بها، ثمَّ توالت بعدها جهود الذين مردوا على النفاق في الكوفة وهم كثر، ضدَّ شيعة الإمام عليٍّ عليه السلام، وإن كان زياد هو بنفسه رسم منهجاً قاسياً لتحقيق ما يصبو إليه، وهو ملاحقة أتباع عليٍّ عليه السلام، وقد اختاره معاوية لذلك، وزياد ذو المخالب لم يكن مترويًّا أو كارهاً للدماء والخوض فيها، ولكنه كان ينتظر الفرصة التي ينقضُّ فيها على هؤلاء القوم وهو يعرف جرأتهم وصلابتهم وبصيرتهم... وهو في هذه الحالة إذ وقعت مشادّةٌ بين أزلامه من جهة وبين حجر بن عدي وأصحابه من جهة أخرى أمام زياد، الذي راح ينظر إليهم وهو على المنبر، فغشوا بالعمد، فضرب رجل من الحمراء يقال له: بكر بن عبيد رأس عمرو بن الحمق بعمود فوقع، وأتاه أبو سفيان بن عويمر والعجلان بن ربيعة وهما رجلان من الأزد فحملاه، فأتيا به دار رجل من الأزد يقال له : عبيد الله بن مالك فخبّأه بها فلم يزل بها متوارياً حتى خرج منها ..

وعن توبة هذا الرجل الذي ضرب عمرو بن الحمق وندمه واعترافه بصلاح عمرو، يقول عبد الله بن عوف بن الأحمر: لما انصرفنا من غزوة باجُميرا قبل مقتل مصعب بعام، فإذا أنا بأحمري يسايرني، ووالله ما رأيته من ذلك اليوم الذي ضرب فيه عمرو بن الحمق، وما كنت أرى لو رأيتُه أن أعرفه، فلما رأيته ظننتُ

---

١. انظر كلاً من الطبري في تاريخه ٣ : ١٧٧ سنة ٤٢ و ٢٠٨ سنة ٥٠ ؛ وابن الأثير في الكامل ٣ : ٤٢٤ سنة ٤٢ .

أنه هو هو؛ وذاك حين نظرنا إلى أبيات الكوفة، فكرهت أن أسأله أنت الضارب عمرو بن الحمق فيكابرني.

فقلت له: ما رأيتُك من اليوم الذي ضربت فيه رأس عمرو بن الحمق بالعمود في المسجد إلى يومى هذا، ولقد عرفتُك الآن حين رأيتُك!

فقال لي: لا تعدم بصرك، ما أثبت نظرك! كان ذلك أمر الشيطان، أما إنه قد بلغني أنه كان أمرءاً صالحاً، ولقد ندمتُ على تلك الضربة، فأستغفر الله!

فقلت له: ألا ترى والله لا أفترق أنا وأنت حتى أضربك على رأسك مثل الضربة، التي ضربتها عمرو بن الحمق أو أموت أو تموت!

فناشدني الله وسألني الله، فأبيت عليه، ودعوت غلاماً لي يدعى رشيداً من سبى أصبهان معه قناة له صُلبة، فأخذتها منه، ثم أحمل عليه بها، فنزل عن دابته، وألحقه حين استوت قدماه بالأرض، فأصفع بها هامتَه، فخر لوجهه، ومضيت وتركته. فبرأ بعدُ، فلقيتُه مرّتين من الدهر، كلّ ذلك يقول: الله بيني وبينك!

وأقول: الله عزّوجلّ بينك وبين عمرو بن الحمق...![1]

واستمرّت الوشايات لا تنقطع عن زياد، وكان منها أنَّ حجرًا وأتباعه يجتمعون، فيتكلمون ويدبرون عليه وعلى معاوية، ويذكرون مساويهما، ويحرضون الناس،.. فأخذ حجر بن عدي الكندي وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه فأشخصهم إلى معاوية، وكتب فيهم أنهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تراب، وزروا على الولاة، فخرجوا بذلك من الطاعة ...

---

١. تاريخ الطبري ٤ : ١٩٢ سنة ٥١ .

أول رأس ! لقد كان رأس الصحابي الجليل عمرو بن الحمق أولَ رأس في الإسلام طيف به في البلدان وبينها؛ ليحكي للناس وللأجيال ظلم الظالمين وطغيانهم، وجرأتهم على الله تعالى وتنكيلهم بعباده الصالحين، ولنعم ما قاله سيدُ شهداء أهل الجنّة وإمامُهم؛ الحسين بن عليٍّ عليهما السلام في كتابٍ له بعثه إلى معاوية بن أبي سفيان:

«... أوَ لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه وصفرت لونه، بعدما آمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه، ما لو أعطيته طائراً؛ لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جرأةً على ربّك، واستخفافاً بذلك العهد»؟!!

وكان معاوية قد بعث إلى عمرو بن الحمق كتاباً، حين صار أمر الخلافة إليه بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، أما بعد؛ فإنَّ الله أطفأ النائرة، وأخمد الفتنة، وجعل العاقبة للمتقين، ولست بأبعد أصحابك همةً، ولا أشدهم في سوء الأثر صنعاً، كلهم قد أسهل بطاعتي، وسارع إلى الدخول في أمري، وقد بطؤ بك ما بطؤ، فادخل فيما دخل فيه الناس، يمح عنك سالف ذنوبك، ومحي داثر حسناتك، ولعلي لا أكون لك دون من كان قبلي إن أبقيت واتقيت ووقيت وأحسنت، فاقدم عليَّ آمناً في ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وآله محفوظاً من حسد القلوب وإحن الصدور، وكفى بالله شهيداً!

ولكن عمرو بن الحمق لم يقدم عليه. فما كان من معاوية إلاّ أن يبعث إليه من يبحث عنه ليقتله. وفعلاً حصل له ما كان يبغيه، وقع هذا بعد أن راح عبيد الله بن زياد، بأمر من معاوية بمتابعة أصحاب حجر بن عدي، وقد كان عمرو من أصحاب حجر، فلما كان من أمر حجر ما كان، طلب زياد رؤساء أصحابه ، فما كان من عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد، وقد كانا متوارين متخفيين في الكوفة ، إلاّ أن انحازا إلى شهرزور من الموصل، أو أن يخرجا حتى نزلا المدائن، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل

، فأتيا جبلاً فكمنا فيه، وبلغ عامل ذلك الرستاق أنَّ رجلين قد كمنا في جانب الجبل، فاستنكر شأنهما ـ وهو رجل من همدان يقال له: عبد الله بن أبي بلتعة ـ فسار إليهما في الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد، فلما انتهى إليهما خرجا، فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً، وكان بطنه قد سقى، فلم يكن عنده امتناع، وأما رفاعة بن شداد، وكان شاباً قوياً ـ فوثب على فرس له جواد، فقال له: أقاتل عنك؟ قال: وما ينفعني أن تقاتل! انج بنفسك إن استطعت، فحمل عليهم، فأفرجوا له، فخرج تنفر به فرسه، وخرجت الخيل في طلبه ـ وكان رامياً ـ فأخذ لا يلحقه فارس إلاّ رماه فجرحه أو عقره، فانصرفوا عنه، وأخذ عمرو بن الحمق، فسألوه: من أنت؟

فقال: من إن تركتموه كان أسلم لكم، وإن قتلتموه كان أضرَّ لكم، فسألوه، فأبى أن يخبرهم، فبعث به ابن أبي بلتعة إلى عامل الموصل ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي ـ فلما رأى عمرو بن الحمق عرفه، وكتب إلى معاوية بخبره؛ فكتب إليه معاوية: إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه، وإنا لا نريد أن نعتدي عليه، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان، فأخرج إلى دون الدير الأعلى، فطعن تسع طعنات، فمات في الأولى منهن أو الثانية!

وروى المدائني أنه كان من خيار المسلمين وشهد مع النبيِّ ﷺ بدرًا وما بعدها من المشاهد ، وكان من ذوي البصائر في صحابة عليٍّ عليه السلام، وكان معاوية أعطاه الأمان، فدخل إليه يومًا فخاطبه بما أحفظه، فأجمع على قتله، فخرج عمرو إلى العراق واستخفى، فأخذت زوجته فحبست في دمشق سبع سنين إلى أن قتل عمرو، وكان يتنقل في البلاد حتى صار إلى ناحية الموصل مستترًا، وألح معاوية في طلبه وكان معه رفيق اسمه زاهر فلسع عمرو في جوف الليل فقال لرفيقه: يا زاهر إنّ النبي ﷺ أخبرني أنه سيشترك في قتلي الجن والإنس وقد لسعت، وما أشك أن الطلب يظفر بي، فإذا

نظرت إليهم تنح عني، فإذا قتلوني وأخذوا رأسي فوارني، وعف أثري، فلما أصبح دخل الطلب عليه الكهف، وضربوا عنقه في موضع المسجد فلما انصرفوا جاء زاهر فواراه، ويقال: إنّ صاحبه دل عليه أيضًا فقتل. وفي خبر آخر: بلغ عبد الرحمن بن أمّ الحكم ـ وكان عامل معاوية على الموصل ـ مكان عمرو بن الحمق الخزاعي، ورفاعة بن شداد، فوجه في طلبهما فخرجا هاربين، وعمرو بن الحمق شديد العلّة، فلما كان في بعض الطريق لدغت عمراً حيّة، فقال: الله أكبر! قال لي رسول الله: «يا عمرو! ليشترك في قتلك الجن والإنس». ثم قال لرفاعة: امض لشأنك؛ فإني مأخوذ ومقتول! ولحقته رسلُ عبد الرحمن بن أمِّ الحكم، فأخذوه وضربت عنقه، ونصب رأسه على رمح، وطيف به، فكان أول رأس طيف به في الإسلام! وعن إكمال الدين،... وكان عمرو بن الحمق من كبار أصحاب النبيِّ ﷺ شهد معه أكبر مغازيه، ولما توفي عليٌّ؛ بث معاوية الطلب لوجوه أصحابه ومذكوريهم، فكتب إلى زياد في طلب عمرو ورفاعة بن شداد، وكانا من أهل البصرة، فخافا وخرجا حتى صارا إلى الموصل وهما متنكران، فأما عمرو فكان يقطع الشوك ويبيعه بها ليخفى أمره، ويأوي إذا جنّه الليل إلى كهف تحت الدير الأعلى فأقام على ذلك مدةً، ثم إنه اعتل علة أدته إلى الاستسقاء، فكان في كهفه ذلك في زي المساكين يخرج في النهار يتقمم من نبات الصحراء إلى أن اجتاز بعض قواد معاوية بالموصل في أمر له فنزل هو وأصحابه في الدير الأعلى، فعرف عمرًا رجل كان مع القائد، فقال: بغية الخليفة والله، فأخذ القائد عمرًا وهو شديد العلة، فأمر به فذبح في يوم جمعة وقت الصلاة، وأنفذ رأسه إلى الشام شهورًا، وبقي بدنه في موضع قتله أيامًا لا يعرفه شيء من الهوام ولا الطير، وتحامى الناس دفنه خوفًا من الخليفة حتى انبرا له رجل من الرهبان فدفنه في موضع المسجد الآن فأمر معاوية بقتل الراهب!

وتعددت الأقوال في تاريخ وفاته: (سنة٥١، ٥٠، ٥٧،٦٠) هجرية. وله تسعون

سنة برأس قد حزَّ، فعن عمرو بن الحمق قال: حدثني رسول الله ﷺ: «إنَّ رأسي أول رأس يحزُّ في الإسلام وينقل من بلد إلى بلد». وهو خال من الشيب استجابة لدعاء الرسول ﷺ.[١]

زوجته :

آمنة بنت الشريد، التي ما إن يذكر زوجها عمرو بن الحمق حتى يذكر لا فقط وفاؤها وإخلاصها لزوجها، بل صدقها لإسلامها، وولاؤها للإمام عليٍّ عليه السلام، وشجاعتها وفصاحتها وثقتها بنفسها وبإيمانها وحزمها وجرأتها على طاغية عصرها معاوية وأزلامه، ولها معه مواقف مشهودة، وأقوال بليغة وجريئة، سجلتها أخبار المؤرخين، واحتفظت بها سيرةً عطرةً ، وقدوةً نافعةً لكلِّ نَفْسٍ أبيَّةٍ، ترفض الذلَّ والانصياع للظالمين، غدت ذكرى طيبةً لا فقط للنساء بل لكلّ رجل حرٍّ شريف عزيز، ولقد تجلّت مواقفها، حين رفضت البراءة من ولاية أميرالمؤمنين عليٍّ عليه السلام، حينما طلب ذلك منها معاوية أو أزلامه.. نجد كلَّ هذا وغيره بعد أن سُجنت؛ لتكون أول امرأة تسجن في الإسلام انتقاماً من زوجها، وإذلالاً لعزّتها، وكأنهم يرجون من سجنها ورقة ضغط على زوجها؛ ليركع لهم ويُعطيهم ما يريدون، حتى ترك معاوية بعمله هذا سنّةً سيئةً لمن جاء بعده من الطغاة والظالمين بأن يعتقلوا عوائل معارضيهم، ويُنزلوا بهم الذلَّ والهوان والقتل...

---

١. إكمال تهذيب الكمال رقم ٤٠٨١ ؛ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، تحقيق علي شيري، منشورات الشريف الرضي ١ : ٢٠٣ .

لم يتمكن زياد من إلقاء القبض على ابن الحمق، فبقي هذا الصحابي الجليل بعيداً عن أنظاره، وقد أمر بالبحث عنه؛ ولما عجز عنه، ألقى القبض وبأمر من معاوية على زوجته آمنة بنت الشريد؛ ليرسلها إلى معاوية، الذي ألقاها في سجن من سجون دمشق؛ لتكون أول سجينة، وليكون معاوية «أول من حبس النساء بجرائر الرجال»!

وزادت آمنةُ شجاعةً وجرأةً وثباتاً حينما جاءُوا برأس زوجها بعد حزّه إلى معاوية، الذي أمر ـ بعد أن يُطاف به في أزقة وشوارع دمشق ـ أن يُبعث به إليها، وأوصى الحرسيَّ قائلاً له: احفَظْ ما تتكلّم به آمنة كي تُؤدّيَه إليّ، واطرح الرأسَ في حِجْرها! ومن هنا راحت الأخبار تحمل ما جرى لهذه المرأة المؤمنة الصابرة وهي في قبضة سلطان ظالم لم يرعَ حرمةً لأحد بعيد عن دائرة طاعته رجلاً كان أو امرأةً، فكان موقفُها عظيماً، وجرأتُها على جلاديها وسجّانيها شديدةً، وكلماتُها بليغةً مدويةً؛ ضمّها أكثرُ من حوار معهم، فأبلت فيه بلاءً حسناً، وكان ذلك أشدَّ عليهم من وقع السيوف والرماح..، حدث هذا بعد أن فعل الحرسيُّ ما أمره معاوية، بأن ألقى الرأس عليها، وما ان استقر في حجرها حتى كانت المفاجأة قاسية، نظرت إليه، وقد فارقته سنوات عديدة؛ منها سبع أو سنتين في سجنها، ارتاعت للرأس ساعةً، أطرقت برأسها قليلاً تعالج هواجس نفسها وعواطفها؛ جالت حول ذكرياتها؛ لترمق السماء بعينيها، وأنَّ ما أصاب زوجها كان بعين الله تعالى، ثمّ وضَعَت يدها على رأسها قائلةً: واحُزناه لصِغَره في دار هَوان، وضيقٍ من ضيمة سلطان! ووضعت كفّها على جبينه، ثم لثمت فاه ..

ولها هنا أقوال عديدة ذكرتها أقلام بعض المؤرخين قالتها لمعاوية ولرسله ولأعوانه، يمكننا تلخيصها تحت عنوان:

ألا أبلغ معاوية عني: نَفَيتُموه عنّي طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بِمَن كنتُ له غيرَ قالية، وأنا له اليومَ غيرُ ناسية! أو (فأهلاً وسهلاً من هديّةٍ غيرِ قاليةٍ

ولا مَقليّة!)

إرجعْ به (أي برأس ابن الحمق) ـ أيّها الرسول ـ إلى معاوية وقل له ولا تطوهِ دونه: **أيْتَمَ اللهُ وُلْدَك، وأوحَشَ منك أهلَك، ولا غفر الله لك ذَنْبَك!**

طَلَب اللهُ بدمه، وعجّل الويلَ من نِقمه، فقد أتى أمراً فَريّا، وقتَلَ بارّاً تقيّا! لقد حفظ الحرسيُّ كلَّ ما نطقت به آمنة وأدّاه لسيده وولي نعمته بأمانة، وذلك حين رجع إليه فأخبره بما قالت، فما كان من معاوية وقد راعه ما سمعه، إذ سمع كلمات لم تكن تتحملها نفسه، ولم تخطر على باله من امرأة لم يذلها السجن ولم يُضعفها الهوان، ولم يُخفها طول بقائها سجينةً وحيدةً بعيدةً عن أهلها، وفقدت حبيبها فأثكلت به، فما كان منه إلاّ أن أرسل إليها، فأتَتْه وعنده نفرٌ فيهم إياس ابن حسل، وكان في شَدَقَيه نتوء عن فيه لعظمٍ كان في لسانه وثقل إذا تكلّم، فقال لها معاوية:

أأنتِ ـ يا عدوّةَ الله ـ صاحبةُ الكلام الذي بَلَغني، أو أنتِ القائلة ما قلتِ؟! نعم، غيرَ منازَعةٍ عنه، وغيرَ ناكلةٍ عنه، ولا معتذرةٍ منه، ولا مُنكرةٍ له، فلَعَمْري لقد اجتهدتُ في الدعاء إن نفَعَ الاجتهاد، وإنّ الحقّ لَمِن وراءِ العباد، وما بلغتَ شيئاً من جزائك، وإنّ الله بالنقمة من ورائك! فأعرض عنها معاوية، فقال إياس: اقتُلْ هذه ـ يا أميرالمؤمنين ـ، فواللهِ ما كان زوجها أحقَّ بالقتل منها! فالتفَتَت إليه آمنة، فلمّا رأته ناتئَ الشدقَين ثقيلَ اللسان قالت له: تبًّا لك، وَيْلَك بين لِحْيَيك كجثمان الضفدع، ثمّ أنت تدعوه إلى قتلي كما قتل زوجي بالأمس، إن تُريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين!

أما الآخر عبد الله بن سرح، فلمّا أشار على معاوية قائلاً له: يا أمير المؤمنين! إنّها منافقة، فألْحِقْها بزوجها.

نظرت إليه فقالت: يا من بين لحيتيه كجثمان الضفدع، ألا قلت من أنعمك خلعاً

وأصفاك كساءً؟! إنّما المارق المنافق مَن قال بغير الصواب، واتّخذ العباد كالأرباب، فأُنزل كفرُه في الكتاب.

قال لها معاوية: أخرجي من بلادي. قالت: أفعل، فوالله ما هو لي بوطن ولا أحنُّ فيها إلى سجن، ولقد طال بها سهري واشتد بها عبري، وكثر فيها ديني من غير ما قرت به عيني! أو؛ فأومأ معاوية إلى الحاجب بإخراجها.

فقالت: وا عجباه من ابن هند، يشير إليَّ ببنانه، ويمنعني نوافذ لسانه، أما والله لأبقرنه بكلام عتيد كنوافذ الحديد، أو ما أنا بآمنة بنت الشريد!

وفي قول: فضحك معاوية، ثمّ قال لها: لله دَرُّكِ اخرُجي، ثمّ لا أسمع بكِ في شيءٍ من الشام.. وقالت: وأبي لأخرجنّ، ثم لا تسمع لي في شيء من الشام، فما الشام لي بحبيب، ولا أعرج فيها على حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحنّ فيها إلى سكن. ولقد عظم فيها دَيني، وما قرّت فيها عيني، وما أنا فيها إليكَ بعائدة، ولا حيث كنتُ بحامدة..

فأشار إليها ببَنانه أن اخرجي،فخرجت وهي تقول : واعَجَبني لمعاوية يكفّ عنّي لسانه، ويُشير إلى الخروج ببنانه، أما واللهِ ليعارضنّه عمرُو بكلام مؤيَّدٍ سديد، أوجع من نوافذ الحديد، أوَ ما أنا بابنة الشريد؟ ثمّ التفت معاوية إلى عبيد بن أوس فقال له: ابعَثْ لها ما تقطع به عنها لسانها، وتقضي به ما ذكرت من دَينها، وتخفّ به إلى بلادها. وقال: اللهم اكفني شرّ لسانها! فلما أتاها رسول معاوية، أو: فلما أعطيت ما أمر لها به، قالت له: يا عَجَبي لمعاوية! يقتل زوجي ويبعث إليّ بالجوائز..!

وفي خبر، كان هذا منها: إذ هي قد خرجت؛ تلقاها الأسود الهلالي، وكان رجلاً أسود أصلع أسلع أصعل، فسمعها وهي تقول ما تقول، فقال: لمن تعني هذه؟ ألأمير المؤمنين تعني؟ عليها لعنة الله! فالتفتت إليه، فلما رأته، قالت: خزياً لك وجدعاً، أتلعنني واللعنة بين جنبيك، وما بين قرنيك إلى قدميك، اخسأ يا هامة الصعل، ووجه الجعل،

فأذلل بك نصيراً، وافلل بك ظهيراً! فبهت الأسلع ينظر إليها، ثم سأل عنها فأخبر، فأقبل إليها معتذراً خوفاً من لسانها! فقالت: قد قبلت عذرك، وإن تعد أعد، ثم لا أستقيل ولا أراقب فيك! فبلغ ذلك معاوية، فقال: زعمت يا أسلع أنك لا تواقف من يغلبك، أما علمت أنَّ حرارة المتبول ليست بمخالسة نوافذ الكلام عند مواقف الخصام؟! أفلا تركت كلامها قبل البصبصة منها والاعتذار إليها؟! قال: أي والله يا أمير المؤمنين، لم أكن أرَ شيئاً من النساء يبلغ من معاضيل الكلام ما بلغت هذه المرأة، جالستها فإذا هي تحمل قلباً شديداً، ولساناً حديداً، وجواباً عتيداً، وهالتني رعباً، وأوسعتني سبًّا! ثمَّ التفت معاوية إلى عبيد بن أوس، فقال: ابعث لها ما تقطع به عنا لسانها، وتقضي به ما ذكرت من دينها، وتخف به إلى بلادها، وقال: اللهم اكفني شرَّ لسانها! فلما أتاها الرسول بما أمر به معاوية، قالت: يا عجبي لمعاوية يقتل زوجي، ويبعث إليّ بالجوائز، فليت أبي كرب سدَّ عني حره صله، خذ من الرضعة ما عليها. فأخذت ذلك.

وفاتها :

وخرجت تريد الجزيرة، فمرّت بحمص فقتلها الطاعون، فبلغ ذلك الأسلع، فأقبل إلى معاوية كالمبشر له. فقال: افرخ روعك يا أمير المؤمنين، قد استجيبت دعوتك في ابنة الشريد، وقد كفيت شرَّ لسانها! قال: وكيف ذلك؟! قال: مرّت بحمص فقتلها الطاعون. أو أنها خرجَت تريد الجزيرة، فمرّت بحمص فقتلها الطاعون. فقال له معاوية: فنفسك فبشر بما أحببت، فإنَّ موتها لم يكن على أحد أروحَ منه عليك، ولعمري ما انتصفت منها حين أفرغت عليك شؤبوباً وبيلاً! فقال الأسلع: ما أصابني من حرارة لسانها شيءٌ،

إلاّ وقد أصابك مثله أو أشدّ منه!![1]

أقول:

وليس ببعيد أنها قُتلت وهي في طريقها من دمشق إلى الكوفة بوسيلة من وسائل معاوية التي اتبعها مع معارضيه! وقد انتقلت آمنةُ في سنة وفاة زوجها إلى بارئها حزينةً مظلومةً شاكيةً بغي الظالمين. فرضوان الله تعالى عليه وعليها، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾.[2]

وهناك بالموصل المشهد الجليل المبني على قبر عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ، بناه الأمير أبو عبد الله الحسين بن سعيد ابن حمدان سنة سبع وثلاثين ومائة.

وأنشد الخالدي يمدح الأمير أبا عبد الله:

جددت من قبر عمرو مشهداً
شهدت له التقى بصلاح غير مجهول
جعلته مسجداً يُتلى به أبداً
ما أنزل الله من وحي وتنزيل

---

١. الاختصاص، للشيخ المفيد : ١٩ ؛ الأعلام، للزركلي ١ : ٢٦ ؛ الموسوعة الحرّة: بلاغات النساء لابن طيفور، كلام آمنة بنت الشريد، عن العباس بن بكار قال .. أُسد الغابة لابن الأثير، والديارات : ١١٤ وأعلام النساء ١ :٤ .

٢. الشعراء : ٢٢٧ .

هاذي ملائكة الرحمن موقدة

فيها قناديلها بين القناديل.

وفي كتاب ابن الأثير: وقبره مشهور بظاهر الموصل يزار، وعليه مشهد كبير، ابتدأ بعمارته أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان ـ ابن عمّ سيف الدولة وناصر الدولة ابني حمدان ـ في شعبان سنة ست وثلاثين ومائة! ويُقال: دفن إلى جانب دير الأعلى، وعن هذا الدير جاء في معجم البلدان أنه بالموصل في أعلاها على جبل مطلٍّ على دجلة.. وإلى جانب هذا الدير مشهد عمرو بن الحمق الخُزاعي. هناك مسجد بنته بنو حمدان يتصل بالقبر، وأنشد له المرزباني في معجمه:

ياعمرو يابن الحمق بن عمرو ـ من معشر شيم الأبوين

ياعمرو يابن الحمق بن عمرو ـ من معشرٍ شُم الأُنوفِ زهرِ.[1]

ختاماً نختصر فقرات لها علاقة بمقالتنا من كتابٍ طويلٍ بما فعله معاوية وموجبات لعنه في تاريخ الطبري؛ عنوانه: (ذكر كتاب المعتضد في شأن بني أمية): (وفي) هذه السنة عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرأ على الناس ، وتحدث الناس أن الكتاب الذي أمر المعتضد بإنشائه يُقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلما صلى الناس الجمعة بادروا إلى المقصورة؛ ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يُقرأ. فذُكر أن المعتضد أمر بإخراج الكتاب الذي كان المأمون أمر بإنشائه بلعن معاوية، فأخرج له من الديوان...

---

١. إكمال تهذيب الكمال رقم ٤٠٨١ ؛ أُسد الغابة ٤ : ١٠١ ؛ منية الأدباء : ١٤٦ ؛ تاريخ الطبري ١٠ : ٥٩ .

ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكراً علي بن أبي طالب ينازعه حقَّه بباطله، ويجاهد أنصاره بضُلاله وغواته،...ثم مما أوجب الله له به اللعنة قتله من قتل صبراً من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة مثل عمرو بن الحمق وحُجر بن عدي فيمن قتل أمثالهم؛ في أن تكون له العزة والملك والغلبة،... ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله ادعاؤه زياد بن سمية جرأةً على الله... ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبر الخمير... فلما تمكن مما مكّنه منه... ثمَّ من أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ...[١]

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

١. تاريخ الطبري (ت٣١٠هـ) ٥ : ٦١٩ ـ ٦٢٥ .

المعيصم

محمد سعيد النجاتي.[١]

الملخص:

اعتماداً على الموقع الالكتروني، والذي يجيب عن شتى الأسئلة، واستفادةً مما أعدّته اللجنة المختصة في بعثة الحج الإيرانية لسنة ١٤٣٩هـ سلط الكاتب في تقريره هذا الضوء على الأبعاد المتعددة لهذا المشروع:

آلية الذبح في المجازر الحديثه، فهرست البلدان المستفيدة من الاضاحي، مراكز توزيع لحوم الأضاحي في المملكة السعوديه، الإحصائيات المرتبطة بالذبح والأضاحي في موسم الحج...

الكلمات المفتاحيه:

الأضاحي، معيصم، مشعر منى، حج، مشروع الأضاحي

---

١. الدكتور الشيخ محمدسعيد النجاتي(الكاشاني)،عضو اللجنة العلمية لمعهد الحج و الزيارة في قم المقدسة.nejati١٣@gmail.com

المقدمه:

نظراً للتطور الكبير في وسائل التقنية وآليات السفر والنقل والحمل، وتوفر الأمان والراحة والسكن، تضاعفت أعداد الحجاج كثيراً، فكثرت الأضاحي، وعمليات الذبح التي أدى بعضها، وبسبب الزحام وعدم الانتظام في بعض السنين إلى وقوع ضحايا بين الحجاج... كما أنّ عدم توفر الامكانيات المستلزمة للاستخدام الصحيح للحوم الأضاحي أدى التلويث وشيوع الأمراض بين الحجيج و إلى عدم الاستفادة منها إطعام المحتاجين من القانع والمعتر، مما أتلف المنافع المتوخاة من هذا النسك ..

وقد ذكر هذه الظواهر السلبية الكثير من حجاج هذه الفترات الزمنية في رحلاتهم وذكرياتهم عن الحج، كما أنّ هذه المحاذر أدت إلى اتخاذ قرار حاسم من قبل سلطات الحرمين في أدوار مختلفة لإنهائها، بينما أفتى الأغلب من علماء الشيعة والسنة بلزوم متابعة هذه العملية العبادية، ومنع أي سبب لوقوع الفساد المذكور آنفاً..[1]

وفي العقود الأخيرة دعت الاعتراضات الكثيرة من هنا وهناك إلى اتخاذ قرار بين الحكومه السعودية وبنك التوسعه الإسلامية مع مشاركة عدد من بعوث الحج لإيجاد حلٍّ لهذه المشكلة. فقاموا بتأسيس أول مذبح كبير مجهز بتقنيات رفيعة المستوي لحفظ اللحوم من التلف في وادي محسر بجانب مشعر منى، بادئاً بتقديم خدماته لعدد قليل من

١. حج در قرآن : ٨٩ ـ ٨٥ ؛ حكم الأضحية في عصر نا : ١٥ ؛ مقاله از هندوستان تا حريم يار، محمد على مقدادى، فصلنامه «ميقات حج ١٤ : ١٧٠ ؛ محمد جواد مغنيه، فقه الإمام الصادق عليه السلام ٢ : ٢٣٧ .

الحجيج..[١]

وقد أدت الاحتياجات إلى تطوير هذا المشروع وتوسيعه، ونقل المذابح من وادي محسر إلى مُعَيْصم على ٥٠٠ متر بالقرب من مشعر منى، في عام ١٤٢٠ هجرى، لينتفع منه جميع الحجاج به في موسم الحج، وأهل مكة وغيرها في طيلة السنة.[٢]

وحتى يتم التعرف على هذا المشروع المسمى بمشروع الأضاحي، فعلينا بالموقع المخصص له رسمياً على النت، ونضيف إليه المعلومات التي تخصّ الأضاحي للحجاج الإيرانيين من قبل بعثه الحج الإيرانية، والتي حصلنا عليها من مقابلة أجريناه مع الأستاذ أسداللهي مسئول ذبح الأضاحي في البعثه الحج الإيرانية في الفترة الأخيرة وهي تشمل نقاطاً مهمة.

التعريف بالمشروع

أنشئ مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي عام ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م وأسندت مهمة إدارته إلى البنك الإسلامي للتنمية، ويشرف على أعمال المشروع لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي المشكّلة من عدد من الجهات الحكومية في المملكة العربية السعودية.

يعمل في إطار المشروع كلّ عام حوالي (٤٠،٠٠٠) فرد من القوى العاملة، تشمل الجزارين ومساعديهم والأطباء والبيطريين، والمشرفين الشرعيين، والإداريين،

١. فصلنامه «ميقات حج» ٧ : ٩٣ .

٢. آثار اسلامى مكه ومدينه : ١٧٠.

والجهاز الفني المسؤول عن التشغيل والصيانة والإدارة والإعاشة والرعاية الطبية، ووسائل النقل.

مشاريع تطويرية لمجازر «مشروع الأضاحي» في منطقة المشاعر المقدسة، نجح مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي في إنجاز ١٠ مشاريع تطويرية نوعية لمجازر المشروع تنوعت بين تحديث أنظمة تشغيل الآلات، وتحسين التجهيزات الكهربائية اللازمة، وهذه من شأنها زيادة الكفاءة التشغيلية لمجازر ومواقع المشروع في منطقة المشاعر المقدسة.

https://www.adahi.org/Arabic/WhoWeAre/Pages/Missi on-And-Goals.aspx(

وأوضح المشرف العام على المشروع الأستاذ/ رحيمي أحمد رحيمي، أنّ المشاريع التطويرية تهدف إلى رفع كفاءة العمل والتسهيل على حجاج بيت الله الحرام، ومن أهم المشاريع المطورة، استبدال سيور المخلفات بمجزرة المعيصم رقم ١، بالإضافة إلى استبدال المحولات الكهربائية بمجزرتي المعيصم رقم (٢)، (٣)،لافتاً إلى أنه تمّ عزل أرضية الثلاجات بمجزرتي المعيصم رقم (٢)، (٣) المطوّرتين.

وأضاف الأستاذ/ رحيمي موضحاً أبرز الأعمال المنجزة بمنطقة المجازرمتمثلة، باستبدال مواسير مياه المكثّفات التبخيرية بوحدات المجزرة الحديثة، وكذلك إنشاء غرف تبريد (ثلاجات) بمجزرتي المعيصم رقم (٢)، (٣) المطوّرتين، وتحديث أجهزة الحماية بمحطات الجهد المتوسط بوحدات المجزرة الحديثة.

فيما تم إجراء التجهيزات الكهربائية اللازمة لتوصيل مولّدات الطوارئ، وتبعه أيضاً تطوير نظم التحكم والتشغيل لجنازير الغسيل والوزن الآلي.

وأكدّ الأستاذ/ رحيمي أنّ الحكومة أولت اهتماماً بالغاً بخدمة ضيوف الرحمن،

وأخذت على عاتقها تطوير الخدمات المقدمة لحجاج بيت الله الحرام، ومن ضمنها مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي ومواصلة تطوير المجازر التابعة للمشروع تزامناً مع تزايد أعداد الحجاج، بهدف رفع الطاقة الاستيعابية والإنتاجية للمجازر الثمانية في منطقة المشاعر المقدسة.

ويهدف المشروع في مجمله إلى التسهيل على حجاج بيت الله الحرام لأداء نسك الهدي والأضاحي والفدية، وكذلك أداء نسك الفدية والصدقة نيابة عنهم لمن يرغب من عموم المسلمين وتوزيع اللحوم على مستحقيها، سواء داخل المملكة أو خارجها ليشمل حوالي (٢٥) دولة حول العالم.

https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pag
.aspx١٠٠٩es/news

رسالة المشروع:

التسهيل على حجاج بيت الله الحرام لأداء نسك الهدي والفدية، وكذلك أداء نسك الأضحية والصدقة نيابة عنهم لمن يرغب من عموم المسلمين وتوزيع اللحوم على مستحقيها.

أهداف المشروع:

الحفاظ على بيئة المشاعر المقدسة
توفير الشروط الشرعية والصحية بالذبائح.
توزيع اللحوم على الفقراء والمستحقين.

الإفادة من المخلفات وتوزيع عائدها على فقراء الحرم
لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي

الجهات الحكومية التي تمثل لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي:

وزارة الشؤون البلدية والقروية (مشروع تطوير منى ـ أمانة العاصمة المقدسة).
وزارة الداخلية (إمارة منطقة مكة المكرمة).
وزارة المالية.
وزارة العدل.
وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد.
وزارة الحج والعمرة.
وزارة البيئة والمياه والزراعة.
معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة.
البنك الإسلامي للتنمية.

۞ ۞ ۞

المرافق والتجهيزات:

وحدات التشغيل:

المعيصم النموذجية رقم (١)

المعيصم رقم (٢) المطورة.

المعيصم رقم (٣) المطورة.

الجمال والأبقار رقم (٤)

الوحدة (ب)

الوحدة (د)

الوحدة (هـ)

الوحدة (و)

نظام التشغيل:

تعمل الوحدات بنظام الورديات حيث يعمل الجزارون والشرعيون والعمالة المساندة إلى جانب الأطباء البيطريين للتأكد من توافر جميع الشروط الشرعية والصحية في الأنعام.

وتنقسم وحدات التشغيل إلى قسمين:

(١ وحدات مفتوحة.

(٢ وحدات مغلقة.

الوحدات المفتوحة:

هذه الوحدات خاصة بالأغنام ومفتوحة للجميع حيث يشتري الحاج عند مدخل الوحدة سنداً أو أكثر بعدد الأغنام التي يرغب في شرائها، وبإمكان الحاج أداء نسكه بنفسه أو تحت إشرافه ومن ثم تتولى إدارة المشروع إتمام عملية السلخ والتنظيف، إلى غير ذلك.

تشمل الوحدات المفتوحة:

الوحدات الحديثة للأغنام (ب ، د ، هـ ، و)

وحدة الجمال والأبقار.

وفي وحدة الجمال والأبقار يقوم الحاج بشراء الأنعام من التاجر مباشرة ويضاف مبلغ (١٥٠ ريالاً) إلى قيمة الشراء لتغطية جزء من تكاليف التشغيل والخدمات الشرعية والبيطرية وإيصال اللحوم إلى المستحقين.

الوحدات المغلقة (التوكيل):

يتم العمل فيها بنظام التوكيل حيث يقوم الحاج بشراء السندات من منافذ البيع ويقوم المشروع بتنفيذ النسك نيابة عنه.

هذه الوحدات هي:

وحدة المعيصم النموذجية رقم (١)

وحدة المعيصم رقم (٢) المطورة.

وحدة المعيصم رقم (٣) المطورة.

كما يمكن أن يسمح لكلّ (٣٠) حاجاً فأكثر إرسال وكيل عنهم ليقوم بالإشراف على تنفيذ النسك نيابة عن موكليه ويعطى تصريح دخول وحدة المعيصم النموذجية رقم (١)

https://www.adahi.org/Arabic/WhoWeAre/FacilitiesAndEquipment/Pages/default.aspx

الإفادة من أكثر من (٩٢٨) ألف رأس من الأغنام في إطار مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي لموسم حج العام ١٤٣٨هـ

صرح معالي الدكتور/ بندر بن محمد حمزة حجار، رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية، رئيس لجنة الأفادة من الهدي والاضاحي، أن مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي قد أنهى قبل غروب شمس اليوم الاثنين ١٤٣٨/١٢/١٣هـ عمليات أداء نسك الهدي والأضاحي لجميع حجاج بيت الله الحرام الذين تعاونوا مع المشروع في إطار مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي لموسم حج العام الحالي ١٤٣٨هـ (٢٠١٧م) ، وقد بلغ عدد ما تم بيعه

من سندات الهدي والأضاحي والفدو والصدقة ما يزيد على(٩٢٨،٢٩٨) ألف سند.

وبالنسبة للأبقار فقد بلغ مجموع ما تمت الإفادة منه هذا الموسم (٤٤٧) رأساً من البقر، بعد إجراء الكشف الشرعي والبيطري، وبعد التأكد من توفر جميع الشروط الشرعية والصحية في كافة أنعام المشروع.

وفيما يتصل بالتوزيع الداخلي، أوضح رئيس مجموعة البنك أن توزيع اللحوم على حجاج بيت الله الحرام في منى وفقراء الحرم قد بدأ منذ الساعات الأولى لصبيحة يوم السبت ١٤٣٨/١٢/١١هـ الموافق ٢٠١٧/٩/٢م أول أيام التشريق على حجاج بيت الله الحرام في منى والمشاعر المقدسة، وفقراء الحرم، وبلغ إجمالي ما تم توزيعه خلال أيام التشريق على فقراء الحرم ما يناهز خمسين ألف ذبيحة وما يفيض يتم توزيعه على المحتاجين عبر العديد من الجمعيات الخيرية المعتمدة في المملكة العربية السعودية.

وكان من المقرر أن يبدأ خلال بضعة أسابيع بمشيئة الله، شحن كميات من اللحوم المجمدة براً وبحراً وجواً إلى (٢٣) دولة خارج المملكة العربية السعودية، حسب خطة التوزيع المقررة لموسم حج العام ١٤٣٨ هـ (٢٠١٧م).

وتوجه رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية بهذه المناسبة، بالشكر والتقدير لكافة حجاج بيت الله الحرام الذين أولوا المشروع ثقتهم الغالية، كما نوه بتعاون مكاتب الحجيج والمسؤولين عن شؤون الحجاج من كافة الدول المشاركة في موسم حج هذا العام من حيث تعريف الحجاج مسبقاً بمشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي، وحثّهم على مواصلة جهودهم الخيرة في بلدانهم للتعريف بمزايا هذا المشروع وأهدافه الخيرية والشرعية والصحية.

وأشاد رئيس مجموعة البنك بالإقبال المتزايد على موقع المشروع من خلال الانترنت، وعبر عن سعادته حيث أصبح بإمكان المسلمين، ولله الحمد، في أي مكان في

العالم أداء الأضحية والفدية والصدقة والعقيقة طوال أيام السنة والأضحية والهدي خلال أيام عيد الأضحى المبارك، عن طريق موقع المشروع على الشبكة، وهو: www.adahi.org مما أتاح لكل مسلم أينما كان الحصول (بإذن الله) على أجر أداء نسك الأضحية والفدية والصدقة والعقيقة، ويتم أدائها بمكة المكرمة.

وعبر رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية عن صادق التقدير والعرفان، على الدعم السخي والمتواصل الذي يحظى به هذا المشروع الخيري الذي أسهم، ولله الحمد، في خدمة حجاج بيت الله الحرام وفي المحافظة على نظافة وسلامة بيئة المشاعر المقدسة، واستفاد منه الكثير من فقراء الحرم والمحتاجين في (٢٣) دولة.

واختتم معالي الدكتور بندر بن محمد حمزة حجار تصريحه بالدعاء إلى الله عز وجل أن يتقبل من الحجيج حجهم وأن يعيدهم إلى ديارهم سالمين غانمين، وأن يوفق الله الجميع لكل ما يحب ويرضى.

https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pag
.aspx٨٥٢es/news

منافذ شراء النسك:

عمل المشروع جاهداً منذ نشأته على تطوير أدواته وأعماله ، وقبل عدة أعوام أطلق المشروع موقعه على الشبكة العنكبوتية www.adahi.org لتسهيل أداء نسك الراغبين داخل وخارج المملكة بالدخول إلى موقع المشروع في الشبكة العنكبوتية التي تقدم معلومات متكاملة ودفع قيمة النسك، وذلك إما عن طريق سداد أو البطاقات الائتمانية (بطاقة فيزا، أو بطاقة ماستر كارد) ، أو من خلال التحويل النقدي ، ويقوم البرنامج الداعم للموقع بإشعار المستفيد من خدمة المشروع مباشرة حال تنفيذ نسكه

بواسطة تقنية الرسائل القصيرة SMS عبر هاتفه الجوال لتأكيد اكتمال تنفيذ التوكيل في مجازر المشروع.

وقد تعاقد المشروع لعملية تسويق السندات مع كلّ من:

البريد السعودي

مصرف الراجحي

جمعية هدية الحاج والمعتمر الخيرية

شركة الاتصالات السعودية

البريد الأردني

مسار الحج الالكتروني

جمعية نماء الخيرية

وغيرها كما يمكن شراء السندات من خلال الرابط.

يتم تنفيذ جميع أنواع النسك أسبوعياً.

أنشئ مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي عام ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م وأسندت مهمة إدارته إلى البنك الإسلامي للتنمية ، ويشرف على أعمال المشروع لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي المشكلة من عدد من الجهات الحكومية في المملكة العربية السعودية وهي:

* وزارة الشؤون البلدية والقروية (مشروع تطوير منى ـ أمانة العاصمة المقدسة).
* وزارة الداخلية (إمارة منطقة مكة المكرمة).
* وزارة المالية.
* وزارة العدل.

* وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
* وزارة الحج والعمرة.
* وزارة البيئة والمياه و الزراعة.
* معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج.
* البنك الإسلامي للتنمية.

يقوم مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي بناءاً على فتوى شرعية صادرة من دار الإفتاء ومصدقة من قبل مجلس الوزراء السعودي بإقرار وإجازة التوكيل في أداء النسك لمشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي حصراً، لأنها خاضعة للإشراف الحكومي الذي يضمن سلامة التطبيق الصحيح وفق الشروط الشرعية والصحية المطلوبة، وتوفير المجازر ذات الطاقة الانتاجية الكبيرة والكافية لأداء النسك، وخاصة في فترة الحج التي يسارع فيها كلّ المسلمين من حجاج وغيرهم إلى أداء نسكهم. ولذلك يعتبر المشروع الجهة الوحيدة المصرح لها بأداء النسك بالوكالة.

يتأكد الحاج أو غيره من عملاء المشروع من إتمام كلّ من عملية الدفع وعملية أداء النسك عند الشراء عبر الموقع الإلكتروني:

١. في حالة الدفع بواسطة البطاقة الائتمانية فستصل للعميل في حال تسجيله لعنوان بريده الإلكتروني ورقم جواله رسالتان وهما:

ـ الأولى: عند الدفع، تبلغه بتأكيد استلام قيمة طلبه.

ـ الثانية: عند التنفيذ، تبلغه بتأكيد تنفيذ النسك لطلبه.

٢. في حالة الدفع عن طريق خدمة سداد فستصل للعميل ثلاث رسائل، وهي:

ـ الأولى: عند تسجيله طلب الشراء بالموقع، تبلغه برقم الطلب الخاص به ورقم المفوتر الخاص بالمشروع لدى نظام سداد وتعلمه بآخر ميعاد للدفع.

ـ الثانية: عند الدفع، بتأكيد استلام قيمة طلبه.

ـ الثالثة: عند التنفيذ، تبلغه بتأكيد تنفيذ النسك لطلبه.

عند الشراء عبر مركز الاتصال (الهاتف المجاني)، ستصل للعميل ثلاث رسائل، هي:

ـ الأولى: عند قيام موظف خدمة العملاء بتسجيل طلب العميل، تبلغه برقم الطلب الخاص به ورقم المفوتر الخاص بالمشروع وتعلمه بآخر ميعاد للدفع.

ـ الثانية: عند الدفع، تبلغه باستلام المبلغ ووصوله لحساب المشروع.

ـ الثالثة: عند الذبح، تبلغه بأن العملية قد تمت.

عند الشراء عبر قنوات مصرف الراجحي الالكترونية، سيستلم العميل إيصالا من مصرف الراجحي يفيد بخصم المبلغ من حسابه وتحويله لحساب المشروع.

عند الشراء عبر فروع البريد السعودي، سيستلم العميل من مكتب البريد إيصالاً يفيد بدفعه قيمة السند.

عند الشراء عبر جمعية هدية الحاج، سيستلم العميل من الجمعية إيصالاً يفيد بدفعه مبلغ النسك.

يوجد في مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي مجزرة للجمال والأبقار وهي مجزرة مفتوحة حيث يقوم الحاج بشراء الأنعام من التاجر مباشرة ويضاف مبلغ (١٥٠ ريال) إلى قيمة الشراء لتغطية جزء من تكاليف التشغيل والخدمات الشرعية والبيطرية وإيصال اللحوم إلى المستحقين، وبهذا فإنه من غير المتاح شراء الجمال والأبقار إلاّ عبر هذه الطريقة.

توزيع لحوم الهدي(٦٠٪من لحوم الأضاحي توزع داخل المملكة).

يتم توزيع اللحوم على فقراء الحرم المكي وما فاض من اللحوم يخزن ويرسل

لإعانة الدول الفقيرة المحتاجة من الدول الإسلامية أو في حالة حدوث كوارث في إحدى بلدان العالم الإسلامي فيرسل إليها ما تحتاجه.

كشف المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي (أضاحي) الأستاذ أحمد رحيمي، بأنّ نسبة ٦٠٪ من لحوم الهدي والأضاحي التابعة للمشروع توزع داخل المملكة، فيما النسبة المتبقية٤٠٪ يتم توزيعها على أكثر من ٢٥ دولة حول العالم على مدار العام.

وأشار السيد رحيمي: إنّ أولوية التوزيع تكون لفقرا الحرم المكي عبر حوالي ٣١ جمعية ومؤسسة خيرية رسمية في العاصمة المقدسة، ثم من خلال حوالي ٢٢ جمعية خيرية في مدينة جدة، يليها جمعيات ومؤسسات خيرية في الطائف والمدينة المنورة بعدد ٤ جمعيات لكل منهما، كما يتم توزيع لحوم الهدي والأضاحي في جميع مناطق ومدن المملكة عبر حوالي ٨٨ جمعية خيرية.

وتشمل قائمة الدول التى تصلها لحوم الأضاحي سنوياً: باكستان، وبنجلاديش، والعراق، وأذربيجان، وتشاد، ومصر، ولبنان، وفلسطين، والأردن، وجيبوتي، وتنزانيا، وموزمبيق، وجزر القمر، والنيجر، ومالي، وغانا، وبروكينا فاسو، وليبيريا، وسيراليون، وموريتانيا، وغامبيا، وغينيا، وبيساو، وغينيا كوناكري، والسنغال.

وتقوم رسالة مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي بصفة أساسية، على تسهيل أداء حجاج بيت الله الحرام لنسك الهدي والفدية، والصدقة والعقيقة، نيابة لمن يرغب من عموم المسلمين وتوزيع اللحوم على مستحقيها في داخل المملكة وخارجها.

مراكز التوزيع:

المعيصم

تقوم إدارة مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي بتوزيع اللحوم على مستحقيها من فقراء الحرم، وما يفيض منها يتم توزيعها على المستحقين في عدد من الدول، براً، و بحراً، وجواً.

وفيما يلي أسماء المراكز لتوزيع الداخلي للحوم الهدي والأضاحي المنفذة ـ :

منطقة مكة المكرمة.
مراكز الاحياء (بواسطة المستودع الخيري).
وقف البركة الخيري.
الجمعية الخيرية.
جمعية البر.
المستودع الخيري.
أم القرى النسائية.
حفظ النعمة.
المؤسسة الخيرية.
وقف يعقوب بيك.
وقف أمير بخاري.
اللجنة الخيرية بمسجد الربوعي.
ثلاجة بن عثيمين.
مسجد النويصر.
د/ سعود كاتب.
الشيخ/ أحمد الحماد.

م/ أحمد آل زيد.

أمانة العاصمة.

طلبة الحرم المكي.

دار الحديثة الخيرية.

أوقاف الراجحي الخيرية.

مؤسسة مكة المكرمة الخيرية.

أ/ محمد صالح ألطف.

وقف سمير نجار الخيري.

عناية للخدمات الخيرية.

مسجد الشرايع العام.

عماير الرباط ومطبخ المنصور الخيري.

مختار الأنصاري.

أ/ طلال راوا.

إدارة التعليم (مكة بلا أمية).

جمعية البر برهاط ومدركة.

مسجد الحرس بالشرايع.

محافظة جـدة.

جمعية البر.

مجمع الأمير منصور الخيري.

المؤسسة الخيرية.

وقف البركة الخيري.

مسجد الجمعان.

مسجد عبدالرحمن بن عوف.

مسجد العيبان.

مسجد سعد بن معاذ.

مسجد أبو زنادة.

مكتب التكافل الاجتماعي.

مركز أبي بن كعب.

الجمعية الخيرية النسائية «بحرة».

الجمعية الخيرية «بحرة».

عمدة حي الصحيفة.

عمدة حي الثغر الشرقي.

د/ عصام كوثر.

منسوبي البنك الإسلامي.

قنصلية دولة فلسطين.

مركز الأبحاث الزراعية.

جمعية البر بخليص وقديد.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

الشيخ/ حسين بن محفوظ.

منطقة الطائف.

الجمعيات الخيرية بمحافظة الطائف.

وقف سمير نجار الخيري.

جمعية البر الخيرية بعشيرة الطائف.

المستودع الخيري.

منطقة المدينة المنورة.

المستودع الخيري.

وقف البركة الخيري.

المطعم الخيري ـ أبو جابر.

جمعية خيبر النسائية الخيرية.

باقي مناطق المملكة:

الزاد الخيري «القصيم».

جمعية البر والخدمات الاجتماعية الخيرية «ينبع البحر».

جمعية البر والخدمات «الباحة».

الجمعية الخيرية عين ابن فهيد «القصيم».

مكتب الدعوة والارشاد «الدوادمي».

جمعية جود النسائية الخيرية «الدمام».

الجمعية الخيرية بالشملي «حائل».

جمعية ودّ الخيرية «الخبر».

جمعية البر الخيرية بعمائر بن صنعاء «حائل».

جمعية البر الخيرية بالخصيبة «القصيم».

الجمعية الخيرية بتنومة «تنومة».

جمعية البر الخيرية بالتويم «الرياض».

الجمعية الخيرية مركز ابانات «القصيم».

مكتب دعوة الجاليات بقاعدة الرياض الجوية «الرياض».

جمعية البر الخيرية بالرين «القويعية».

مركز العناية بالمسلمين الجدد «الرياض».

الجمعية الخيرية بالنماص «النماص».

مكتب توعية الجاليات بالبدائع «القصيم».

جمعية البر الخيرية بخرخير «خرخير».

جمعية البر بعشيرة سدير «طريق الرياض ـ القصيم السريع».

الجمعية الخيرية ببني حسن «الباحة».

المستودع الخيري فرع العلا «العلا».

المستودع الخيري فرع العيص «العيص».

المستودع الخيري فرع ينبع البحر «ينبع البحر».

المستودع الخيري فرع الحناكية «الحناكية».

المستودع الخيري فرع النخيل «النخيل».

المستودع الخيري بوادي الفرع «وادي الفرع».

المستودع الخيري فرع خيبر «خيبر».

المستودع الخيري فرع المهد «مهد الذهب».

المستودع الخيري فرع ينبع النخل «ينبع النخل».

المستودع الخيري فرع الواسطة وبدر «الواسطة».

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد «القصيم».

جمعية البر الخيرية في ضرية «القصيم».

المستودع الخيري بالمزاحمية «المزاحمية».

مستودع البر الخيري بمرحب العليا «حائل».

جمعية الجفر الخيرية «الاحساء».

جمعية البر بالسليل «السليل».

جمعية البر بالاحساء «الاحساء».

جمعية البر بالبجادية «الدوادمي».

مركز سنابل الخيري بالبكيرية ومكتب دعوة الجاليات «القصيم».

الجمعية الخيرية بعيون الجواء «القصيمن.

المستودع الخيري بشرورة «شرورة».

مركز الإحسان الخيري «بريدة».

جمعية البر الخيرية «الجوف».

جمعية الروضة الخيرية «حائل».

جمعية العمران الخيرية للخدمات الاجتماعية «الاحساء».

مكتب توعية الجاليات بالخدمات الطبية للقوات المسلحة «الرياض».

المستودع الخيري بالقويعية «القويعية».

جمعية القرى للبر والخدمات الاجتماعية «الباحة».

مكتب دعوة الجاليات «القصيم».

جمعية البر الخيرية بطابة «حائل».

جمعية البر الخيرية بالجلة وتبراك «الرياض».

جمعية البر الخيرية في عقلة الصقور «القصيم».

مكتب توعية الجاليات والخدمات الطبية بوزارة الدفاع «الرياض».

بعثة لجنة الافادة من الهدي البحرينية «الدمام / ثلاجة سند».

جمعية حزم أم الساهك الخيرية «الدمام».
جمعية البر الخيرية «خيبرن.
جمعية البر الخيرية بدليهان «حائل».
المستودع الخيري بعنيزة «القصيم».
جمعية البر الخيرية برحرح «الباحة».
جمعية البدائع الخيرية «القصيم».
جمعية البر «أبها».
مكتب دعوة الجاليات بمرات «الرياض».
مكتب دعوة الجاليات بأم حمام «الرياض».
جمعية البر الخيرية بوادي شرى «بلجرشي».
جمعية الملك عبدالعزيز النسائية ببريدة «القصيم».
جمعية البر الخيرية بفويلق «القويعية».
جمعية الأحمر الخيرية «الأفلاج».
جمعية البر الخيرية بالعظيم «حائل».
جمعية الفضول الخيرية «الاحساء».
جمعية البر الخيرية «بلجرشي».
جمعية البطالية الخيرية «الاحساء».
الجمعية الخيرية للخدمات الاجتماعية «نجران».
جمعية البر ببني حرير وبني عدوان «الباحة».
مكتب دعوة الجاليات برياض الخضراء «القصيم».
فرع جمعية البر في ريمان الجنوبي «القصيم».

المجمع الخيري ببريدة «القصيم».

الجمعية الخيرية بمحافظة الداير بني مالك «جازان».

جمعية الأفلاج الخيرية «الرياض».

جمعية الطرف الخيرية للخدمات الاجتماعية «الاحساء».

جمعية عمر بن الخطاب بالفويلق «القصيم».

جمعية جوّ الخيرية «الرياض».

جمعية قرن ظبي الخيرية «الباحة».المكتب التعاوني للدعوة بالمذنب «القصيم».

المكتب التعاوني في البديع + جمعية البر الخيرية بالبديع «الرياض».

مكتب توعية الجاليات بالقوارة «شمال بريدة».

الجمعية الخيرية «محافظة حقـــل».

جمعية البر الخيرية برياض الخبراء «القصيم».

بيان بأعداد الأغنام المنفذة ، الجدول التالي يوضع أعداد الأغنام المنفذة:

عام	عدد	عام	عدد	عام	عدد
١٤٠٣	٦٣٠٠٠	١٤١٥	٤٣٤٤١٤	١٤٢٧	٦٨٣٩٣١
١٤٠٤	١٨٦١٩٥	١٤١٦	٤٣١٩١١	١٤٢٨	٧٣٢٨٥٥
١٤٠٥	٣٠٧٣٧٧	١٤١٧	٤٢٨٦٣٠	١٤٢٩	٨٣٦٤٠٣
١٤٠٦	٣٠٥١٤٠	١٤١٨	٤٤٠٧٥٢	١٤٣٠	٦٦٤٦٢٣
١٤٠٧	٤٧٨٩٤٤	١٤١٩	٤٧٤٩٢٥	١٤٣١	٩٣٤٠٠٤
١٤٠٨	٤٧٣٦٧٢	١٤٢٠	٦١٨٧٥٧	١٤٣٢	١٠٠١٢٠٦
١٤٠٩	٤٩٥٥٩١	١٤٢١	٦١٨٧٩٧	١٤٣٣	٩٩٨١٤١
١٤١٠	٤٨٥٣٥٥	١٤٢٢	٥٩٣٧٥٧	١٤٣٤	٧٦٩٩١٨
١٤١١	٤١٠٥٥١	١٤٢٣	٦٢٥٣١٧	١٤٣٥	٨٧٤٠٠٠
١٤١٢	٥٢٥٣٩١	١٤٢٤	٥٨٤٦١٤	١٤٣٦	٨٣٥٢٨٢
١٤١٣	٤٢٤٠٨٥	١٤٢٥	٥٠٣٩٥٤	١٤٣٧	٧١٢٧٣٤
١٤١٤	٥٢٠٠٧٤	١٤٢٦	٥٧٤١٤١		

بيان بأعداد الجمال والأبقار المنفذة ، الجدول التالي يوضع أعداد الجمال والأبقار المنفذة:

موسم عام	عددالأضاحي	موسم عام	عددالأضاحي
١٤١١	١١١٧٤	١٤٢٤	٥٠٧٦
١٤١٢	١٤٣٨١	١٤٢٥	٤٤٩٥
١٤١٣	١٠٦٢٤	١٤٢٦	٧١٥٦
١٤١٤	١٠٣٦١	١٤٢٧	٥٢٢٠
١٤١٥	٩٠٥٣	١٤٢٨	٦١٣٣
١٤١٦	٧٠٢٢	١٤٢٩	٣٢٢٦
١٤١٧	٧٧٤٤	١٤٣٠	٩٥٢٩
١٤١٨	٩٢٦٩	١٤٣١	٢٤٠٩
١٤١٩	٨١٩٥	١٤٣٢	٢٤٨٧
١٤٢٠	٦١٣٦	١٤٣٣	١٢١٧
١٤٢١	٦٠٢٧	١٤٣٤	٥٦٩
١٤٢٢	٥٢٨٥	١٤٣٥	١٥٠٠
١٤٢٣		١٤٣٦	٣٢٧
		١٤٣٧	٣٧٢

الدول المستفيدة من اللحوم:

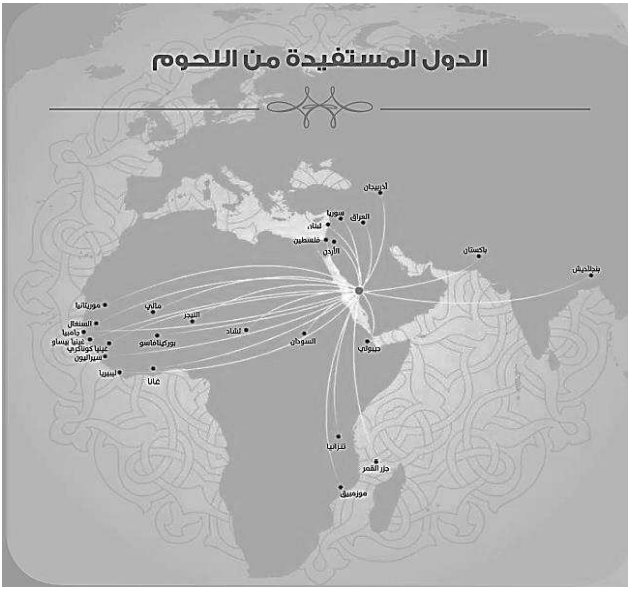

تتم عملية الذبح في إحدى مجازر المشروع الكائنة في مكة المكرمة والتي تعمل بنظام الورديات حيث يعمل الجزارون والشرعيون والعمالة المساندة إلى جانب الأطباء البيطريين للتأكد من توافر جميع الشروط الشرعية والصحية في الذبائح.

نري في التالي تقارير من توزيع هذه اللحوم في أوان مختلفة:

توزيع عدد ١٥ ألف كرتون من لحوم الأضاحي إلى قطاع غزة في يوم الجمعة

الموافق ١٠ رمضان/١٤٣٩هـ

تم من شحن اللحوم المقدمة من مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي إلى الأشقاء في قطاع غزة وهي عبارة عن (١٠) برادات يحمل كلّ براد (١٥٠٠) كرتون من اللحوم المجمدة، ويزن كل كرتون (١٠) كغ من اللحوم الجاهزة للتوزيع وقد وصلت الشحنة القادمة من ميناء ضباء البحري السعودي يوم السبت الساعة ١١ صباحاً لميناء سفاجا البحري المصري وستنطلق البرادات في صباح الأحد باتجاه معبر رفح الحدودي لاستكمال إجراءات مراسم تسليم الشحنة بحضور كلاً من ممثل السفارة السعودية في القاهرة وممثل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بقطاع غزة وممثل الهلال الأحمر الفلسطيني وستقوم سفارة خادم الحرمين الشريفين في القاهرة بتغطية الحدث إعلامياً، وسيكون في استقبال الشحنة من سفارة خادم الحرمين الشريفين في ميناء سفاجا ومن إدارة المراسم بالسفارة الأستاذ ناصر الهولان.

https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pag
.aspx١٠٠٣es/news

توزيع خمسة وعشرين ألف ذبيحة من لحوم الهدي والأضاحي على مستحقيها في مصر:

في إطار مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي الذي يديره البنك الإسلامي للتنمية، تتواصل عمليات توزيع لحوم الهدي والأضاحي على مستحقيها في مناطق المملكة وخارجها وفقا لخطة التوزيع المعتمدة لموسم حج ١٤٣٨هـ (٢٠١٧م)، والتي تتضمن هذا العام توزيع نحو (٩٢٨،٠٠٠) ذبيحة من لحوم الهدي والأضاحي، حيث تم توزيع نحو (٤٦،٦٣٨) ذبيحة على مستحقيها من فقراء الحرم بمكة المكرمة ، وسيتم بإذن الله التوزيع على حوالي (٤٠٠) جمعية خيرية في مختلف مناطق

المملكة، وكما يجري حالياً استكمال إجراءات شحن (٢٥٠،٠٠٠) ذبيحة مجمدة ومعبأة في كراتين لتوزيعها على مستحقيها في (٢٣) دولة في قارتي آسيا وأفريقيا، براً وبحراً وجواً.

وفي هذا الإطار، تم هذا الأسبوع إرسال شحنة من لحوم الهدي والأضاحي، وصلت إلى ميناء سفاجا المصري، يوم الاثنين بتاريخ ١٤٣٩/٣/٠٢هـ الموافق ٢٠١٧/١١/٢٠م، وتحتوي الشحنة على (٣٠،٠٠٠) ذبيحة مجمدة ومقطعة ومعبأة في كراتين، سيتم توزيعها على مستحقيها بجمهورية مصر العربية، وكان في استقبال الشحنة لدى وصولها إلى ميناء سفاجا، عدد من المسؤولين المصريين ومندوبين من مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والاضاحي، وممثلي السفارة السعودية وذلك للإشراف والمشاركة في أعمال التوزيع على جميع محافظات البلاد.

وبهذه المناسبة أعرب معالي الدكتور بندر بن محمد حمزة حجار، رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية، ورئيس لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي، عن شكره وتقديره لدعم سخي لهذا المشروع الخيري الذي يقوم على توفير لحوم الهدي والأضاحي لكافة المسلمين المستحقين في أنحاء العالم.

(https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pages/news2017.aspx)

توزيع (١٣) ألف ذبيحة من لحوم الأضاحي على مستحقيها في أذربيجان وتشاد وموزمبيق:

في إطار مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي، الذي يديره البنك الإسلامي للتنمية، تواصلت عمليات توزيع لحوم الهدي والأضاحي ، والتي

تتضمن هذا العام توزيع نحو (١٩٥) ألف ذبيحة مجمدة على مستحقيها في (٢٣) دولة في قارتي آسيا وأفريقيا، براً وبحراً وجواً.

وفي هذا الإطار، وصلت إلى العاصمة باكو، في جمهورية اذربيجان، الغير مطلة على البحر، شاحنتان مبردتان تحملان على متنهما خمسة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، حيث تم توزيعها بالكامل على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الشحنة لدى وصولها إلى مدينة باكو قادمة من جمهورية جورجيا المجاورة عدد من المسؤولين الأذربيجانيين وممثلين عن السفارة السعودية في باكو، ومندوبين من البنك الإسلامي للتنمية، كانا قد وصلا في وقت سابق إلى العاصمة للإشراف على عملية التوزيع.

كما وصلت في وقت سابق إلى مطار نجامينا، طائرة تحمل على متنها خمسة آلاف ذبيحة مجمدة من لحوم الهدي والأضاحي، ليتم توزيعها على مستحقيها في جمهورية تشاد، وكان في استقبال الطائرة لدى هبوطها في المطار عدد من المسؤولين التشاديين وممثلين عن السفارة السعودية في العاصمة نجامينا ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في وقت سابق إلى العاصمة للإشراف على عملية التوزيع.

وكانت قد وصلت يوم الجمعة الماضي إلى ميناء ناكالا، في جمهورية موزمبيق، باخرة تحمل على متنها ثلاثة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، حيث تم توزيعها على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسؤولين بموزمبيق، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في وقت سابق إلى موزمبيق للإشراف على التوزيع.

وبهذه المناسبة توجه معالي الدكتور بندر محمد حجار، رئيس مجموعة البنك

الإسلامي للتنمية، باسم لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي، بـأجزل الشـكر والتقـدير لدعم سخي لهذا المشروع الخيري الكبير، مما جعل في الإمكان إفادة ملايين المسـتحقين في أنحاء العالم من لحوم الهدي والأضاحي، تحقيقاً للحكمة الإلهية البالغة من هذه.
(https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pag
.aspx)٥٥es/news

توزيع (٢٠) ألف ذبيحة من لحـوم الهـدي والأضـاحي علـى مسـتحقيها في موريتانيـا والسنغال:

وفي هذا الإطار، وصلت اليـوم إلى مينـاء نواكشـوط، في جمهوريـة موريتانيـا الإسلامية، باخرة حاملة على متنـها عشـرة آلاف ذبيحـة مجمـدة، مـن لحـوم الهـدي والأضاحي، ليتم توزيعها على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسؤولين الموريتانيين وممثلين عن السفارة السعودية في نواكشـوط، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قـد وصـل في وقـت سـابق إلى نواكشـوط للإشراف على عملية التوزيع.

كما وصلت قبل يومين إلى ميناء دكار، في جمهورية السنغال، باخرة حاملة على متنها عشرة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، حيـث تم توزيعهـا علـى مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسـؤولين السنغاليين وممثلين عن السفارة السعودية في دكار، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في وقت سابق إلى دكار للإشراف على عملية التوزيع.

وبهذه المناسبة توجه، رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية، باسم لجنة الإفادة من الهدي والأضاحي، بـأجزل الشكر والتقدير لـدعم سـخي لهـذا المشـروع الخـيري

الكبير، مما جعل في الإمكان إفادة ملايين المستحقين في أنحاء العالم من لحوم الهدي والأضاحي، تحقيقا للحكمة الإلهية البالغة من هذه الشعيرة العظيمة.
(https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pages/news١٧.aspx)

توزيع (١٧) ألف ذبيحة من لحوم الهدي والأضاحي على مستحقيها في جيبوتي وغامبيا وغينيا بيساو:

وفي هذا الإطار، وصلت إلى ميناء جيبوتي، باخرة حاملة على متنها سبعة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، ليتم توزيعها على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسؤولين الجيبوتيين وممثلين عن السفارة السعودية في جيبوتي، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في وقت سابق إلى جيبوتي للإشراف على عملية التوزيع.

كما إلى ميناء بانجول، في جمهورية غامبيا، باخرة حاملة على متنها خمسة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، حيث تم توزيعها على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسؤولين الغامبيين ، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في وقت سابق إلى بانجول للإشراف على عملية التوزيع.

وكانت قد وصلت قبل يومين باخرة أخرى إلى ميناء بيساو بجمهورية غينيا بيساو حاملة على متنها خمسة آلاف ذبيحة مجمدة، من لحوم الهدي والأضاحي، حيث تم توزيعها على مستحقيها هناك، وكان في استقبال الباخرة لدى وصولها إلى الميناء عدد من المسؤولين بغينيا بيساو، ومندوب من البنك الإسلامي للتنمية، كان قد وصل في

وقت سابق إلى بيساو للإشراف على عملية التوزيع.

(https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pages/ne
.aspx٠)١٦ws

توزيع (٢٠) ألف ذبيحة من لحوم الهدي والأضاحي على مستحقيها في الأردن:

وفي هذا الإطار، تم خلال الأيام القليلة الماضية توزيع (٢٠) ألف ذبيحة مجمدة وصلت برا إلى العاصمة الأردنية عمان على متن قافلة من الشاحنات المبردة، حيث تم توزيعها على مستحقيها في أنحاء المملكة الأردنية الهاشمية، بحضور ممثلين عن السفارة السعودية بالأردن وبعثة من البنك الإسلامي للتنمية كانت قد وصلت إلى العاصمة عمان في وقت سابق لهذا الغرض.

https://www.adahi.org/Arabic/MediaCenter/News/Pages/n
.aspx١٣ews

توزيع اللحوم الإيرانية:

وفقاً للتقارير الموجودة في موسم حج سنة ١٣٨٢ الهجري الشمسي لقد اشترك ما يقارب ٩٩٪ من الحجاج الإيرانيين في هذا المشروع واستهلك أضاحيهم التي تبلغ ٩٣٧٨٢ في الجهات المعينة ومع التنسيق مع الطرف السعودي

حوالي ٣٥٠٠٠ أضحية منها انتقل إلى لبنان عبر وسائط لجنة إمام الخميني للإغاثة لتوزع بين ذوي الحاجة هناك.[١]

ووفقاً لما نقله السيد أسداللهي في مقابلته: نفذ هذا القرار في سنة ١٣٨٩ الهجري الشمسي ... وفي هذه السنة أرسل قسمٌ من لحوم الاضاحي الإيرانية إلى باكستان، التي كانت قد أصيبت بالسيول مما أدى إلى خسائر وضحايا كثيرة فيها.

لكن مع توتر العلاقات الإيرانية السعودية لم تستمر هذه العملية، فتصدى الطرف السعودي لتوزيع جميع الأضاحي بما فيها الأضاحي الأيرانية.

وفقاً لما نقله السيد أسداللهي، أبدي السيد الدكتور أحمد علي الرئيس السابق لصندوق التوسعة الإسلامية الاستعداد التام لهذا الصندوق في المشاركة لتوفير الأضاحي للحج إذا ما استعدت الجمهورية الإسلامية في هذا الصدد. كان هذا في زيارة أجراها قبل سنوات في هذا المضمار، والتي زار فيها عدة مزارع لتربية الأغنام في إيران.

وحصل مجمع تربية الأغنام في فساران الاصفهان على التوثيق من قبل المنظمات الصحية المختصة في السعودية كي يمهد الإستثمار في إيران لتربية أغنام الأضاحي وتصديرها للسعودية، لكنه لم يستمر ولم يستتبع الأمر.[٢]

---

١. مقاله ارزيابى اجراى طرح قربانى در چهار سال متوالى ٥ ، دوره ١٣، شماره ٤٩، پاييز ١٣٨٣، صفحه ١.

٢. مقابلة الكاتب مع السيد أسداللهي .

تنقسم مجازر المشروع إلى قسمين هما:

مجازر مفتوحة: هذه المجازر مفتوحة للجميع حيث بإمكان الحاج وغيره أن يشتري عند مدخل المجزرة سنداً أو أكثر بعدد الأغنام التي يرغب في شرائها، وبإمكانه أيضاً أداء نسكه بنفسه أو تحت إشرافه ومن ثم تتولى إدارة المشروع إتمام عملية السلخ والتنظيف، إلى غير ذلك. والمجازر المفتوحة هي:

١. الصالة (أ) من مجزرة المعيصم رقم (٢).

٢. وحدات المجزرة الحديثة للأغنام (ب ، د ، هـ ، و).

٣. مجزرة الجمال والأبقار.

حيث مجزرة الجمال والأبقار من المجازر المفتوحة، وكما ذكر سابقاً من اختلاف بينها وبين مجازر الأغنام الأخرى.

مجازر مغلقة: يتم العمل فيها بنظام التوكيل حيث يقوم الحاج وغيره بشراء السندات من منافذ البيع وطرق البيع المبينة سابقاً ويقوم المشروع بتنفيذ النسك نيابة عنه، والمجازر المغلقة هي:

١. مجزرة المعيصم النموذجية رقم (١).

٢. الصالة (ب) من مجزرة المعيصم رقم (٢).

٣. مجزرة المعيصم رقم (٣).

كما يمكن أن يسمح لكل ٣٠ حاجاً فأكثر إرسال وكيل عنهم ليقوم بالإشراف على تنفيذ النسك نيابة عن موكليه بحيث يعطى تصريح دخول لمجزرة المعيصم النموذجية رقم (١).

بعد الشراء وبمجرد أن يتم خصم المبلغ من حساب العميل وتأكيد استلامه في

حساب المشروع أو حصول العميل على الكوبون أو سند النسك، يعتبر العميل بذلك قد وكل المشروع لأداء النسك نيابة عنه وبذلك تبرأ ذمته من أداء النسك. مع ملاحظة أنه في حال كون الشراء والدفع تم عبر الموقع الإلكتروني سيتم إرسال رسالة تعلمه بتنفيذ طلبه (إتمام الذبح).

آلية عملية الدفع عبر مكائن الصراف:

عن طريق مكائن صراف الراجحي: سبق الحديث عنها في الفقرة السابقة.

عن طريق مكائن صراف باقي بنوك المملكة: وذلك بواسطة خدمة سداد وبالشكل التالي:

١. اختيار خدمات سداد من القائمة الرئيسية.

٢. اختيار تعريف فاتورة من قائمة خدمات سداد.

٣. اختيار اسم الشركة (أضاحي) من قائمة أسماء الشركات بالقائمة المنسدلة أو بإدخال رقم المفوتر الخاص بالمشروع (٠٤٣).

٤. إدخال رقم الفاتورة (رقم الطلب).

٥. تأكيد العملية.

وبذلك يتم الخصم من حساب العميل البنكي وتحويل المبلغ إلى حساب المشروع وتنتهي عملية الدفع.

كيفية الدفع بعد إتمام عملية الشراء

عند الشراء عبر الموقع الالكتروني، فبالإمكان الدفع عن طريق البطاقات الائتمانية (فيزا أو ماستركارد فقط)، أو عن طريق خدمة سداد لدى جميع البنوك في المملكة إما من مكائن الصراف أو سداد اون لاين (الإنترنت المصرفي) أو عبر الهاتف المصرفي.

عند الشراء عبر مركز الاتصال (الهاتف المجاني) للمشروع، فبالإمكان الدفع عن طريق خدمة سداد لدى جميع البنوك في المملكة إما من مكائن الصراف أو سداد اون لاين (الإنترنت المصرفي) أو عبر الهاتف المصرفي.

عند الشراء عبر قنوات مصرف الراجحي الإلكترونية، يتم الدفع عبر خدمة التحويل إلى "جمعيات خيرية" والمتاحة فقط لعملاء الحسابات لدى الراجحي كما يلي:

١. اختيار "الحوالات" من القائمة الرئيسية.
٢. اختيار "إلى جمعيات خيرية".
٣. اختيار "الهدي والأضاحي".
٤. اختيار نوع النسك (فدية، هدي، صدقة، أضحية، عقيقة).
٥. إدخال عدد الرؤوس المطلوبة.
٦. تأكيد العملية.

وبذلك يتم الخصم من حساب العميل لدى الراجحي وتحويل المبلغ إلى حساب المشروع وتنتهي عملية الدفع.

عند الشراء عبر فروع البريد السعودي، يتم الدفع نقداً وبشكل مباشر لموظف مكتب البريد ويتم الحصول على الكوبون (سند النسك).

عند الشراء عبر جمعية هدية الحاج والمعتمر، يتم الدفع نقداً وبشكل مباشر لأحد نقاط البيع التابعة للجمعية والتي تغطي مكة المكرمة والمدينة المنورة ويتم الحصول على

الكوبون (سند النسك) من الجمعية.

سبب كون أداء النسك عن طريق مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي رخيصة الثمن يعود سبب انخفاض قيمة الأضحية مقارنة بأسعار الأغنام في الأسواق، إلى كون البنك الإسلامي تعاقد على شراء كمية كبيرة من الأغنام لتذبح في موسم الحج كما ويعود أيضاً إلى كون المشروع عبارة عن مشروع خيري غير هادف للربح. علماً بأنه وعلى الرغم من انخفاض قيمة النسك إلاّ أنه تم اختيار الأغنام على النحو الشرعي والصحي المطلوب وبعد مراعاة كافة الشروط الصحية والشرعية الواجب مراعاتها.

تكلفة أداء النسك عبر المشروع:

تبلغ تكلفة أداء النسك (أضحية ـ هدي ـ فدية ـ صدقة ـ عقيقة) مبلغاً وقدره (٤٧٥ ريال)، وتفاصيل هذه التكلفة على الشكل التالي:

متوسط سعر الرأس من الأغنام: ٣٧١ر.س.

مساهمة الحاج في تكاليف التشغيل والنقل والتوزيع: ١٠٤ ر.س.

الإجمالي: ٤٧٥ ريال سعودي.

وبذلك يكون السعر الإجمالي (٤٧٥ ريال) وهو السعر المعتمد من قبل المشروع لأداء النسك لهذا العام.

كيفية شراء نسك:

يكون الشراء بإحدى الوسائل التالية:

عبر زيارة الموقع الالكتروني لمشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي

www.adahi.org.

الاتصال على مركز خدمة العملاء عبر الرقم المجاني (٨٠٠٤٣٠٦٦٦٦).

مصرف الراجحي.

البريد السعودي.

جمعية هدية الحاج والمعتمر.

جمعية نمـــاء الخيرية

أنواع النسك: النسك وينقسم للأنواع التالية:

هدي: واجب على المتمتع (أي من أتى بعمرة في أشهر الحج ثم جاء بحج في العام نفسه)، وعلى القارن (أي من أتى بعمرة وحج جميعاً قائلاً: لبيك عمرة وحجاً)، ووقت ذبحه من بعد صلاة عيد الأضحى إلى غروب شمس اليوم الثالث من أيام التشريق (يوم١٣ ذوالحجة)، وأما المفرد بالحج فلا هدي عليه.

الأضحية: يتم ذبحها كنوع من أنواع النسك في المدة الشرعية الواجبة لأدائها وهي من بعد صلاة عيد الأضحى وحتى مغرب شمس أخر أيام التشريق (يوم١٣ذوالحجة).

الفدية: تجب على الحاج أو المعتمر إذا ترك شيئاً من الواجبات في حجه أو عمرته أو فعل شيئاً من محظورات الإحرام، وتمّ ذبحها كنوع من أنواع النسك على مدار العام فليس هناك وقت محدد لأدائها.

الصدقة: يتم ذبحها كنوع من أنواع النسك على مدار العام فليس هناك وقت محدد لأدائها

العقيقة: هي سنة مؤكدة يتم إخراجها للمولود شكراً لله تعالى.

الشروط الشرعية في النسك

١. أن لا يقل السن عن ستة أشهر للضأن وسنة للماعز.
٢. أن لا تكون عرجاء بينٌ عرَجُها.
٣. أن لا تكون عجفاء لا تُنقي.
٤. أن لا تكون عوراء بينٌ عوَرُها.
٥. أن لا تكون مقطوعة الأذن لأكثر من النصف.
٦. أن لا تكون هتماء (مكسورة الثنايا لأكثر من النصف).
٧. أن لا تكون مريضة بينٌ مرَضُها.
٨. أن لا تكون مكسورة القرن.
٩. أن لا تكون مقطوعة الإلية أو الذيل.
١٠. أن لا يزيد عمرها عن ثلاث سنوات.

مراقبه تنفيذ أداء النسك:

غرفة العمليات بمجازر مشروع الأضاحي تراقب تنفيذ أداء النسك في مليون أضحية خلال ٨٤ ساعة.

تقوم غرفة العمليات التابعة لمشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي (أضاحي) بمتابعة ومراقبة تنفيذ أداء النسك في أكثر من مليون أضحية وهدي لحجاج بيت الله الحرام من خلال ١٢ شاشة تلفزيون في ٨ مجازر تابعة للمشروع، وذلك على مدار الساعة بدءاً من يوم النحر (العاشر من ذي الحجة) وحتى نهاية ثالث أيام التشريق (الثالث عشر من ذي الحجة) بمشاركة ست لجان مختلفة.

وأوضح المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للهدي والأضاحي الأستاذ رحيمي أحمد رحيمي أنّ غرفة العمليات التابعة للمشروع مجهزة بجميع الأجهزة المتخصصة لنقل الحدث مباشرة لغرفة العمليات، حيث تقوم الشاشات الـ ١٢ بمراقبة عمل كلّ المجازر في وقت واحد، لافتاً إلى أنه في حال حدوث أي طارئ، يتم التدخل الفوري لعلاج الخلل أياً كان من رأس الهرم ممثلاً بمعالي رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية الدكتور بندر بن محمد حجار أو من المشرف العام لـ (أضاحي)، أو من المختصين في أعمال التشغيل والصيانة.

ومن مهام غرفة العمليات إرسال الرسائل التوجيهية لأعمال التشغيل في المجازر المختلفة عبر الأجهزة المتخصصة، للقيام بتعديل خطط التشغيل متى ما تطلب الأمر، وقال رحيمي: تبدأ مهمة غرفة العمليات فعلياً من شروق فجر اليوم العاشر من ذي الحجة (يوم النحر)، وحتى مغرب الثالث عشر من ذي الحجة وذلك على مدار ٨٤ ساعة متواصلة، وتكمّل أعمالها بانتهاء أعمال الذبح ودخول جميع الذبائح إلى الثلاجات.

وأشار رحيمي، إلى أنه يتواجد بغرفة العمليات معالي رئيس مجموعة البنك الإسلامي للتنمية والمشرف العام على مشروع (أضاحي) ورؤساء لجان التشغيل، وأداء النسك، والمبيعات، والمالية، والطوارئ الخاصة، وأكد المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي أنّ لديهم كلّ الدعم اللازم من حكومة خادم الحرمين الشريفين لتمكين المشروع من القيام بمهامه الإنسانية المنوطة به على أكمل وجه.

٨٠٠ مختص لمطابقة أكثر من مليون أضحية بالشروط الشرعية.

أكد المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي

والأضاحي، الأستاذ رحيمي أحمد رحيمي، بأن عدد الشرعيين الرسميين المشاركين في موسم حج العام١٤٣٩ هـ (٢٠١٨ م) قد بلغ ٥٥٠ طالب علم شرعي.

وأضاف الأستاذ رحيمي: أن مهمة الشرعيين المشاركين في المشروع بشكل رسمي، تتلخص في التأكد من مطابقة الأضحية للشروط الشرعية، قبل أداء النسك للتأكد من استيفاءها للشروط الشرعية.

وأوضح بأنّ هناك عدد من الجامعات السعودية يقوم برفد مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي بطلبة العلم الشرعي المؤهلين لذلك والمتميزين في مجالهم الدراسي، للمساهمة في تنفيذ أكثر من مليون أضحية.

ومن الجامعات المساهمة بطلبة العلم الشرعي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (١٥٠شرعي)، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٠٠شرعي)، وقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض (١٠٠شرعي)، وجامعة أمّ القرى (١٥٠شرعي)، ودار الحديث الخيرية بمكة المكرمة (٥٠شرعي).

وأشار الأستاذ رحيمي إلى أنه يتم تنفيذ النسك في داخل حدود منطقة الحرم بمكة المكرمة في مجازر المشروع المجهزة بأحدث الوسائل الفنية التي توفر بيئة صحية وآمنة حيث يتم أداء النسك فيها لأكثرمن مليون ذبيحة يتم تنفيذها خلال ٨٤ ساعة بدءاً من شروق أول أيام عيد الأضحى المبارك حتى نهاية اليوم الثالث من أيام التشريق، وفقاً للأحكام الشرعية.

١٤٠٠٪ أضحيات الحجيج من أغنام مشروع المملكة للإفادة خلال ٣٦ عاماً.

صرّح المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي الأستاذ رحيمي أحمد رحيمي، بأنّ الزيادة المئوية في عدد الأضاحي التي تم تنفيذها منذ بدء المشروع قبل ٣٦ عاماً حتى موسم الحج الماضي بلغت ما يقرب

من ١٤٠٠٪.

وأوضح المشرف العام بأن عدد الأضحيات التي نفذها مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي في سنة التأسيس (١٤٠٣) بلغت ٦٣ ألف رأس، فيما بلغ العدد في موسم الحج الماضي (١٤٣٨ه) (٢٠١٧ م) أكثر من ٩٢٧ ألف رأس من الأغنام.

واعتبر الأستاذ رحيمي أنّ معدل الزيادة المئوية المرتفع، يدل على ثقة حجاج بيت الله من كلّ أنحاء العالم وثقة بعثات الحج في السفارات والقنصليات بمشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي، وهو ما أظهرته الأرقام الإحصائية بشكل دقيق.

وكانت حكومة المملكة العربية السعودية قد أسندت مهمة إدارة مشروع الإفادة من الهدي والأضاحي منذ تأسيسه عام ١٤٠٣ (١٩٨٣) إلى البنك الإسلامي للتنمية، بهدف التسهيل على حجاج بيت الله الحرام لأداء نسك الهدي والفدية عنهم، وتوزيع الأضاحي على مستحقيها داخل المملكة وخارجها.

وأضاف الأستاذ رحيمي قائلاً: جاء إنشاء مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي بناءاً على فتوى شرعية صادرة من دار الإفتاء ومصدقة من قبل مجلس الوزراء السعودي بإقرار وإجازة التوكيل في أداء النسك لمشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي حصراً لأنها خاضعة للإشراف الحكومي الذي يضمن سلامة التطبيق الصحيح وفق الشروط الشرعية والصحية المطلوبة وتوفير المجازر ذات الطاقة الانتاجية الكبيرة والكافية لأداء النسك وخاصة في فترة الحج التي يسارع فيها كل المسلمين من حجاج وغيرهم إلى أداء نسكهم. ولذلك يعتبر المشروع الجهة الوحيدة المصرح لها بأداء النسك بالوكالة في منطقة المشاعر المقدسة خلال موسم الحج.

وأكد المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي رحيمي أحمد رحيمي، بأن عملية الذبح تتم في مجازر المشروع الكائنة في

منطقة المعيصم بمكة المكرمة والتي تعمل بنظام الورديات حيث يعمل الجزارون والشرعيون والعمالة المساندة إلى جانب الأطباء البيطريين للتأكد من توافر جميع الشروط الشرعية والصحية في كافة الأنعام قبل وبعد أداء النسك.

وأكد الأستاذ رحيمي حرص إدارة مشروع الأضاحي الدائم على أن يكون ثمن الأضحية في متناول كافة الحجاج والأقل سعراً مقارنة بالأسعار السّائدة، وأعلن أنّ سعر الكوبون الواحد لموسم الحج هذا العام هو (٤٧٥) ريال سعودي وهو ما يعادل (١٢٧) دولار أمريكي، ويعود إنخفاض السّعر هذا إلى أنّ المشروع خيري غير هادف للربح، وأكد أنه على الرغم من انخفاض قيمة الكوبون إلاّ أنه تم اختيار الأغنام على النحو الشرعي والصحي المطلوب وبعد مراعاة كافة الشروط الصحية والشرعية الواجب إتباعها.

اتفاقيات توكيل بين بعثات الحج ومشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي

وقّعت عدد من بعثات الحج التابعة للسفارات والقنصليات في المملكة العربية السعودية مع مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي) أضاحي (لموسم حج العام الحالي ١٤٣٩هـ(٢٠١٨م) لتوكيل المشروع في تنفيذ هديهم وأضاحيهم وتوزيع اللحوم على فقراء الحرم، ونقل الفائض الى أكثر من ٢٥ دولة حول العالم جواً وبراً وبحراً للتوزيع على مستحقيها في تلك الدول على مدار السنة.

وأوضح المشرف العام على مشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي الأستاذ رحيمي أحمد رحيمي، بأنّ إجمالي بعثات الحج التي وقعت اتفاقية تفاهم فيما يخص المشروع لموسم حج هذا العام في تزايد، ومن ضمنها بعثات تركيا، والهند، وإيران، وباكستان، وماليزيا.

وتوقع الأستاذ رحيمي زيادة في عدد أضاحي وهدي بعثات الحج لموسم حج العام الحالي ١٤٣٩هـ، وذكر بأنّ إجمالي ذبائح البعثات الموسم الماضي بلغ ٤٢٠ ألف ذبيحة، مؤكداً أنّ إدارة المشروع تسعى لاستقطاب أغلب البعثات، بدلاً من ذهابهم للسماسرة الخارجيين للقيام بالذبح العشوائي الذي يضر بصحة وبيئة منطقة المشاعر المقدسة.

وأضاف الأستاذ رحيمي قائلاً: تعمل المجازر الثمانية على تنفيذ ذبائح البعثات في اليوم الأول من التشريق، كما أنّ جزء منهم لا يمانع تنفيذها خلال اليومين الأولين من أيام التشريق، لافتاً إلى وجود ترتيب لتلك الأعمال عن طريق لجنة التشغيل التي توزّع الخطط وأوقات الذبح وتحديد المجازر المكلفة بذلك، وتسمح إدارة مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي، لبعثات الحج بإرسال مندوب عنها لمتابعة عملية الذبح وفق المواصفات الشرعية والصحية واستلام بعض الذبائح إذا رغبوا بذلك.

وأشار الأستاذ رحيمي إلى أنّ تعاون بعثات الحج، جاء بعد سلسلة ندوات لعدد من السفراء وقناصل الدول العربية والإسلامية في المملكة نظمها البنك الإسلامي للتنمية ـ الجهة المنفذة للمشروع نيابة عن حكومة خادم الحرمين الشريفين ـ بهدف توعية حجيجهم باقتصار شراء كوبونات النسك من الهدي، والأضحية، والفدية، والصدقة، على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي، نظراً لتوفير المشروع كافة الشروط الصحية والشرعية والبيئية.

الأتراك يساهمون بشراء ٩٤٥٠٠ رأس غنم في المشاعر المقدسة

كشفت إدارة مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي لـ

«الأناضول»، بأنّ بعثة الحج التركية، تعتبر أكثر البعثات شراءً لنسك الهدي والأضاحي هذا العام بواقع ٩٤،٥٠٠ رأس من الأغنام، وأحلت بذلك المرتبة الأولى بين عموم البعثات التي تعاقدت مع المشروع وعدد ١٩ بعثة.

وذكر القائمون على المشروع، والذي يشرف على إدارته البنك الإسلامي للتنمية، نيابة عن الحكومة السعودية منذ إنشائه عام١٩٨٣، بأنّ أكثر اتجاه الحجيج الأتراك وعموم حجيج البعثات وحملات الحج الأخرى تتجه صوب نسك الهدي بنسبة كبيرة تليها الأضحية.

وللمرة الأولى في تاريخ المشروع منذ ٣٥ عاماً طبق في مبيعاته التي تستهدف الأفراد ومجموعات الحجيج البيع الإلكتروني بشكل كامل خلال موسم الحج الحالي، مستبدلاً الطرق التقليدية التي كانت سائدة في المواسم الماضية القائمة على القسام الشرائية اليدوية (كوبانات)، وهو ما ساهم في مكافحة عمليات التزوير.

وقال المشرف العام على مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي المهندس موسى بن علي العكاسي: إنه وفقاً لأخر الإحصاءات المعلوماتية الصادرة من الإدارة التسويقية للمشروع، بأنّ إقبال الحجيج على نسك الهدي بلغ ٦٦٦،٣٥٦ تليها نسك الأضحية بـ: ٣٤،٥٠٢ .

وفي سؤال وجهه مراسل «الأناضول» للمشرف العام العكاسي، حيال عدد سندات التعاقد التي تمت مع بعثة شؤون الحج التركية الممثلة في رئاسة الشؤون الدينية، فذكر بأنّ بعثة الحج التركية استكملت كامل سنداتها بنسبة١٠٠٪ ، إلى جانب بعثات كلّ من «جيبوتي، والصين، ونيجيريا، وباكستان».

وبدأت المجازر التابعة لمشروع المملكة للإفادة من الهدي والأضاحي اليوم الجمعة العاشر من ذي الحجة أداء نسك النحر، والتي بدأت بعد صلاة عيد الأضحى المبارك.

ولدى المشروع ٧ مجازر للأغنام، ومجزرة واحدة للأبقار موزعة في مكة المكرمة ومنطقة المشاعر المقدسة، وهناك نوعين من المجازر، المفتوحة والمغلقة، والأولى هي وحدات المجزرة الحديثة للأغنام (ب،د،هـ،و)، ومفتوحة للجميع، بحيث يشتري الحاج عند مدخل المجزرة سند أو أكثر بعدد الأغنام التي يرغب بشراءها، كما أنّ بإمكانه أداء نسكه بنفسه، أو تحت إشرافه، ومن ثم تتولى إدارة المشروع عملية السلخ والتنظيف.

كما تعتبر مجزرة الأبقار من المجازر المفتوحة، ويقوم الحاج بشراء الأنعام من التاجر مباشرة، مضافاً عليها مبلغ ١٥٠ ريال ما يعادل٤٠ دولار أمريكي على قيمة الشراء، لتغطية جزء من تكاليف «النحر، والذبح، والسلخ، والتنظيف، والخدمات البيطرية، وإيصال اللحوم إلى المستحقين».

وأما المجازر المغلقة، فحددت بمجزرة المعيصم النموذجية رقم (١) ومجزرة المعيصم رقم (٢) ومجزرة المعيصم رقم (٣)، ويتم العمل بها بنظام التوكيل، ويقوم الحاج بشراء سنداته من منافذ البيع، ويقوم المشروع بتنفيذ النسك نيابة عنه دون عناء، كما يمكن السماح لكلّ ٣٠ حاجاً وأكثر إرسال وكيل عنهم يشرف على تنفيذ النسك نيابة عن موكليه، ويعطي تصريحاً رسمياً بدخوله لمتابعة ذلك.

فيما استعان المشروع للقيام بمهامه الموكلة إليه بعمالة ٧ دول، من بينها تركيا، ومصر، والأردن، وجيبوتي، والسودان، ولبنان، والمغرب، وتوزعت بين «الأطباء البيطريين، والشرعيين، والجزارين، والفنيين، والعمالة المساندة»، وتقدر الكوادر البشرية العاملة في مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدي والأضاحي٤٠ ألف فرد، ونحو ٨٠٠ طبيب بيطري، و٨٠٠ من طلبة العلم الشرعيين والمعنيين للكشف على سلامة الأغنام، والتأكد من توفر كافة الشروط الشرعية والصحية على جميع الأنعام.

ولا تزال عمليات بيع السندات مستمرة حتى عصر ثالث أيام التشريق (١٣ ذي

الحجة)، وحددت اللجنة الفنية للمشروع سعر سند بيع الأضاحي في موسم الحج الحالي بـ ٤٥٠ ريالاً سعودياً، ما تعادل نحو ١٢٠ دولار أمريكي، أو ٩٣ يورو، وذلك حسب أسعار صرف العملات اليوم.

نظراً لضرورة إخلاء مشعر مزدلفة من المجازر القديمة لإنشاء مواقف لحافلات الحجاج فقد تم في عام ١٤٢٥هـ تجميع المجازر في منطقة المعيصم، حيث تم تفكيك مجزرة المعيصم رقم (٢) للأغنام الواقعة شمال شارع الملك فهد بمزدلفة ومجزرة وادي محسر رقم (٣) الواقعة شمال شارع سوق العرب بمزدلفة وإعادة تركيبهما بموقعهما الجديد شمال طريق المعيصم، وتنفيذ جميع أعمال التحسينات والتعديلات والإضافات المطلوبة وتطويرهما كمجزرتين آليتين حديثتين مع زيادة الطاقة الاستيعابية لهما، وتم إنشاء محطة معالجة مخلفات الذبح وفق نظام متطور للتخلص من هذه المخلفات بطاقة حوالي (٥٠٠ طن يومياً) وتحويلها إلى أسمدة طبيعية مع تصفية الدهون واستخدامها صناعياً بحيث يمكن التخلص من جميع مخلفات الذبح خلال ثمانية أيام بعد انتهاء موسم الحج.

(https://www.alyaum.com/articles/٨٢٧٨٨٠/ مجازر المعيصم من الدفن في العراء إلى إنتاج الجيلاتين).

ذبح أضاحي الحجاج الإيرانيين في موسم عام ١٣٩٧ الهجري الشمسي:

إنّ عدد الأضاحي في هذا الموسم بلغ ٨٣٢٥٦ على ما نقله السيد الأستاذ أسداللهي «قائم مقام بازرسي بعثه حج ايران»، والتي يعادل كلّ واحده منها ٤٩٢٠٠٠ ريال إيراني.

لقد قام فريق متشكل من عشرين شخص من خبراء الصحيين ويرافقهم المشرف الشرعي للإشراف على الأضاحي المخصصة للحجاج الإيرانيين في منطقه الشميسي.

بالإشراف على الأغنام المستوردة من السودان والصومال من الناحية الصحية وتوفر الشروط الشرعيه فيها.

أما في أيام الشريق فقد تم عملية ذبح حوالي ٦٥٠٠٠ أضحية للحجاج الإيرانيين على يد ٦٥ نفراً من الذابحين الإيرانيين المحترفين، وكان قد أشرف على الذبح في كلّ صالة المشرف الشرعي وكان بإمكان كلّ واحد من مرشدي القوافل أن يدخلوا المذبح مع التنسيق للإشراف على عملية ذبح الأضاحي المخصصة لأهل حملتهم. وقد اشترطنا على مسئوولي المذبح أن يتوفر في كلّ أضحية مضافاً على الشرائط المذكورة في فقه العامة، الشرائط المندرجه في الفقه الجعفري.[١]

إغلاق أحد مذابح معيصم في موسم ١٤٣٩هـ

وجه وزير الشؤون البلدية والقروية بإيقاف مدير عام المسالخ بأمانة منطقة مكة المكرمة وإحالته للتحقيق بسبب الإهمال في مسلخ المعيصم وانعدام الاشتراطات الصحية.

ووفق صحيفة «سبق» المحلية، فقد وجه الوزير بتشكيل لجنة للوقوف على مسلخ المعيصم بمكة بسبب تكدس الذبائح أول أيام العيد وإحالة عقد المستثمر للإدارة القانونية لاتخاذ الإجراءات اللازمة.

وأمر أمير منطقة مكة المكرمة خالد الفيصل في وقت سابق بإغلاق مسلخ المعيصم بشكل نهائي، وذلك بعد تداول مقطع عبر مواقع التواصل الاجتماعي، يعكس

---

١. مقابلة مع السيد أسداللهي .

غياب النظافة خلال ذبح الأضاحي في المسلخ.

ووثق أحد المواطنين المقطع وهو ينتقد غياب النظافة عن المسلخ، ويقول: «وينك يا خالد الفيصل وينك؟ بالله عليك هذه مكة؟»، وبعدها سأل عن إسم المسلخ، حيث أجابه أحدهم أنه مسلخ المعيصم المركزي.

وعرض المواطن القذارة والذبائح المكدسة بالعشرات والعمالة التي تعمل في ظروف غير صحية، كما وثق القذارة التي ملأت أرضية المسلخ بشكل كبير. (https://www.eremnews.com/news/arab-world/saudi-arabia/١٤٦٥٧٣٧).

وإنّ أمانة العاصمة المقدسة أصدرت بياناً صحفياً أشارت فيه إلى أن المسلخ يدوي تم تخصيصه للأهالي وليس للحجاج وله طاقة استيعابية محدودة، موضحة أن إعاقة عملية الترتيب والتنظيم نجمت عن توافد أعداد كبيرة جداً من الحجاج إلى المسلخ بصحبة جزارين من مخالفي نظام الإقامة بدلاً من توجههم للمسالخ التابعة لمشروع المملكة للإفادة من لحوم الهدي والأضاحي التي خصصت خدماتها للحجاج، مضيفة أن استعجال الحجاج لذبح أضاحيهم في وقت محدد وتركها دون الاستفادة منها ودون الالتزام بالتنظيم نتج عنه تكدس للذبائح وانتشار مخلفاتها.

وتابعت الأمانة أن المستثمر المشغل للمسلخ لم يكن مستعداً لاستقبال هذه الأعداد الكبيرة من الذبائح في وقت واحد والتي تفوق الطاقة الاستيعابية للمسلخ، مشيرة إلى ذبح ٢٧٦٩٠ رأساً من الغنم في ذلك اليوم. (صحيفة عكاظ ١٣٩٧/٩/٢٩ ، ٢/٢ (https://www.okaz.com.sa/article/١٦٦٦٠٨٢

اقتراح لمستقبل الذبح في الحج:

المعيصم

لقد اقترح هذا المقام المسئوول بأنه يمكن أن نحرض الحجاج الإيرانيين واقناعهم للذبح في إيران، بالنظر إلى آراء بعض المراجع الـذي ذهـب إلى التخـيير في الـذبح في مذابح معيصم والذبح في الوطن أن هذا يسبب التوفير للعملة الإيرانية ويتـيح الفرصـة لأن يستمتع الفقراء بما يعادل ٨٠٠ طناً من لحوم الأضاحي داخل البلاد.[١]

لكن من البعيد أن يرى هذا المقترح ضوء الحقيقة، لأنه غـير ملائـم لكـثير مـن فتاوي المراجع المعاصرين،[٢] وهو في محله على ما حققنـاه في مقـال مسـتقل في هـذا المضمار والأجدر أن تكدس المساعي لأجل ترخيص أسعار الأضـاحي أو الاسـتثمار لإنتاج الأضاحي في إيران وإيرادها إلى السـعودية كمـا دعـا إليـه منـدوب صـندوق التوسعه الإسلامية لدى زيارته لحقول الأغنام في إيران كما نقلـه السـيد أسـداللهي في مقابلته معنا.

من ناحية أخرى يظهر أنه من الراجح الإعتناء إلى عملية نقل أضاحي الحجاج الإيرانيين إلى بلادهم كي يسهل لهم مناولة لحوم أضاحيهم و ربما يكون فعالة من حيث التكلفة بالنظر إلى إرتفاع أسعار اللحوم داخل البلاد، يجدر أنه بحاجة ماسة للتنسيق مع الطرف السعودي وأيضاً التنسيق مع المنظمة البيطرية الإيرانية التي تعتني بشؤون إيـراد اللحوم داخل البلاد، وسبق منها العرقة لإيراد لحوم الأضـاحي الأيرانيـة في السـنوات السابقة مما أدى إلى إزالة حجم كبيرمنها داخل البلاد آنذاك،حسـب مـا أفـاده السـيد أسداللهي في مقابلته.

---

[١]. نفس المصدر .

[٢]. مناسك حج، العدد ٩٦، : ٤١٥ .

النتيجة:

المذابح المتاحة في معيصم بالقرب من مكة، الأماكن الوحيدة المسموح فيها لذبح الأضاحي في موسم الحج، وقد توفرت فيها كثير من الجوانب الشرعية فيها قدر المستطاع بحث لايفوت من الجهات الشرعية إلاّ كونها داخل منى الذي يضطر إليه ولابد منه في هذه الظروف.

وتنفذ عملية الذبح تحت إشراف عدد كبير من الخبراء الشرعيين من السنة و الشيعة، وأما لحوم الأضاحي فيوزع منها قرابة ٦٠٪ داخل السعودية ويوزع ما بقي منها في بعض البلدان الإسلامية مثل مصر وأثيوبيا وآذربايجان وسوريا وسنغال و... التفاوض لإيرادها إلى داخل البلاد ممكن.

المصادر:

(https://www.adahi.org/Arabic/WorldwideDistribution/Pages/Distribution-Centers.aspx).

(https://www.alyaum.com/articles/٨٢٧٨٨٠/ مجازر المعيصم من الدفن في العراء إلى إنتاج الجيلاتين.

https://www.eremnews.com/news/arab-world/saudi-arabia/١٤٦٥٧٣٧)

ارزيابى اجراى طرح قربانى در چهار سال متوالىمقاله ٥، دوره ١٣، شماره ٤٩، پاييز ١٣٨٣، صفحه ١-١

بهشتي سيدمحمدحسيني ـ حج در قرآن ـ دفتر نشر فرهنگ اسلامي ـ اول ـ

تابستان ١٣٦٥ ـ تهران

صحيفة عكاظ ١٣٩٧/٩/٢٩ ،

(https://www.okaz.com.sa/article/١٦٦٦٠٨٢ ٢/٢

مصاحبه با جناب آقای اسداللهي مسئول طرح قرباني، حج ١٣٩٧.

مغنيه ـ محمد جواد ـ فقه الإمام الصادق عليه السلام ـ مؤسسه انصاريان ـ قم ـ دوم ـ ١٤٢١ ه‍ ق.

مقاله: از هندوستان تا حريم يار، سيرى در سفرنامه حج مرحوم صاحب عبقات الأنوار علاّمه مير حامد حسين هندى، ترجمه وتحقيق: محمدعلى مقدادى، فصلنامه «ميقات حج»، عدد١٤.

مكارم شيرازى ناصر ـ حكم الأضحية في عصرنا ـ انتشارات مدرسه امام على بن ابى طالب عليه السلام ـ قم ـ ايران ـ سوم ـ ١٤١٨ ه‍ ق.

مناسک حج مطابق با فتواي امام خميني و مراجع عظام تقليد، چاپ ١٢ (ويرايش جديد)، پژوهشكده حج وزيارت، مشعر١٣٩٦.

قراءة في كتابه

«رحلتي إلى مكة المكرمة». [1]

د. محمد خير البقاعي

---

[1]. Courtellemont، Gervais، Mon Voyage à La Mecquc، Paris، Librairie Hachette etc ١٨٩٦.

ونشرت الرحلة ثانية في عام١٩٩٠م دار نشر Desclée de Brouwer ، ضمن سلسلة ديوان، التي يشرف عليها سليمان زيغيدور؛ وقد ذيلت هذه الطبعة بالكلمة الضافية التي كتبها غي كورتلمون عن الرحالة، وينشر ترجمة الرحلة منجمة في صحيفة الرياض الصديق الدكتور معجب الزهراني، وقد ترجمنا الملحق الذي اعتمد كورتلمون فيه على كتاب الطبيب أدريان بروست الاتجاه الجديد للسياسة الصحية، ضمن بحث مقبول للنشر في مجلة «الدارة» بعنوان: أدريان بروست ليس له رحلة إلى الحجاز.

الملخص:

جيل ـ جرفيه كورتلمون ـ قراءة في كتابه «رحلتي إلى مكة المكرمة».

الدكتور محمد خير البقاعي

يتناول البحث بالدراسة الرحلة التي قام بها الرحالة الفرنسي جيل جرفيه كورتلمون (١٢٨٠-١٣٥٠هـ/١٨٦٣-١٩٣١م)، إلى مكة المكرمة في عام١٣١١هـ/١٨٩٤م. وتأتي هذه الرحلة في سياق الرحلات الفرنسية الي بدأها ليون روش، ثم شارل ديديه، ثم كورتلمون.

وتكتسب هذه الرحلة لأهميتها من شخصية صاحبها الذي كان فناناً، مارس فن التصوير أمداً طويلاً، وأسهم في تطوير آلة التصوير الملونة، وكان أول من التقط صوراً في مكة المكرمة، وأول من صور الضريح النبوي في المدينة المنورة. لقد اعتنق الإسلام، وكان مالكي المذهب، وسجل أحداث رحلته بإخلاص و صدق، وأشاد به الفرنسي المسلم ناصر الدين دينيه، و قال: إن كتابته تتضح بحب الإسلام والمسلمين. ولعل أهم ما في الرحلة الملحق الذي يكاد يكون منقولاً من كتاب الطبيب الفرنسي أدريان بروست عن الأوضاع الصحية في الحجاز في نهاية القرن التاسع عشر. قرأنا الرحلة، وترجمنا الكلمة الضافية التي كتبها غير سكورتلمون عن سميه، و علقنا على كل ذلك في هذا البحث الذي يعد الأول الذي يتناول هذه الرحلة المهمة.

۞ ۞ ۞

لم تحظ الرحلات المكتوبة بالفرنسية إلى الجزيرة العربية، سواء كان من قاموا بها

فرنسيين بالانتماء أم بالولاء،[١] بما حظيت به الرحلات المكتوبة بالإنجليزية من دراسات و تحليلات، ناهيك عن الترجمات التي قدمت لنا نصوص بوركهارت، وبرتون، وبلجريف، ولويس بلي، وغيرهم. ونجد مصداق ذلك إذا استعرضنا البحوث المقدمة إلى ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، والتي بلغت ستة وعشرين بحثاً؛[٢] بحثان منها تناولا الجانب الفرنسي، أحدهما عن رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١ــ١٨٤٢م، والآخر عن أهمية مدونات الفرنسي إبراهيم دبوي باعتبارها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية خلال الفترة من ١٩١٩ ـ ١٩٢٩م. ونتج عن انصراف المترجمين عن الرحلات الفرنسية بقاؤها بعيدة عن أنظار الباحثين، وكنا قد أشرنا إلى ذلك، ودللنا عليه في غير موضع.[٣]

---

١. نقصد بالانتماء الإشارة إلى الفرنسيين الذين قاموا برحلات إلى الجزيرة العربية مثل: شارل ديديه، ليون روش، كورتلمون، دينيه، وغيرهم. ونقصد بالولاء الإشارة إلى أولئك الذين قاموا بالرحلات لحساب الفرنسيين دون أن يكونوا فرنسيين مثل: دمنغوا بأديا، المسمى علي بيك الكبير، وغيره.

٢. حسب ما جاء في مستخلصات البحوث الصادرة عن دارة الملك عبد العزيز التي كان لها فضل تنظيم هذه الندوة العلمية في مدينة الرياض في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ رجب ١٤٢١هـ ـ الموافق ٢١ إلى ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م.

٣. انظر بحثنا «قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: إقامة في رحاب الشريف الأكبر ـ شريف مكة المكرمة» تأليف شارل ديديه، مجلة الدرعية، السنة الثانية، ع ٨، ١٤٠هـ/٢٠٠٠م. وتقديمنا للرحلة المذكورة بترجمتنا، ط. دار الفيصل التقافية، الرياض،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. (نشرت بعنوان: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي١٨٥٤م).

و نحاون اليوم تسليط الضوء على إحدى الرحلات الفرنسية،[1] التي أثارت جدلاً واسعاً، كما يشير إلى ذلك ناصر الدين دينيه في حديثه عنها، وكما يبدو من السيرة التي كتبها أحد أحفاد صاحب الرحلة، وألحقت بالطبعة الأخيرة منها. ونقدم ترجمة لها بين يدي التعريف بهذه الرحلة؛ لتكون مدخلا إلى حياة الرجل الذي نسيه التاريخ كما يقول بحق كاتب هذا الملحق.

أتى كورتلمون إلى الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر، بعد شارل ديديه، وليون روش؛ ويجد قارئ بحثنا هذا معلومات وافية عن ظروف الرحلة وملابساتها في المدخل المترجم.[2]

١. أشكر لسعادة الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد أنه قدم لي صورة عن هذه الرحلة، وليس ذلك بغريب عليه فهو صاحب فضل سابق.

٢. ص ٢١٧ إلى ٢٣٣ من الطبعة المشار إليها في بداية هذا البحث. أما سيرة كورتلمون التي كتبها غي كورتلمون فهي منشورة ملحقاً لطبعة ١٩٩٠م، ومؤرخة في يونيو «حزيران» ١٩٩٠م.

ملحق،[١]

نعلم أنّ عدداً قليلاً من الأوربيين، منذ عهد النبي محمدﷺ، في القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، نشروا حكاية رحلاتهم إلى مكة المكرمة، وإقامتهم فيها. و مكة المكرمة مسقط رأس النبيﷺ، و مهد الإسلام، والعاصمة الروحية للأمة الإسلامية.

إنّ جيل جرفيه كورتلمون، الذي كان أول فرنسي من أصول أوروبية مسيحية،

١. جاء على الغلاف الخلفي لطبعة ١٩٩٠م نبذة مختصرة عن الرحالة نورد هنا ترجمة لها: «ولد رحالة، نشر المجلة الذائعة الصيت: **الجزائر الفنية والمصورة**؛ وهي مجلة شهرية مصورة، تأسست في الجزائر عام ١٨٨٩م، وهو مصور ذو شهرة عالمية، نشر له بين عامي ١٩٢٤م و ١٩٣٢م ٤٦٦ صورة ملونة في المجلة الجغرافية الوطنية، في واشنطن العاصمة، وله غير ذلك كثير من الأعمال التصويرية، عاش بين عامي (١٨٦٣-١٩٣٠م)، وحسَّن آلة التصوير الملونة التي اخترعها الأخوان لوميير، وقام على وجه الخصوص بالتقاط صور تأسر الألباب لمكة المكرمة وضواحيها، وتعد هذه الصور في عداد أول الصور التي التقطت عياناً للمدينة المقدسة. وأهم مؤلفاته: من الجزائر إلى القسطنطينية (٥ مجلدات)، الجزائر، جرفيه كورتلمون، ١٨٨٨م (؟) النص من تأليف شارل لالمان، الصور لجرفيه كورتلمون؛ الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية باريس، نوفلار، ١٩٠٠م؛ رحلة إلى يونان، باريس، بلون نوري، ١٩٠٤م؛ ساحة معركة المارن (٢٤٠ صورة بالألوان)، باريس، طبع الفرنسية المزينة، ١٩١٥م؛ معركة الأورك، باريس، ديلغراف، ١٩١٦م؛ معركة فيردان، باريس، طبع الفرنسية المزينة، ١٩١٧م؛ الحضارة (تاريخ اجتماعي للإنسانية) (٣ مجلدات)، باريس، مطبوعات لوفاسور، ١٩٢٣م.

يحضر موسم الحج،[1] هو أحد الذين نسيهم التاريخ. لقد قام عام ١٨٩٤م بمغامرة حقيقية، تذكرنا بـ رينيه كاييه Rene Caillie، مكتشف تمبكتو،[2] Tombouctou في علم ١٨٢٦م. إنّ غير المسلم الذي يقبض عليه في الأرض المقدسة، معرض لعقوبة الموت، إلاّ إذا توافر له الوقت ليثبت أنه اهتدى من قبلُ إلى الإسلام. وما زالت الرقابة حتى اليوم صارمة على حدود الأراضي المقدسة؛ إذ نجد على أبواب مكة المكرمة والمدينة المنورة لائحة كتب عليها: للمسلمين فقط.[3]

ولد جرفيه عام ١٨٣٦م في أفون Avon في مقاطعة (سن- إي- مارن. Seine – et – Marne)، فقد أباه وله من العمر ثلاث سنوات، وسرعان ما تزوجت أمه ثانية من ضابط فرنسي اسمه: جيل ـ جورج كورتلمون، تولى رعاية جرفيه وأخيه، كما لو كانا ولديه، وذهب جرفيه للعيش مع أسرته الجديدة في الجزائر. و نقل جيل إلى الطفل حب البلد، وسكانه، والحضارة الإسلامية، ونمَّي لديه ملكة حب الاستطلاع، وعقلاً بعيداً عن الأحكام المسبقة، التي كانت شائعة في عصره.

---

١. لم يحضر كورتلمون موسم الحج الرسمي، كما يصرح بذلك هو نفسه في الصفحة ٩٩ من النص الفرنسي، يقول: «لم تصادف إقامتي في مكة المكرمة موسم الحج الرسمي السنوي...». (المترجم).

٢. مدينة في مالي (المترجم). و رينيه كاييه مستكشف فرنسي (١٧٩٩-١٨٣٨م)، أول فرنسي وصل إلى تمبكتو في ٥ شوال ١٢٤٣هـ/٢٠ أبريل ١٨٢٨م، ومكث فيها أسبوعين، وسافر منها إلى المغرب، ثم إلى فرنسا، حيث قدم تقريراً عن رحلته إلى الجمعية الجغرافية في باريس، ونشرت رحلته بعنوان: يوميات رحلة إلى تمبكتو.

٣. زيغيدور سليمان، الحياة اليومية في مكة المكرمة من عهد النبيﷺ حتى يوم الناس هذا، هاشيت، باريس، ١٩٨٩م.

نشأت بينهما علاقات متينة، يدل على ذلك أنّ «جرفيه» ظل طوال حياته محتفظاً بلقب أسرة والده بالتبني، إلى جانب اسمه الأصلي: لذلك حمل على الدوام اسم، جيل ـ جرفيه كورتلمون. لقد تعلم من العيش على أرض قاحلة القيمة الحقيقية للحياة: «ليس المتعة أن تحصد، ولكن أن تزرع. إنّ الزرع هو الأمل. والربيع هو الحيوية المتوهجة، والأمل بلا حدود، إنه فرح العمل، وفرح الحياة التي تولد».[١]

لقد ظهر لدى جيل ـ جرفيه كورتلمون منذ نعومة أظافره، ميل إلى فن التصوير الضوئي، الذي كان حينئذ جديدة كل الجدة (وطور بعد ذلك آلة التصوير الملونة التي اخترعها الأخوان لوميير Les Fréres Lumiere). ثم أسس داراً للنشر، ونشر مجلة شهرية: الجزائر الفنية المصورة، بالتعاون مع جيل لوميتر :Jules Lemaitre وموباسان Maupassant، وفكتور مرغريتVictor Marguerite، و خصوصاً بيير لوتي Pierre Loti. وكانت تربطه بهذا الأخير صداقة قديمة، بعد أن قاما معاً فيما يبدو برحلة إلى تركيا بحثاً عن ضريح أزيادي Aziyadé، وهي شابة كان لوتي البحارة الروائي علاقة حب معها في عام ١٨٧٧م، تحدث عنها في رواية عجيبة، عنونها أزيادي (١٨٧٩م Aziyadé)،[٢] وظلت ذكراها متسلطة عليه خلال سنوات طويلة.[٣]

تعلقت نفس كورتلمون بالسفر إلى ديار الإسلام وغيرها. و دفعه حبّ الأسفار

١. رحلة إلى يونان، بلون، باريس، ١٩٠٤م، ص ١٦٦.

٢. أول أعمال الأديب الفرنسي بيرلوتي (١٨٥٠-١٩٢٣م).[المترجم].

٣. قال في كورتلمون في كتابه، جيرفيه كورتلمون رائد تصوير الضريح النبوى، ص ١٢٨، الحاشية: إنّ بيرلوتي حول غرفة في منزله إلى مسجد احتفاء بذكرى ازيادي «خطيبية»، التركية.

إلى التفكير بدخول مكة المكرمة، المدينة المجهولة، التي لا يجوز لغير المسلمين دخولها.

لقد سبق له، وآلة التصوير في يده، أنْ جاب بلاد المسلمين الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط، مستعرضاً، من طنجة إلى استانبول، المواقع الأثرية، والصروح، والشعوب، محاولاً أن يظهر بأمانة، عظمة الماضي، وروعة الحاضر.[1] عرض جيل ــ جرفيه كورتلمون مشروعه الضخم على جيل كامبونJules Cambon، الحاكم العام في الجزائر، ولم يكتف كامبون بالإعراب عن سروره به، بل أسند إليه مهمة سرية، تتمثل في الحصول من شريف مكة المكرمة على تأكيد صحة الفتوى التي حملها في السنة المنصرمة الحاج أكلي.[2] وتثبت هذه الوثيقة أنّ «علماء الإسلام يقرون السيطرة الفرنسية الكاملة على الجزائر وتونس، ويرون أنها تتوافق مع تعاليم القرآن الكريم».[3]

و كان جيل كامبون قد أرسل أكلي، الذي استفاض كورتلمون في الحديث عن ماضيه (ص ٦ـ١٠)، في العام السابق ١٨٩٣م للحصول على تلك الفتوى. و يظهر من حاشية وجدت في أرشيفات ما وراء البحار (أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٠٠م، رقم ٢٤٩١) أن «جبلة Djabila حاج أكلي حصل لقاء ذلك على مبلغ من المال قدره خمسة آلاف فرنك تقريباً»، مما يمكن أن يعلل عدم نجاح كورتلمون في الحصول له على

---

١. رحلتي إلى مكة المكرمة، ص ٥ .

٢. أكلي اسم يشيع لدى برابرة الجزائر، وقد كان بائع اللحوم يسمى أكلي ثم تحولت الكلمة إلى اسم علم. ويبدو أن أكلي هو اسم العائلة لأنه يسمى في مكان أخر من الرحلة: جبلة Djabila حاج أكلي.

٣. تقرير جيل جرفيه كورتلمون المقدم إلى السيد جيل كامبون، الحاكم العام للجزائر (أرشيفات ماوراء البحار، إكس – أن – بروفانس).

أي امتياز، على الرغم من دعم جيل كامبون، وقد كان حينئذ بعيداً عن الجزائر، ولا سلطة له على الضباط المسؤولين عن شؤون السكان الأصليين.

كان جيل كامبون حاكماً عاماً للجزائر منذ عام ١٨٩١م، وكان ذلك أول منصب رسمي يتبوؤه خلال مسيرته الوظيفية الطويلة في السلك الدبلوماسي على أعلى المستويات. ثم غادر ذلك المنصب في عام ١٨٩٧م ليصبح سفيراً في واشنطن، ثم في مدريد، و في برلين (حتى عام ١٩١٤م) قبل أن يصبح مشرفاً على معاهدة فرساي (بصفته سكرتيراً عاماً لوزارة الخارجية). و بدلاً من الاعتماد على الجيش في الحكم، أراد جيل كامبون أن يكسب تعاطف الجزائريين و تعاونهم. وكان يأمل في إشراك السكان الأصليين (كما كان يقال حينئذٍ) في أعمال التطوير التي كان يرى أنها مهمة فرنسا. ولكي يحقق ذلك، كان عليه أن يكون أكثر معرفة بالعالم الإسلامي، ناهيك عن أنّ الحكومة الجزائرية كانت معنية مباشرة بمراقبة موسم الحج، وتنظيمه، و حمايته. إذاً، كان ينبغي عليها أن تحصل على معلومات أولية عن هذه العاصمة الدينية التي يتوجه إليها آلاف الجزائريين في كلّ عام، كانت تلك المعلومات ضرورية؛ ليس لأسباب دينية أو صحية فقط، ولكن لأسباب سياسية على وجه الخصوص: كان الذين يذهبون إلى الحج يعودون، وهم يحملون لقب حاج؛ مما يمنحهم مكانة روحية لدى أبناء جلدتهم، ويكتسبون في الوقت نفسه سمواً أخلاقياً واجتماعياً، كان يسهم بفاعلية في تنظيم المدينة، ويصبح لهم أيضاً مصداقية أكثر من تلك التي تمتلكها السلطات الفرنسية. إذا عرفنا ذلك فليس من الصعب فهم حرص تلك السلطات على معرفة الدور السياسي المحض للحج.

إنّ المعرفة العملية التي اكتسبها كورتلمون، و هو في الثلاثين من العمر، عن العالم الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط، واعتناقه الإسلام، و روح المغامرة لديه، كلّ ذلك. جعل منه في عام ١٨٩٤م، أحد الكفاءات الفرنسية النادرة، التي تمتلك بعض

الحظّ للنجاح في الحصول على المعلومات المطلوبة، على الرغم من الأخطار المحدقة بذلك.

ظلّ كورتلمون شديد التكتم على الأسباب والظروف، التي دفعته إلى اعتناق الإسلام، و على المشكلات العقدية التي سببها له ذلك. و عارضه معارضة شديدة كلّ أولئك الذين كان يزعجهم عدم التزامه، طوال حياته بالأعراف المقررة. وكان عليه بعد ذلك، إبَّان رحلته الاستكشافية إلى الصين، أن يُظهر العلامة الجسدية التي تثبت انتماءه إلى الأمة ـ الختان ـ ولكنّ الوقاحة لم تصل أبداً بأولئك الذين طلبوا منه ذلك إلى حدّ التأكد منه مادياً!

و مهما يكن من أمر فإنّ كورتلمون كان يكفيه، قبل مغادرة الجزائر، أن يكون عارفاً بكلّ «أسس المذهب المالكي الذي يتبعه الجزائريون، حتى يأمن التعصب الديني عند حصول أيّ مفاجأة».[1] ويمكن أن يبدو ذلك الخوف من التعصب الديني مسوغاً للعقل الأوروبي؛ إذا علمنا أنه كان هناك، لدى عامة الناس حينئذ، أكثر مما هو عليه اليوم، تطابق بين «مسلم» و «عربي». فكيف يمكن لأوربي أن يكون مسلماً؟ إنّ اعتناق كورتلمون الإسلام كان يبدو حينئذ غريباً.

وليس بالمستنكر أن نتساءل عن الدوافع التي دعت كورتلمون إلى اعتناق الإسلام: هل فعل ذلك عن قناعة دينية، أم أنه أصبح مسلماً لأسباب سياسية، ولكي يستطيع القيام برحلته، وهو آمن؟ وما الأسباب التي كانت وراء اعتناقه الإسلام: حبه المغامرة، أم الظمأ للمطلق؟ لم نجد حتى اليوم إجابة واضحة عن هذه التساؤلات، وإنّ ما

---

١. رحلتي إلى مكة المكرمة : ٨ .

نركن إليه في هذا السياق هو مجرد قناعة شخصية، ولكنها تجد أساسها في مجمل كتاباته، التي نلمح من خلالها ما يتمتع به من خلق يتصف على الدوام بالصراحة والطيبة. وكان مذهبه الفلسفي يتجلى دائماً في إعطاء الإنسان، والقيم الإنسانية، المكـان الأول في كـلّ مسالكه. كان إبَّان حجّه حديث عهد بالإسلام، وكان كلما تقدم به العمر، ازداد معرفـة به، وأصبحت تأملاته أكثر عمقاً. لقد بدا لنا أن كورتلمون باعتناقه الإسلام مـدَّ جسـراً بين دينين، يبدو التوفيق بينهما مستحيلاً؛ المسيحية والإسلام، فهو رجل الوحدة والكلمة السواء، و حواري من حواريي السلام. كانت أفكاره بخصوص معتقده الجديـد عُرضـة لمعارضة واسعة: وهذا ما حدث! ولكن من ذا الذي يجرؤ على الجهر بالمخالفة، وإعلان وحدة المذهب في الإسلام؟

كان كورتلمون رجلاً عملياً، لديه ميل شديد إلى معرفة العباد والـبلاد، ولم يجـد كثير فائدة في تفسيرات الفلاسفة المسلمين أو المسيحيين. ففضل تمتين عقيدته انطلاقاً من ملاحظاته على طريقة المسلمين في ممارسة عبادة الله، متعمقاً في سريرتهم.

حاول كورتلمون خلال شهور طويلة، الحصول على دعم؛ ترخيصاً كان ذلك أو إذن سفر من الحكومة الفرنسية، ولكن محاولاته ذهبت سدى: إذ كانت كلّ المهمات إلى البلاد الأجنبية (والجزيرة العربية منها) منوطة بوزارة الخارجية وموظفيها. وقد كان من المستحيل الوثوق بأحد المحيطين بالحاكم العام، الذي كان يتبع وزارة المستعمرات. فتولى جيل كامبون، تمويل هذه المهمة «السرية» إلى العاصمة الدينية للأمة الإسلامية. لم يَـرُقْ نجاح مهمة موفد جيل كامبون لقنصل فرنسا في جدة. فأرسل بعد وقت قصير من عودة كورتلمون، تقريرين طويلين إلى وزير الخارجية بهذا الخصوص. أورد في تقريره الأول، المؤرخ في ٨ يناير «كانون الثاني» ١٨٩٥م (بعض الأصداء)، التي لقيتـها هـذه الرحلـة، وحاول أن يقلل من أهميتها، بل عدها غير ذات أهمية لمصالح فرنسا، و أثـار الشـكوك

حول جدية صاحبها، يقول: «كان يرافقه دليل (...) يأتي كلّ عام إلى مكة المكرمة (...) لشراء السجاد، و أشياء أخرى غريبة، يبيعها في متجر يمتلكه في الجزائر العاصمة. إن السيد كورتلمون، الذي ادعي مؤخراً أنه اعتنق الإسلام، وأبدى استعداده لإبراز الدليل المادي، إن اقتضى الأمر. كان يرتدي (...) ثياب بيضاء، أحسن هيئة، و أكثر راحة من ثياب الإحرام المعتادة. (...)، ولم يأت إلى القنصلية التي كانت، بصفة شبه رسمية، تعلم بقدومه، و لكنه أقام مع دليله عند المترجم المعاون في القنصلية».

ويتابع القنصل مضمناً تقريره خبراً يدل على نية مبيتة، إذ يقول: «إنّ كورتلون علم في جدة أنّ الشريف الأكبر يرفض أن يبحث معه أيّ موضوع، ولكنه مع ذلك يحتفظ بكلّ الهدايا التي أرسلت إليه». إنّ ما لم يصرح به ممثل فرنسا، هو أنّ القناصل لايستطيعون إقامة أيّ علاقة مباشرة مع الشريف الأكبر: لأنهم معتمدون لدى الوالي، ممثل سلطان استانبول، الذي يبسط حماية اسمية على الأماكن المقدسة. ويشير القنصل في تقريره أيضاً إلى أنه كان برفقة كورتلمون «جماعة من الذين يمقتون آلات التصوير». ولما كان رحالتنا يعرف حق المعرفة ما يحيق به من أخطار، فإنه اتخذ كلّ موجبات الحذر ليلتقط سراً صوراً للحجر الأسود، ولقصر الشريف، ولمنازل مكة المكرمة، ومنظراً عاماً لها... أما بخصوص الحشود «المعادية»، فإنّ تقرير القنصل يعارض معارضة تامة ماجاء لدى كورتلمون الذي ينقل إلينا أنه «طاف الشوارع والأسواق آمناً مطمئناً». وأنه أقام عند مطوفه على بُعد خمسين متراً من الحرم: و هذا أمر غريب من رجل كان عليه أن يبتعد عن عامة الناس العدائيين! ناهيك عن أنه ذكر بعض الأشياء التي قد تدهش الفرنسيين، فقال: «إنّ الأبواب في مكة المكرمة بلا أقفال، و البضائع مزجاة على مرأى من الجميع، ليل نهار؛ ليس هناك شرطة، والسرقة والجريمة أمران مجهولان». أما التقرير الثاني للقنصل نفسه، المؤرخ في ١٩ فبراير «شباط» ١٨٩٥م، فإنه يلقي مرة أخرى

أيضاً بظلال من الشك على حقيقة اعتناق كورتلمون الإسلام... يقول: «لقد ادعى مؤخراً أنه اعتنق الإسلام (...)، وليس ذلك الاّ مناورة تسمح له بإشباع فضوله الدنيوي».

كان كورتلمون في مواجهة دائمة مع موظفي وزارة الخارجية. وكان يلجأ إلى وزارة المستعمرات لمساعدته مادياً في إعداد رحلاته، سواء كان ذلك مادياً أو للحصول على توصيات، ولكن موظفي وزارة الخارجية رفعوا إلى وزيرهم توصية، لقيت لديه قبولاً، بمعارضة مشاريع كورتلمون. و تشهد المراسلات بين الوزارتين (المحفوظة في أرشيفات ما وراء البحار) على ما كان من تنافس بين موظفي وزارة الخارجية وأقرانهم في وزارة المستعمرات، لأنّ كلاً منهم تتملكه الغيرة على «مناطق نفوذه».

ووجد كورتلمون نفسه في وقت لاحق، في أتون تلك المواجهة، عندما أظهر خطأ ما كان ينشره قنصل فرنسا في يونان أ. فرانسوا A. Francois من أوهام، وسوء تقدير بخصوص الطبع العدواني لدى الصينيين.[١] مع ذلك، فإنّ كورتلمون، وبعد عودته من مكة المكرمة مباشرة، نال وسام جوقة الشرف برتبة فارس، بترشيح من جيل كامبون. و جاء في مسوغات ذلك أنه كُلِّف، على وجه الخصوص، «بمهمة رسمية في الجزيرة العربية، أنجزها بشجاعة، وحنكة، في ظروف صعبة، و محفوفة بالمخاطر، و حمل معه عند عودته من رحلته وثائق و معلومات لاتقدر بثمن».[٢]

١. مصدر سابق : ١٩ ـ ٢٣ .

٢. إضبارة «جرفيه، المدعو كورتلمون»، في المتحف الوطني لوسام جوقة الشرف، باريس.

ما طبيعة تلك المعلومات التي لا تقدر بثمن؟

قدم كورتلمون بعد عودته من الجزيرة العربية تقريراً للحاكم العام للجزائر عن رحلته و مهمته؛[1] كان القسم الأكبر منه تلخيصاً لقصة حجّه. وهو يقسم فيه إنه سمع من فم المفتي الكبير في المدينة المقدسة أنّ الفتوى التي حصل عليها الحاج أكلي في عام ١٨٩٣م، صحيحة. وسلَّم الشريف الأكبر رسالة تفويض من حاكم الجزائر.

ونجده في تقريره يحلل الأوضاع الصحية في وادي منى، (ومنى واد يقع على بُعد ستة كيلومترات و نصف غرب مكة المكرمة، وهي المكان الذي تنحر فيه عشرات الآلاف من الهدي إحياء السنة إبراهيم عليه السلام)، وهو يستخدم في تحليله تفاصيل تقنية دقيقة، ليؤكد أنه لاوجود لبقايا العظام أو الأقذار فيها، وقال إنّ كلّ ذلك يزول بفعل ظاهرة النترجة nitrification.[2]

وقد كان لتلك المعلومات حينئذ أهميتها؛ لأنّ الدكتور صالح صبحي؛[3] أحد المسؤولين عن مكتب الخدمات الصحية المصري، كان قد اقترح أن يتم إحراق الأضاحي في مني نزولاً عند رغبة الإنجليز، الذين كانوا يأملون أن يجدوا من خلال ذلك موطئ قدم لهم هناك. ثم يعرض كورتلمون بعد ذلك إلى انتقاد قنصل فرنسا الذي لم يهتمَّ بالحجاج الجزائريين، و كان اهتمامه أقل بالحجاج التونسيين والمغاربة. ويعرض

---

١. مذكور سابقاً في الحاشية رقم ٤ .

٢. وهو تفاعل جرثومي كيماوي يحول الأمونياك وأملاحه إلى نيترات. (المترجم، عن المنهل) .

٣. صالح صبحي بن إبراهيم طبيب مصري، من أهل القاهرة، تعلم في مدرسة الألسن والقصر العيني ثم في باريس، توفي عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م. انظر الأعلام للزركلي٣ :١٩١. (المترجم).

كورتلمون أن يكون لفرنسا سياسة ثقافية في الحجاز؛ تتمثل في إرسال كتب فرنسية؛ لكي يكون هناك توازن مع النفوذ البريطاني المتنامي في الجزيرة العربية. وسياسة دينية تتمثل في بناء مسجد في باريس (وكان يقول: إنّ لندن هي العاصمة الأوروبية الوحيدة التي تمتلك مسجداً). ويختتم التقرير بملاحظة سرية حول مردروس بيه Mardrus Bey، وكيل قنصلي سابق، يشك كورتلمون في أنه يفضل أن يُمنَح امتياز وادي مني للبريطانيين.

هنأت صحيفة **الراصد الجزائري** La Vigie algérienne التي تصدر في العاصمة الجزائرية، في عددها الصادر يوم ٥ يناير «كانون الثاني» ١٨٩٥م، الحاصل الجديد على وسام جوقة الشرف، وخصصت صحيفة الأخبار عمودين ينضحان بعبارات الإطراء للمحاضرة التي ألقاها في الجزائر العاصمة الرحالة والحاج كورتلمون.

وبعد عدة أيام ظهرت في صحيفة **الراصد الجزائري** ملامح المعركة التي لم تتأخر في الانفجار؛ إذ لم توجه سهام الانتقاد إلى كورتلمون (مع أنه اتهم «بالتظاهر بالإسلام»...)، ولكن الانتقادات كانت توجه مباشرة إلى الحاكم العام، الذي اتهم بأنه سهَّل لمواطنين فرنسيين «اعتناق الإسلام»: «فالمارشال بوجو Bugeaud.[١] (...) أوفد

١. Thomas-Robert Bugeaud De La Piconnerie- توماس روبير بوجو دو لا بيكونري، عسكري فرنسي ولد في ليموج عام ١٧٤٨ م، ومات في باريس عام ١٨٤٩م. وطد دعائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر عندما أرسل إليها عام ١٨٣٦م، وعين حاكماً عاماً للجزائر في عام١٨٤٠م (المترجم).

إلى مكة المكرمة مترجماً عسكرياً هو السيد ليون روش Léon Roche،[1] الذي لم ير ضرورة اعتناق الإسلام ليقوم بمهمته. وقد ذهب لمقابلة الشريف الأكبر بصفته فرنسياً،

---

١. ليون روش، ولد في غرونوبل (فرنسا) في ٢٧ سبتمبر «أيلول» ١٨٠٩م، ورحل إلى الحجاز بين عامي ١٨٤١-١٨٤٢م، لم تترجم رحلته إلى العربية بعد، وعنوانها: اثنان و ثلاثون عاماً في بلاد الإسلام Trente Deux ans à travers L ʾIslam، وهي مذكراته، و تقع في جزأين، يقع كلّ منهما في ٥٠٠ صفحة؛ تحدث في الجزء الأول عن أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر، وفي الجزء الثاني عن مهمته في الحجاز، وحياة المارشال بوجو، وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر إلى تونس، ثم مصر، والحديث عن الحجاز يقع في الصفحات ٦١-١٤٩، وفيها صور تمثل الكعبة والحرم المكي والحرم المدني، والوقوف بعرفات، و طهارة الحجاج، وقد طبع الكتاب في باريس، مكتبة فيرمن ديدو، مطبعة المعهد، ١٨٨٥م. عن بحث للدكتور بلقاسم سعد الله بعنوان: «رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١-١٨٤٢م، قدم لندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، التي نظمتها دارة الملك عبد العزيز، من ٢٤-٢٧ رجب= ١٤٢١م/ ٢١-٢٤ أكتوبر «تشرين الأول» ٢٠٠٠م، وذكر دينيه في كتابه الحج إلى بيت الله الحرام أنّ ليون روش استقى كلّ ما في كتابه من كتاب بوركهارت، انظر بحثنا». ناصرالدين دينيه وكتابة الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، المجلد السابع، العدد الأول، المحرم ـ جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ/أبريل ـ سبتمبر ٢٠٠١م، وانظر الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، روبن بدْول، ص١١٠-١١٢. ويبدو أنّ وفاة روش كانت في بداية القرن العشرين لأنه ذهب إلى الحجاز في عام ١٨٤١م حسب ما يذكر الدكتور بلقاسم سعد الله في بحثه أعلاه، وفي عام ١٨٣٧م كما يذكر كورتلمون، وحضر روش محاضرة عن رحلة كورتلمون في بوردو، ألقاها كورتلمون نفسه، ويصرح أنّ روش قال له: إنه خلال المحاضرة رحل بمخيلته من جديد إلى مكة المكرمة بعد سبعة وخمسين عاماً من ذهابه إليها. وهذا يعني أنه كان حياً في عام ١٨٩٤م حسب رواية كورتلمون، وفي عام ١٨٩٩م حسب ماجاء في بحث الدكتور بلقاسم سعدالله المذكور أعلاه وهذا يعني أنه بلغ التسعين، وربما تجاوزها حسب الوصف الذي يورده كورتلمون عن وضعه الصحي.

وجندياً، و ممثلاً للحكومة الفرنسية. (...) إنّ السيد كامبون (...) لا يسلك سبيل الوضوح والصراحة فيما يقوم به من أعمال. إنه من أنصار الوسائل المشبوهة، والكذب الممقوت. ولكي يشبع ميوله البوليسية، ارتكب كلّ ضروب الحماقة، والنذالة». وتابعت الحملة صحيفة جزائرية أخرى هي **النجم الإفريقي** L' Etoile africain، الصادرة يوم ٢٢ فبراير «شباط»، في مقالة طويلة عنوانها: «المهزلة تتقلد وساماً»، فقالت: «كان منح الوسام لذلك «المسكين» كورتلمون، ذلك «الكاذب»، مهزلة كبرى؛ إنه امتهان مأساوي لكرامة الجنود الذين بذلوا دماءهم في ساحات المعارك، أن يقوم أحد الحمقى، في هزلية ساخرة، بتعليق وسام جوقة الشرف على صدر هذا المكتشف، الذي يضحك منهم الآن في سره ملئ شدقيه! (ليس الأحمق المعني هنا إلاّ كامبون نفسه!). في حين كانت صحيفة **المستعمر الجزائري الصغير** Le Petit Colon algérien، (العدد الصادر في ٢٣ فبراير «شباط» ١٨٩٥م، على سبيل المثال)، تتابع الثناء على كورتلمون، وتقول: لقد نُعِت كورتلمون في صحف أخرى بأنه «إنسان بلا قيمة»، وبأنه «أحمق»، و«كاذب»، «يتفوه بالحماقات» (صحيفة **النجم الإفريقي** الصادرة في اليوم نفسه). وفي جوّ من «الاستعراض الاحتفالي» قالت (صحيفة **الراصد الجزائري**، عدد ١٠ مايو ـ أيار ـ): إنّ ذلك الحقد والضغينة، الذين يستمران على هذه الحال منذ عدة أشهر، متولدان عن جوّ التوتر، الذي كان سائداً في تلك السنوات، التي وصل فيها الجدل السياسي إلى أقصى حدوده: كانت فرنسا في قلب الحدث الذي عرف بقضية دريفوس. وإنه لمن المصادفات التاريخية أنه قُبض على الكابتن دريفوس في يوم (١٦ اكتوبر «تشرين الأول» ١٨٩٤م)؛ أي في الفترة التي كان فيها كورتلمون يؤدي مناسك الحج (دخل مكة المكرمة في ٦ اكتوبر ـ تشرين الأول ـ). وقد هاجمته صحيفة **الراصد الجزائري**، الصادرة في ١٠يونيو «حزيران» ١٨٩٥م، في مقالة تبرز لنا (دون وعي؟) الدوافع الحقيقية الكامنة وراء

أهداف هذه المعركة الصحفية: كان الهدف الحقيقي من الهجوم على كورتلمون هو التوصل عبره إلى إسقاط الحاكم العام؛ إذ يُختتم المقال كما يلي: «إنّ السيد كامبون رجل يؤمن بالسلام، إيماناً يجعل علاقته مع السلطة العسكرية في أقصى درجات السوء. كان على خلاف حاد مع الجنرال ميرسييه Mercier، و ها هو ذا يتفاهم بصعوبة مع خلفه. لقد أصبح لدينا فكرة واضحة عن وطنية السيد كامبون (... الذي) ليس وطنياً، ولكنه دبلوماسي من المدرسة الجديدة».

وقد وجدنا مثل ذلك من قبل في صحيفة المستعمر الجزائري الصغير، الصادرة في ٢٧مارس ـ آذارـ: «إننا بصفتنا جزائريين، جدُّ فخورين بنجاح المشروع الطموح للسيد كورتلمون، ولكننا بصفتنا وطنيين، محزونون كل الحزن من التشهير الخطير، وغير المقبول الذي يتعرض له بسبب حماقة بعضهم وحقد الآخرين، وبسبب الحسد المتأجج لدى العاجزين».

إنّ كورتلمون لم يكن في كلّ الأحوال يعرف عجز الخاملين. لقد سافر كثيراً بين عامي١٨٩٥ـ١٩١٤م إلى الهند، واليابان، وبرمانيا، وكمبوديا، ومدغشقر، وأوروبا، والصين على وجه الخصوص (١٩٠٣ـ١٩٠٤م)، حيث اتبع مجرى نهر النهر الأزرق من يونان إلى شنغهاي، على الأقدام مرة، و على البغل تارة، و على متن المركب حيناً؛ وهو يرتدي الزي الصيني في أغلب الأوقات، ترافقه زوجته هيلين التي كانت بذلك تقوم بعمل باهر. لقد قدم نفسه هناك على أنه موظف كبير من الدرجة الثالثة، وزار عدداً من الجماعات الإسلامية، واكتشف إحدى قمم يونان، وأطلق عليها اسم (جبل بونفالوLe mont Bonvalot)؛ فأهّله ذلك للحصول على الميدالية الذهبية لجمعية المساحة (الطبوغرافيا).

كان كورتلمون، الذي بلغ الخمسين، واعتزل في كوتفرول coutevroult (سن

ـ إي ـ مارن Seine – et – Marne)، يعمل إبان الحرب في كوتفرول، حارساً مدنياً في خدمة الأهالي، وعمل فيها خبازاً ليسد النقص الذي أصاب اليد العاملة، وتابع التقاط الصور الملونة للحرب، ونشرها.

وعندما عاد السلام، ألقي عدداً من المحاضرات في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وكتب عدداً من المقالات في صحف مثل: النصوص المزخرفة، العالم المعاصر، صحيفة الأسفار، الخ.

L'Illustration، Le monde moderne Le Journal des Voyages ، etc)، وقدم (من ١٩٢٤إلى ١٩٣١م) أكثر من ٢٥٠٠ صورة ملونة للمجلة **الجغرافية الوطنية** National Geographic Magazine، التي نشرت منها أكثر من ٤٥٠، وقدم في ثلاثة مجلدات ضخمة مزينة بالرسوم، **التاريخ الاجتماعي للإنسانية**.

كان كورتلمون عندما مرض عام ١٩٣٠م في كوتفرول، قد بدأ بترتيب ملاحظاته لينجز كتاباً عن الإسلام، وهو الكتاب الذي كان يحلم به طوال حياته. امتد به المرض خمسة عشر شهراً بطولها، ولما أستفاق في صباح يوم السبت ٣١ اكتوبر «تشرين الأول» ١٩٣١م، نظر أول ما نظر إلى النافذة، فقد كان المطر في مساء اليوم السابق ينهمر بلا انقطاع.

«قال لزوجته حينئذ: آه! الشمس! الحمد لله! الشمس!».[1]

تلا ذلك اختناق دام عدة دقائق، ثم تجمدت ابتسامته المرحة والمشرقة، وانطفأ نظره النضر والحيوي، وسقط رأسه على كتف رفيقته. كفنوه في جنازته بثياب الإحرام التي يلبسها الحاج؛ وكان يحمل في يده، التي يزينها خاتم فضي، رسالة مفتي المالكية، التي تثبت أنّ «**عبد الله بن البشير كان مؤمناً حق الإيمان، ولا يرجو شيئاً إلاّ رحمة ربه**».

تلك كانت الكلمة الضافية التي وضعها في كورتلمون للتعريف بصاحب الرحلة التي تحدث عنها أيضاً ناصرالدين دينيه، وروبن بدول، فماذا قالا؟

عرض ناصرالدين دينيه (١٨٦١ـ١٩٢٩م) في كتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام**، في الفصل الذي خصصه لنقد الكتب التي وضعها غير المسلمين، وتضمنت وصفاً لرحلات قاموا بها في موسم الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وزعموا أنّ أحداً من المسلمين لم يتنبه إلى حقيقة أمرهم، فقال جرفيه كورتلمون في كتابه: (**رحلتي إلى مكة المكرمة**): كانت رحلة المصور جرفيه كورتلمون إلى مكة المكرمة سنة ١٨٩٦م؛ وقد كنا ناقشنا صحتها ونحن في الجزائر العاصمة.[2]

---

١. أوردت هذا القول مريم هاري Myriam Harry، في صحيفة Le Temp ٨ نوفمبر «تشرين الثاني»١٩٣١م. [ومريم هاري صديقة كورتلمون، كتبت عن حياته مقالة نشرتها في المجلة المذكورة أعلاه، انظر كتاب في كورتلمون، م. س.، ص ٢٠، ٢٢٢].

٢. وذلك قبل أن يسلم دينيه، انظر النص الفرنسي من كتاب دينيه: الحج إلى بيت الله الحرام؛
Le Pèlerinage à La maison sacrée D' ALLAH. Par El-HADJ NACR ED-DIN E. DINET, ET EL-HADJ SLIMAN BEN IBRAHIM BA'AMER, Ilustrations de E. DINET, Librairie HACHETTE, ١٣٤٧ h., P. ١٩٦. وانظر ما كتبه الأديب أحمد

وليس في كتابه من الأدلة الحاسمة ما يشهد بصدق ما جاء به في رحلته أو بكذبه. ناهيك عن أنّ رحلته لم تكن في موسم الحج؛ مما يفقدها أية أهمية.

لقد وصف لنا المؤلف على سبيل المثال وادي منى، وهو خال من المئتي ألف حاج، الذين يغص بهم الوادي أيام الحج، أنّ ذلك الوادي دون الحجاج المنتشرين فيه، ليس إلاّ أرضاً صحراوية عادية. ولكن كتاب كورتلمون يخلو من الأغلاط الفاحشة التي يعج بها كتاب الرحالة السابق (لوبوليكو)،[١] وكورتلمون يكتب بروح مفعمة بمحبة الإسلام وتوقيره، وقد أصبح هذا نادراً في هذه الأيام؛ مما يدفعنا إلى الإعجاب بالمؤلف، ونهنئه من صميم الفؤاد لإنصافه وتجرده عن الأهواء.[٢]

وقال روبن بِدْوِل في كتابه: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**:[٣] ... في عام

رضا حوحو، في مجلة «المنهل» بعنوان: ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام، ج٨، رجب ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، الحلقة رقم ٤، ص٣٣. وانظر رحلة كورتلمون، النص الفرنسي، ص ٢١١ .

١. Albert le Boulicaut، ألبير لوبوليكو، وعنوان رحلته: في بلاد العجائب، مسيحي يحج إلى مكة والمدينة: Au pays des Mystères, Pélerinage d'un Chrétien à La Mecque et Médin، ١٩١٣، Librairie plon. وانظر بحثنا ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، م. س، ص ٢٥١.

٢. الحج إلى بيت الله الحرام، النص الفرنسي، م. س، ص ١٩٦.

٣. ص ١١٨ من الترجمة العربية، وجاء فيها أيضاً: جولس جرفي گورتسون (١٨٦٣-١٩٣١م)، كان رائداً في التصوير الصحفي، وبصرف النظر عن زيارته إلى مكة المكرمة في عام ١٨٩٤م، فقد ترحل كثيراً في الصين، و كان مسافراً على أول قطار إلى المدينة المنورة، والتقط صورة لتدشين سكة حديد الحجاز ١٩٠٨م.

١٨٩٤م تلا روش في زيارة مكة المكرمة، فرنسي آخر من الجزائر، اسمه جرفيه كورتلمون Gervais Courellmont؛ وهو مصور محترف، شجعه أصدقاؤه المسلمون على الذهاب إلى مكة المكرمة، لكي يتعرف أكثر على سلوكهم وعاداتهم، وذلك حسب تصورهم، وقد كتب يقول: «إنني أحبّ الإسلام لبساطة عقيدته، وتعجبني أهدافه التي لاتتزعزع، دون أن أملك الجرأة على الاعتقاد به.[١] ولم يواجه صعوبات تذكر حتى في التقاط صور فوتوغرافية، مدعياً أنّ آله التصوير التي يستعملها ليست إلاّ منظاراً، إلاّ أنّ دليله قال له: أعرف أنها كاميراة، فقد رأيت السياح يستخدمونها مراراً في طنجة.[٢] وقد وردت في كتابه قصة بعران،[٣] «الفانتوم»، أو أشباح الجمال، التي تصل إلى مكة المكرمة في كلّ ليلة ومفاد القصة أنّ كلّ من دفن في مكة المكرمة سيذهب إلى الجنة في يوم القيامه، أما الظالمون الذين لايستحقون ذلك، فانهم ينقلون بعيداً على هذه الجمال ليحل محلهم من يستحق من كلّ أطراف الأرض، من المغرب أو تركستان، ويقول أيضاً: إنه وجد صعوبة في شراء المجوهرات، فكل قطعة تباع في السوق لابدّ من عرضها على شيخ الصاغة ليقرَّ سعرها، وذلك بعد وزنها، والوزن يتقرر نسبة إلى وزن عند من نوى التمر وحبّ الفول، كما وصف نوعاً خاصاً من المحابس الفضية التي لا يمكن شراؤها إلاّ من مكة المكرمة، ولو لبسه شخص لم يسبق له أن أدّى فريضة الحج، لبدا كمن يرتدي اللون الخاص بمدرسة لا ينتمي إليها».

---

١. انظر ص ٤ من نص الرحلة الفرنسي.

٢. ص ٨٢ من النص الفرنسي.

٣. ص١٠٤ـ١٠٥ من النص الفرنسي.

وقد أشارت إلى هذه الرحلة نوال سراج ششة ضمن جدول زمني ملخص عن الرحالة الذين زوار جدة من القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي، وسمته: جوكي كلودين جيرفيس كورتيلمونت ١٨٩٤م. وأشار إليه الدكتور فهد عبدالله السماري في كتابه، بيبليو غرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز.[١] وأشار إليه وإلى رحلته شريف يوسف بين الرحالة الغربيين الذين زاروا مكة المكرمة والمدينة المنورة... ومنهم كورتلر Courtellemont المصور الإفرنسي.[٢]

تقع الرحلة في الطبعة التي بين أيدينا في ٢٣٦ صفحة، وتحتوي كما هو مثبت على غلافها ٣٤ صورة تزينية التقطها المؤلف، ونجد في الصفحتين ٢٣٥، ٢٣٦ قائمة بمحتويات هذه الصور كالتالي:

١.منظر في مكة المكرمة (صورة مواجهة لعنوان الكتاب).

٢. صورة أحد قباطنة البحر الأحمر.

٣. انطلاق المحمل المبارك من القاهرة.

٤. الحجاج على متن السفينة.

٥. الوصول إلى جدة.

---

١. دار أراكان، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٩٠. ولم يرد له، ولا لرحلته ذكر في المقالة التي خصصتها مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية لأدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (القسم الإنجليزي)، مج٤، ع٢، رجب ـ ذو الحجة ١٤١٩هـ/نوفمبر ـ أبريل ١٩٩٠م.

٢. شريف يوسف، اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية، مجلة المورد العراقية، مج ١٢، ع٢، صيف ١٩٨٢م، ص ٨.

٦. ميناء جدة.

٧. صورة للسنبوك.

٨. منظر عام لجدة.

٩. قلعة جدة المحصنة

١٠. بيت عربي من جدة.

١١. مغادرة جدة. الطريق إلى مكة المكرمة.

١٢. صورة بدوي.

١٣. الحجر الأسود.

١٤. مكة المكرمة، منظر مأخوذ من أعلى جبل أبي قبيس.

١٥. ملابس الحجاز.

١٦. بيوت مكة المكرمة.

١٧. قصر الشريف الأكبر على طريق منى

١٨. بقايا المحم،[1] الذي كان مبنياً عندمدخل مكة المكرمة، على الطريق إلى منى.

١٩. امرأة من مكة المكرمة.

٢٠. بدوي من الحجاز.

---

١. المكان الذي كان الحجاج يطهرون فيه ثيابهم، وأمتعتهم بعد عودتهم من منى. والمحم المشار إليه بناء المكتب الصحي التركي، كما يشير إلى ذلك كورتلمون نفسه. انظر النص الفرنسي للرحلـة، ص ١٢٠؛ وانظر مقالاً للطبيب أدريان بروست بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمناه وقدمنا له وعلقنا عليه، وهو مقبول للنشر في مجلة الملك فهد الوطنية.

٢١. الطريق من منى إلى مكة المكرمة.

٢٢. وادي مني.

٢٣. شارع في جدة.

٢٤. قبر شارل هوبر.

٢٥. جدة.

٢٦. نساء بدويات.

٢٧. البيوت العربية في جدة.

٢٨. رفاق رحلتي.

٢٩. تجار هنود في جدة.

٣٠. ميناء ينبع البحر.

٣١. جذعية،[1] عربية في ينبع.

٣٢. تقع الرحلة في اثني عشر قسماً ومدخل، وقائمة بالصور الموجودة في الرحلة، موزعة على صفحاتها كالتالي:

١ ـ ٢٨ الانطلاق.

٢٩ ـ ٣٤ العودة إلى الجزائر العاصمة.

٣٤ ـ ٤٦ من الجزائر العاصمة إلى جدة.

٤٧ ـ ٥٨ في جدة.

٥٩ ـ ٦٦ من جدة إلى مكة المكرمة.

---

١. مركب صغير يصنع من جذع شجرة.

٦٧ ـ ١٥٣ الإقامة في مكة المكرمة.
١٥٤ ـ ١٥٧ مغادرة مكة المكرمة.
١٥٨ ـ ١٨٣ العودة إلى جدة.
١٨٤ ـ ١٩٠ من جدة إلى ينبع.
١٩١ ـ ٢٠٠ ينبع البحر.
٢٠١ ـ ٢١٢ السويس.
٢١٣ ـ ٢١٥ العودة إلى فرنسا.
٢١٧ ـ ٢٣٣ ملحق.
٢٣٥ ـ ٢٣٦ قائمة بالصور الموجودة في الرحلة.

يقول كورتلمون في القسم الأول الذي يعد مقدمة يتحدث فيها عن دوافع رحلته، وظروفها، وملابساتها: «أنا أحب الشرق، وسماءه الزرقاء، أحبّ الإسلام في عقيدته البسيطة، وأنا معجب فيه بفسحة الأمل التي لا تعرف القنوط، ولكنني لا أجرؤ على الاعتقاد بها. وقد حددت لهذا الكتاب هدفاً هو التعريف بتلك البلاد، بلاد الإسلام، لكي يحبها الناس، تلك البلاد المشمسة، الغافية، بلاد الجمال، والحلم، والحزن، بلاد السلام، والسعادة المطمئنة. ولكي يكون وصفي أكثر براعة أردت أن أزين كتبي بمناظر من الطبيعة نفسها، ملتقطة في المكان نفسه بوساطة عدسة التصوير، ومضمنة دون أي تحوير بين صفحات الكتاب، بكلّ الصحة والدقة التي تقدمها تقنية التصوير الضوئي».[١]

ويتحدث كورتلمون في مكان آخر من هذا القسم عن ظروف ولادة فكرة

١. رحلتي إلى مكة المكرمة، النص الفرنسي، ص ٤ ـ ٥ .

الذهاب إلى مكة المكرمة، فيقول: «في عام ١٨٩٠م تعرفت على رجل عجيب، رأيته يدخل عليَّ مشغلي ذات صباح في شارع الألوان الثلاثة، في الجزائر العاصمة؛ وكأنه أحد القراصنة، يرتدي ملابس تشبه ملابس أهل الجزيرة العربية، كأن وجهه مملوء بالندوب، وينتطق في حزامه خنجراً، وبعد أن أدى التحية المعتادة، طلب مني أن أساعده للتخلص من خطر جسيم. كان جزائرياً، اسمه الحاج أكلي، وكان حسبما قال لي يسافر منذ أكثر من عشرين سنة إلى البلاد البعيدة، من البصرة إلى بغداد، ومن القسطنطينية إلى بيروت، وإلى مكة المكرمة، والقاهرة، وطرابلس الغرب، الخ. وكان الحج إلى مكة المكرمة في تلك السنة محظوراً على المسلمين الجزائريين، بسبب أخبار عن انتشار وباء الكوليرا في الحجاز. وقد كان الحاج أكلي يسافر بهدف الحج والتجارة، لم يأبه للحظر، وحصل على جواز للسفر إلى دمشق، ولكنه مع ذلك ذهب مع قافلة الحج السورية إلى مكة المكرمة، وعاد إلى الجزائر عبر تونس. ولما وصل إلى الجزائر العاصمة، وشى به بعضهم؛ لأنه خرق الحظر القاطع، الذي فرضته الحكومة الفرنسية، وكان على وشك الإيقاف، ولكنه استطاع أن يحصل من الشرطي المكلف بالقبض عليه على إذن كي ياتي إليَّ، ويعرض على قصته. وقد هالني تعرضه للظلم، وقررت الذهاب إلى قائد الشرطة للدفاع عنه، و صادف كونه صديقاً لي».

واستطاع كورتلمون أن يطلق سراح الحاج أكلي، الذي أصبح يتردد عليه اعترافاً بالجميل، وقصَّ عليه قصته، وأنه يذهب في كلّ عام إلى الحج للتجارة، وشراء الحلي، والأقمشة الفاخرة، والسلاح وغير ذلك، ثم يبيعها في فرنسا والجزائر، أو في مصر. ويذكر كورتلمون أنّ أكلي هو أول من نصحه بالسفر إلى مكة المكرمة، وأنه كان يتخيل إمكانية تأليف كتاب رائع، مزين بالصور عن مكة المكرمة؛ وأنّ هذا الكتاب سيكون أكثر أهمية في نظره من كلّ المجلدات التي كان كورتلمون ينشرها حينئذ عن

الجزائر، والقاهرة، والقدس، ودمشق، وتونس، وطنجة، الخ.

ويتحدث كورتلمون بعد ذلك عن أصدقائه المسلمين في الجزائر، الذين شجعوه على القيام برحلته؛ ويخص بالذكر منهم الحاج عبد الرحمن الطبيبي؛ وهو طبيب موريسكي،[1] عجوز يقيم في الجزائر العاصمة، شجع كورتلمون على إتمام رحلته، وكان لتشجيعه دور حاسم في حصول ذلك. ونجد في الصفحات التالية حديثاً عما قام به كورتلمون استعداداً للرحلة؛ إذ عرض مشروعه على السيد كامبون، الذي رحب به ترحيباً كبيراً؛ لأنّ الحج من أهم القضايا التي تشغل بال الحكم العام للجزائر، والفرص للحصول على معلومات صحيحة، وغير منحازة، ودقيقة عن الحجاز، نادرة، وسبب ذلك أنه لم يتح لأي فرنسي أن يدخل المدينة المقدسة منذ أن دخلها ليون روش منذ خمسين عاماً. ونجد فيما يقوله كورتلمون بعد ذلك مصداق ما ذكره غي كورتلمون في كلمته التي أثبتناها في مطلع هذا البحث، عن التنافس بين موظفي وزارتي الخارجية والمستعمرات، ذلك التنافس الذي حرم الرحالة من الحصول على أي مساعدة من وزارة الخارجية الفرنسية، واكتفى بما قدمه إليه الحاكم العام للجزائر السيد كامبون. ويختم هذا القسم بالحديث عما حلّ بالحاج أكلي الذي سبق كورتلمون إلى مصر للإعداد للرحلة، واتفق الرجلان على الالتقاء في السويس في شهر يونيو (حزيران) للالتحاق بقافلة الحج المصري، التي تذهب كلّ عام بالمحمل إلى الأماكن المقدسة باحتفال

---

١. الموريسكي Mauresques أو المور Maure كلمة من أصل لاتيني Maurus وهي بالإسبانية Moro أطلقت على سكان موريتانيا الحالية والمغرب، انظر، كتاب د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية، القاهرة، ١٩٨٨م .

كبير، ولكن بعض الصعوبات غير المتوقعة أخرت وصول كورتلمون في الموعد المحدد مما جعل الحاج أكلي يذهب وحده إلى الحج الرسمي، ولكنه تلقى رسالة من كورتلمون يطلب منه فيها أن ينتظره في جدة التي يتوقع أن يصل إليها في ٢٠يوليو (تموز)، وجاء في الرسالة حسبما يذكر كورتلمون فقرة مضمونها: «ومع ذلك، إذا كنت تجد أنّ الإقامة في جدة صعبة عليك، فعد إلى السويس، وانتظرني هناك، وسنلتقي عند القنصل الفرنسي، الذي ينبغي أن تذهب لرؤيته بمجرد وصولك».

وصل كورتلمون حقاً إلى السويس في ٢٠يوليو، وبدأ رحلة البحث عن الحاج أكلي، الذي مرّ بالقنصلية الفرنسية، ولكنه لم يترك أيّ معلومات عن مكان إقامته، وكلّ ما علمه عنه كورتلمون أنه كان مريضاً، وتعباً من الحج، ولن يكون باستطاعته البقاء في السويس، ولكن الأمل كان يحدو كورتلمون في أنه ما زال في السويس بدليل أنه لم يعد إلى القنصلية لتأشير جوازه، إن أراد العودة إلى الجزائر. وقادت رحلة البحث عن أكلى كورتلمون إلى القاهرة، وإلى طنطا، و إلى الإسكندرية، وبينما كان في حالة ذهول على رصيف القطار في محطة الإسكندرية، إذ لم يبق أمامه إلاّ العودة إلى الجزائر، بدا له الحاج أكلي، الذي كان بانتظار القطار نفسه، الذي سيستقله كورتلمون، وكان الحاج أكلي مريضا جداً فحمله كورتلمون إلى الطبيب، الذي نصح لهما تأجيل سفرهما إلى الجزيرة العربية، وقال إنّ الحاج بحاجة إلى هواء منعش، وراحة، وتغذية جيدة. فقرر كورتمون الذهاب برفقة الحاج إلى تركيا، وإلى مدينتي بورصة و استنبول بالتحديد، لكي يستشفي الحاج، وليحصل كورتلمون على بعض الوثائق التي كان يحتاجها، لأنه يؤلف كتاباً عن هاتين المدينتين. وفي اليونان علم كورتلمون بوفاة أحد أفراد أسرته، فكان عليه العودة إلى الجزائر، فعادا معاً، وهناك تماثل الحاج أكلي للشفاء، وقررا السفر معاً هذه المرة، وكان من حسن حظهما أنّ السفينة غلوكوز Glaucus التابعة لشركة هولتز

Holtz ستتوقف في ميناء جدة؛ مما يعني أنهما لن يتوقفا في السويس. ويصف الحياة على ظهر السفينة خلال الأيام العشرة التي استغرقتها الرحلة، والأشخاص الذين كانوا على متنها. والأحاديث التي كانت تدور بينهم. ويذكر في (ص٤٣) أنّ الرحلة من السويس إلى جدة استغرقت ثلاثة أيام، ثم يتحدث عن ميناء جدة وخطورته بسبب الأرصفة المرجانية المنتشرة على الشاطئ، التى تسببت في غرق كثير من البواخر، التي مازالت بقاياها بادية للعيان، كي يعتبر بها البحارة الآخرون، فلا يقتربون من الشاطئ كثيراً في مناوراتهم للرسو في الميناء. ويتحدث كورتلمون في القسم المخصص لجدة عن جولة قام بها في المدينة برفقة الحاج أكلي، ثم يصف المدينة وصعوبة الإقامة فيها بسبب الرطوبة، وانعدام الخضرة، وكثرة البعوض، الذي ينقض عليك ليل نهار، أما أسواقها، فيذكر أنها ناشطة، وتعج شوارعها بالناس لأنها مركز تجاري كبير. ويجد القارئ حديثاً عن ضريح حواء، وعن أسوار المدية المتينة، التي تحميها من هجمات القبائل البدوية المنتشرة عند أبوابها، ولكن إهمال الإدارة التركية جعل السور يتهدم في بعض جوانبه، ونجد أيضاً حديثاً عن مقبرة المسيحيين، التي تضم قبر شارل هوبر الفرنسي، الذي قتله البدو لسنوات خلت. ويبدأ القسم الثالث بالحديث عن وسيلتي النقل المتوافرتين بين جدة ومكة المكرمة؛ وهما الجمال والحمير، ويذكر كورتلمون أنهما اختارا الحمير لأنها أسرع من الجمال في قطع الـ٨٧ كيلومتراً التي تفصل جدة عن المدينة المقدسة، ويذكر أيضاً أنّ السرعة في قطع الطريق واجبة بسب كثرة البدو الذين يسلبون قوافل الحجاج. ويتحدث كورتلمون عن وصوله إلى مكة المكرمة، ويقول إنه كان وصولاً مفاجئاً لأنها تقع بين جبلين متقاربين، ولم يعلم بالوصول إليها كما يقول إلاّ عندما وطئت قدمه أول شوارعها. ويذكر أيضا اسم مطوفهم؛ عبد الرحمن بوشناق، مطوف المغاربة، ويتحدث عن الحرم المكي، وعن الكعبة المشرفة، و يصحح الخطأ الذي كان يبدو أنه شائع في

فرنسا حينذاك من أنّ الكعبة هي ضريح النبيﷺ، ويذكر أنّ ضريحه في المدينة المنورة، ويورد قول المطوف: «لا تظنن يا أخي أنّ عليك أن تعبد هذا الحجر، أو ذلك الحرير، أو الذهب الذي يغطيها، أنت هنا في مركز الأرض، كلّ المسلمين في أنحاء الأرض يتجهون بصلواتهم إلى هذا المكان؛ لتصعد من هنا إلى السماء مباشرة، أنت أقرب ما يكون إلى الله، تلك هي القضية كلها». ونعلم أيضاً أنّ المدعو أحمد بوشناق؛ و هو قريب المطوف أخذ بيد كورتلمون ليطوف به سبع مرات حول الكعبة، وليمكنه من تقبيل الحجر الأسود، ثم ذهب به بعد ذلك للسعي بين الصفا والمروة، ثم يصف بعد ذلك المشاعر المختلفة التي كانت تنتابه في هذه التجربة الفريدة، و يصف أيضاً الصلاة في الحرم، والأضواء التي تنار فيه عند حلول الظلام؛ ويصف بيوت مكة المكرمة، و عادة النوم على السطوح في ليالي مكة الرائعة. ويذكر لنا الأشخاص الذين قابلهم عدا المطوف؛ مثل عبد الواحد، وهو من أصل مغربي، متزوج من هندية، وله ثلاثة أطفال، وكان يرافق كورتلمون في جولاته الطويلة في أحياء المدينة المقدسة، وهو الذي ذهب به إلى منى، وبرفقته استطاع أن يلتقط بعض الصور بآلة التصوير التي كان يخفيها بمهارة في طيات سجادة الصلاة، التي كان كورتلمون يحملها على كتفه، شأنه كما يقول شأن كلّ الناس في مكة المكرمة. ويروي لنا قصة المنظر العام الذي التقطه من أعلى جبل أبي قبيس، فيقول: (ص ٨٥) «أنّ البانوراما المؤلفة من اللوحات الخمس التي عدت بها من تلك الرحلة الخطرة، وهي أولى الصور التي التقطت للمدينة كلها، لهي أكثر بلاغة من أي وصف، وتسمح بكلّ دقة بتقدير أهمية العاصمة الدينية للإسلام. ويقدر كورتلمون سكان مكة المكرمة في ذلك الوقت بـ١٠٠ألف نسمة؛ ٧٥٪ منهم من الهنود، ويتحدث كورتلمون أيضاً عن الدرويش الجزائري؛ وهذا لقب يحمله أحد الحمالين الجزائريين، الذين ساقتهم الأقدار إلى مكة المكرمة، وهو يقضي جلّ وقته في الحرم المكي، في التأمل

والصلاة، ويأكل على موائد الذين يدعونه من الأصدقاء الذين يفعلون ذلك بطيبة خاطر للطفه، وحس مظهره ومخبره. ويتحدث أيضاً عن سوق الصاغة، و عما يلقاء المرء من تعب في شراء الذهب بسبب الطقوس المتبعة في وزن الذهب وتقدير سعره لدي شيخ الصاغة الذي لا يمكن بيع أي قطعة حلي دون العودة إليه، وكلّ ذلك، كما يقول كورتلمون، يتطلب الصبر والتجلد. ويتحدث أيضاً عن الجمال الخضر التي تأتي في كلّ ليلة إلى مكة المكرمة تحمل أهل التقى من موتى المسلمين في كلّ أنحاء العالم، وتحمل منها رفات غير المستحقين إلى بلد بعيدة، حتى يحين يوم العقاب أو الغفران (ص١٠٤ـ١٠٥).

ويتحدث كورتلمون عن الشيخ عبود،[1] مفتي المالكية، ويصفه (ص١٠٠) بأنه يحب رواية الحكايات، والقصص، أو الأشعار حباً جماً، ويروي عنه قصة الملك الهندي الذي جاء إلى الحج أيام عبد المطلب عليه السلام، برفقة أسرته وخدمه، وحمل معه ثروة ضخمة؛ كي يقيم إقامة دائمة في مكة المكرمة، ويموت فيها، ويدفن في المعلا، لعل الله

١. هو الشيخ محمد عابد بن المرحوم الشيخ حسين، مفتي المالكية بمكة المكرمة، ولد في عصر يوم الأحد من شهر رجب عام ١٢٧٥هـ في مكة المكرمة، فأحاطه والده الشيخ برعايته، ورباه تربية إسلامية، نبغ في علوم الدين واللغة؛ مما أهله لتولي منصب الإفتاء بعد والده على مذهب الإمام مالك في الحرم المكي الشريف. وكان الشريف عون ناقماً عليه متربصاً به، ونفاه مع جماعة إلى اليمن، ترحل في إمارات الخليج الفارسي زمناً، وأقام بدبي فترة طويلة، ثم عاد إلى مكة المكرمة متنكراً، وظلّ متخفياً حتى وفاة الشريف عون ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. توفي محمد عابد عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م. انظر ترجمته في كتاب عمر عبد الجبار: سير و تراجم بعض علمائنا في القرن الرابع الهجري، ط٢، جدة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص١٣٢ ـ ١٥٣ .

يغفر له ما اقترفه من ذنوب بحق رعيته، ولكن عبد المطلب عليه السلام أنبأه وأخبره أنّ موته في مكة المكرمة ودفنه فيها لا يغير من أمره شيئاً، وقال له: «اذهب هذا المساء لتنام وحدك في المعلا على حصير بسيط، ثم عد إليَّ غداً، وقُصَّ عليَّ ما تراه في الحلم». ونفذ الملك الهندي ما طلب منه عبد المطلب، ورأى في منامه أشباحاً بشرية تتحرك غير واضحة المعالم حول الجمال العجيبة التي تحمل أحمالاً ثقيلة.

إنها الجمال الخضر التي تحدثنا عنها قبل قليل. ويروي له الشيخ عبود قصة أخرى عن الفتى الموريسكي الذي أحب أميرة إسبانية أسلمت على يديه، ثم فرق والدها بينها وبين حبيبها، فماتت من الجوى، ودفنت في بلاد الروم، ولما أراد الفتى أن ينبش قبرها ليسترد أسوارة كان قدمها لها لتظل له ذكرى، كانت تنتظره مفاجأة هائلة؛ لقد اكتشف أنّ جثتها ليست في القبر، وإنما فيه جثة شيخ بدوي تلتمع في يده سبحة ثمينة، فأخذ السبحة، وبعد معاناة كبيرة، وسفر طويل، يصل الفتى إلى مكة المكرمة؛ ليموت فيها بعد أن فقد كلّ من يحبّ، ولما وصل وصلى في الكعبة، وخرج يجوب الشوارع والسبحة في يده، وإذا بفتى يصرح في وجهه: «أني لك هذه السبحة، أيها التعيس؟ ليس لها مثيل في العالم، وكانت رغبة والدي أن تدفن معه في المعلا، لقد سرقتها من قبره يا نباش القبور»! ويذكر الفتى أنه عثر على السبحة في بلاد الروم، ويروي لهم قصته الحزينة بالتفصيل، فحملوه إلى القاضي، الذي قرر أن يفتح قبر الشيخ في المعلا لاستجلاء حقيقة الأمر، ولما فعلوا وجدوا في القبر جثة العذراء، والأسوارة تلتمع في ذراعها؛ لقد قامت الجمال الخضر بمهمتها.

ويتحدث كورتلمون عن حوار دار بينه وبين الشيخ عبود عن أصل اللغة العربية، وهو يذكر في هذا المجال أنّ العربية من أقدم لغات الأرض، وربما تكون أصل اللغات كلها. ثم ينتقل للحديث عن المنازل في مكة المكرمة، وعن ندرة الأشجار، والخضرة فيها،

ويذكر أنّ للشريف الأكبر ثلاثة قصور فيها؛ أحدها تهدم منذ وقت قريب بفعل حريق شب فيه، وثانيها، وهو أقدمها وأجملها يقع في الشارع الرئيسي على بعد حوالي ٥٠٠ متر عن الحرم، وعمارته حسب كورتلمون رائعة الجمال، وفيه مشربيات قديمة، مصنوعة بمهارة، تذكر بالأسلوب الفينيقي، أما القصر الثالث فهو عبارة عن منزل ريفي، يقع في أقصى شمال المدينة، على الطريق إلى مني. ويقدر كورتمون سكان المدينة المقدمة بـ١٠٠ألف نسمة، أغلبيتهم (٧٥٪) من الهنود كما يقول (ص ٨٥). ويتحدث عن قصر الوالي التركي، والي مكة المكرمة والحجاز، وهو يمثل السلطة السياسية، ويقول: إنه متاخم للحرم المكي بالقرب من الصفا، وبالقرب منه تقع المطبعة الوطنية في مكة المكرمة، التي تطبع فيها الكتب الدينية، والفقهية، والتاريخية التي يقرها رجال الدين.

وقد كان كورتلمون خلال وجوده في مكة المكرمة خائفاً من أن يكتشف الناس حقيقة أمره فيعدونه جاسوساً، وربما لقي حتفه لأنه لن يجد من ينقذه كما أنقذ الشريف الأكبر ليون روش قبله، يقول: «إنّ خطر القبض عليَّ بتهمة التجسس كان خطراً حقيقياً، ولكنني كنت أواجه من يسألونني عن هذا الأمر بحجة كانت هي سلاحي الذي أشهره مراراً وتكراراً، كنت أقول: لو كانت لدي نية خبيثة أخفيها لعمدت إلى الاستفادة من موسم الحج للاختباء بين حشود الحجاج، ولم يكن الأحد أن يلاحظني في وسط الأجانب من كلّ الأجناس والبلاد».

ثم يقول: «ولكنه، وعلى الرغم من ذلك، لفت صديقي مفتي المالكية الشيخ عبود نظري إلى أنه ينبغي عليَّ أن أغتبط للموقف المتساهل كلّ التساهل الذي تنهجه السلطات هذه الأيام مع الأجانب الذين يرغبون في الإقامة في مكة المكرمة في غير موسم الحج». وخاطبه الشيخ عبود قائلاً: كان الأمر في الماضي مختلفاً. فمنذ سبع أو ثماني سنوات كانت السلطات تخلي المدينة من الأجانب بانتهاء موسم الحج الرسمي.

واسترسل كورتلمون بعد ذلك في الحديث عن مفتي المالكية هذا، وعن حبه رواية القصص والحكايات، والشعر. و يقول كورتلمون، (ص١٠٠): لقد وجدته، (الشيخ عبود) محباً للأشياء الغريبة، فتجرأت يوماً وسألته عن أصل اللغة العربية، و قلت له: يزعم علماؤنا أنّ الكتابة العربية تنحدر في بعض جوانبها من العبرية. فردَّ عليَّ ساخطاً، أيُّ دجل هذا؟ إنّ لدينا في المكتبة مخطوطات قديمة تعود إلى فجر التاريخ، قبل بعثة سيدنا محمدﷺ بزمن طويل. ولما أعربت له عن رغبتي الشديدة في رؤية إحدى تلك المخطوطات لأنظر فيها. ويقول كورتلمون: إنّ الشيخ عبود قال له حينئذ: إنّ رؤية تلك المخطوطات ليس بالشيء اليسير، وإنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية إحضار إحداها، أو مرافقة كورتلمون إلى المكتبة التي تُحفظ فيها، على الرغم من الثقة التي تبدو فيما قاله له. يقول الشيخ عبود مخاطباً كورتلمون: «لقد نفذت بصيرتي إلى مخبرك، وأنا أثق في صدقك، ولكنني لست إلاّ عبداً بسيطاً من عباد الله، ولا أستطيع أن أفعل لك كلّ ما أتمناه لك من خير ...».

ويقول كورتلمون: ثم سألني بعد ذلك، «هل رأيت النقش الحجري الموجود على طريق منى؟ فأجبته بنعم، على يسار الطريق، على مسافة يسيرة من مدخل القرية، ولكنه نقش كوفي متأخر، و ليس له في نظري أيّ أهمية علمية، فأجابني لقد كان هناك فيما مضى على الطريق إلى عرفات نقوش كتابية مزينة برسوم تحتوي وجوهاً بشرية تعود إلى ما قبل الإسلام...». ويثبت كورتلمون في (ص١٥٢) رسالة بالعربية مع ترجمتها الفرنسية من الشيخ عبود إلى مفتي المالكية في الجزائر، ويدعى بن زاكور، والرسالة مؤرخة في٧ ربيع الثاني١٣١٢هـ ...

وقد غادر كورتلمون مكة المكرمة بعد أن زار كلّ ما يودّ زيارته من أماكن الحج، والتقط صورة تمثل منظراً عاماً لمكة المكرمة، كما مرّ معنا من قبل. و قد غادر

مكة المكرمة ممتطياً حماراً شأنه في ذلك شأن الحاج أكلي وبعض المسافرين الذين كانوا أصدقاء للحاج أكلي؛ وهم مطوفون من طرابلس الغرب ومن تونس يذهبون إلى جدة ليركبوا السفن من هناك باتجاه بلادهم، وقد كانا ينويان مرافقتهم حتى ينبع، المحطة الوحيدة بين جدة والسويس، والذهاب من هناك إلى المدينة المنورة، بينما يتابع الآخرون طريقهم نحو الشمال. ويورد كورتلمون في (ص١٥٩ــ١٦١) ترجمة أغنية تركت أثراً في نفسه، كان يغنيها أحد أولئك المسافرين واسمه عبد الواحد، وأورد السلم الموسيقي لها، و قال: إنّ الشعر العربي يكاد يستعصي على الترجمة، ولكن بعض الكلمات التي تتردد في الأغنية جعلته يقضي الليلة ساهراً يحاول ترجمة الأغنية التي كانت مليئة بالشكوى والرقة أحياناً، وكانت تتميز غيظاً تارة، وتنضح بالحزن في أحيان أخرى. ولما وصل كورتلمون جدة، وزار القنصلية الفرنسية زيارة قصيرة لتأشير جواز السفر، وكان يريد التقاط بعض الصور في جدة، و خصوصاً قبر شارل هوبر، واستطاع أن يقوم بذلك دون أن يلحظه أحد. وبعد إقامة استمرت عدة أيام في جدة غادرها على متن سفينة نمساوية، و لما وصلت السفينة إلى ينبع أخبر الحاج أكلي كورتلمون بأنه لن يستطيع اصطحابه إلى المدينة المنورة بسبب مرضه، واكتفيا بجولة في ينبع وعَلَماً هناك بموت أحد أعيان المدينة المنورة السيد خالد Djama el- Lil، وهو صديق حميم لابن رشيد ملك نجد. ويتحدث كورتلمون في الصفحات (١٩٥ـ١٩٧) عن ابن رشيد وحكمه وعلاقته بخالد المذكور، ويأسف لأنه لم يستطع مقابلة ابن رشيد، ويأمل في أن يستطيع في رحلة أخرى زيارة قلب الجزيرة العربية، ويتحدث عن النقوش الموجودة في منطقة المدينة المنورة، ويقول إنّ ما في أيدي العلماء الغربيين هي بعض النقوش التي جلبها الرجل الشجاع شارل هوبر من مدائن صالح ومن تيماء، بينما يقول المدنيون إنّ في المدينة المنورة مئات النقوش من زمن الحروب مع العبريين والرومان. ثم غادرت

السفينة ينبع ووصلت بعد يومين إلى السويس، وهناك التقى بابن الشريف الأكبر الذي كان قادماً من استانبول. و يقول كورتلمون بشأن رحلته: «يسود بين المسلمين سوء فهم كبير بخصوص رحلتي، علماً أنّ موقفي من الإسلام لم يتغير قبل الرحلة و بعدها، وأنا أتابع التفكر فيه بصدر رحب، وجدية مطلقة، و كلي أمل أنّ هذه الصفحات ستؤدي إلى انقشاع سوء الفهم، وأنا انتظر بثقة ما سيأتي به المستقبل، المستقبل الذي آمل أن يسمح لي بتحقيق حلمي الجميل في السفر إلى قلب الجزيرة العربية، إلى نجد». وقد عاد كورتلمون إلى فرنسا على متن السفينة ملبورن، التي رست في ميناء مرسيليا.

ويختم كورتلمون رحلته بملحق تحدث فيه عن رحلات الأوروبيين إلى الحجاز وقومها، وقد اعتمد في هذا الملحق اعتماداً كلياً على كتاب الطبيب أدريان بروست،[١] Adrien Proust، المعنون:

الاتجاه الجديد للسياسة الصحية،[٢] وهو كتاب كان يظنه الباحثون ضائعاً، ولم يبق

---

١. Adrien Proust – Achille أخيل – أدريان بروست: طبيب فرنسي، ولد في منطقة الأور – لوار Eure – Loir في عام ١٨٣٤م، وتوفي في باريس عام ١٩٠٣م، و عمل طبيباً في مستشفيات باريس حتى عام ١٨٧٧م، ثم مدرس العناية بالصحة العامة حتى عام ١٨٨٥م، وكان منذ عام ١٨٧٩م عضواً في المجمع الطبي الفرنسي، ونشر عدة كتب في مجال الأوبئة والصحة العامة والخاصة. انظر: معجم لاروس القرن العشرين، ج٥، ص٨٢٠ .

٢. الكتاب نشر عام ١٨٩٦م، وهو في ٤٥٦ صفحة مع صور وخرائط، انظر: كتالوج الكتب المطبوعة الموجودة في المكتبة الوطنية الفرنسية، مج ١٤٣، باريس المطبعة الوطنية، ١٩٣٧، العمود ٤٥١. وقد ورد العنوان كالتالي:

منه إلاّ ترجمة تركية وصفها وتحدث عن إشكاليتها الدكتور سهيل صابان.[1] وقد استطعنا من خلال رحلة كورتلمون معرفة عنوان الكتاب وطبيعته.

وقد عثرنا بآخرة على كتاب ألفه غي كورتلمون GUY COURTELLEMONT، الذي عرفنا أنّ كلّ ما يجمعه بالمؤلف هو الاشتراك بالاسم فقط؛ ذلك الكتاب بعنوان: **جرفيه كورتلمون: رائد تصوير الضريح النبوي:**[2]

Le Pionnier photographe de Mahomet وفيه حديث عن حياة كورتلمون وآثاره، وعلمنا منه أنه كان في عام ١٩٨٥م في باريس يعدّ لرحلته إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية، وحدّد لها أن تبدأ في اكتوبر «تشرين الأول» من عام ١٨٩٦م، ولكنها لم تتم.

وقد رزق في الثامن من ديسمبر «كانون الأول» عام ١٨٩٥م ولداً كان له ثلاثة أسماء: فيكتور، شارل، وعبد الله، وقد اختار هذا الاسم ليسجل حقيقته اهتدائه للإسلام حتى في أبنائه. وكانت حياته بعد ذلك سلسلة طويلة من الرحلات في أنحاء العالم، بدون مذكراته، ويلتقط الصور الجميلة التي تنشرها المجلات المختصة. وفي بداية سبتمبر

L'Orientation nouvelle de la politique sanitaire، par le professeur Proust،... Conférences sanitaires internationales (Venise، Dresde، Paris). Réglement de police sanitaire maritime de ١٨٩٦...-Paris، Masson، ١٨٩٦. In-8، XII-٤٥٦ p.، fig. Et carte.

١. مجلة «الفيصل»، العدد ٢٧٠، ذوالحجة ١٤١٩هـ/أبريل «نيسان» ١٩٩٩م، ص ١٢٢-١٢٨. وانظر مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٦، ع ٢، رجب - ذوالحجة ١٤٢١هـ/ اكتوبر «تشرين الأول» ٢٠٠٠- مارس «آذار» ٢٠٠١م، ص ٢٢٥.

٢. نشرته دار سي. لاكورNIME ، C. LACOUR في نيم فرنسا، ١٩٩٤م.

«أيلول»، عام ١٩١٠م، دعي إلى تدشين الخط الحديدي الحجازي الذي يربط دمشق بالمدينة المنورة، ثم توجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة والتقط صوراً للضريح النبوي، هي أول الصور الملونة التي تلتقط لهذا الضريح، وهي اليوم محفوظة في المكتبة السينمائية روبير لينن في مدينة باريس

Cinemathéque Robert Lynen de la ville de Paris

تلك كانت قراءة في واحدة من أهم الرحلات التي أثارت جدلاً كبيراً حين صدورها، لأنّ صاحبها اعتنق الإسلام، وشهد على ذلك الشيخ عبود مفتي المالكية في مكة المكرمة، وناصر الدين دينيه، و غي كورتلمون في كتابه، وقد أثار ذلك عليه أضغان كثير من المتعصبين الذين كانوا يحاولون عرقلة كلّ أعماله بعد أن أسلم وأصبح اسمه عبدالله بن البشير.[١]

○ ○ ○

١. هذا هو الإسم الذى كان مدوناً على جواز سفره في أثناء رحلته إلى مكة المكرمة، وأصبح يعرف به لدى المسلمين سواء في الجزائر، أو في غيرها من البلدان الإسلامية التي زارها بعد عودته من مكة المكرمة .